

البتراء (السلع)
مدينة أدوم الصّخريّة

تأليف: مارغريت أليس مَري

ترجمة: دينا الملاّح

مراجعة وتحرير: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

البتـراء (سلـع)

مدينة أدوم الصّخرية

تأليف

مارغريت أليس مَري

ترجمة

دينا الملاّح

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS154.9.P48 M812 2012

Murray, Margaret Alice
[Petra, The rock city of Edom]
البتراء (سلع) مدينة أدوم الصخرية / تأليف: مارغريت أليس مري ؛ ترجمة :دينا الملاح ؛ مراجعة و تحرير : أحمد أبيش.
ط. 1.- أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : Petra The rock city of Edom
تدمك : 978-9948-01-372-3
1. البتراء(الاردن) -- تاريخ-- 400 ق.م106-م. أ. ملاح، دينا. ب. إيش، أحمد. ج.العنوان. د.السلسلة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

البـتـراء (سلـع)
مدينة أدوم الصّخرية

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

منذ اكتشـاف أوروبا لحضارة بترا في مطلع القرن التاسـع عشـر على يدي الرّحّالة السّويسـري الشـهير يوهان لودفيغ بوركهارت عام 1812، غدت هذه العاصمة النبطيّة الفريدة في جبال أدوم واحدة من أشـهر وأجمل صروح الحضارة العربيّة في المشرق، وأكثرهـا إثـارة وتشـويقاً، حتى أضحت في عصرنـا المعلم الأثـري الأول في الأردن، واختيرت بجدارة ضمن قائمة عجائب الدّنيا السّبع الجديدة.

ولا ريـب أنّ العـرب الأنبـاط كانوا من أكثر شـعوب العالـم القديـم ذكاءً وموهبة، ولم يبـق من حضارتهم سـوى هذه المدينة المذهلة المحفورة في الصّخـر. هذه المدينة الأثريّة الواقعـة في براري جنوبـي الأردن والخارجة كأعجوبة من قلب الصّخـر الرّملي ذي اللون الأحمر الدّاكن، تبقى واحدة من أجمل ما جادت به قريحة البشـر بفكر واعٍ وإزميل حاذق. وعلى ذلك، فإن هذه الصّخور التي دبّت فيها الحياة، تحوّلت على مدى العصور إلى إبداع خالد يوحي باستنطاق الحجر وكشف أسرار هذه الحضارة البائدة.

فعلى امتداد حوالي 2000 عام، بادت حضارة هؤلاء الأنباط وطواها النسـيان. غير أن الأنباط مع ذلك كانوا معروفين في أيام الملك هيرود الأكبر وأبنائه، كما كان العديد من الأباطرة والقادة الرّومان على اطّلاع وثيق بما للأنباط من سـلطة وتأثير واضحين، وكانـوا ينظرون بعين الحسـد إلى غناهـم وثرواتهم. وكان أن عانـى الأنباط الكثير من صراعـات السّـلطة التـي استعرت إبّان حكـم الإغريق والرّومـان والأسـرة الهيروديّة الحاكمة، وظلّوا على الرّغم من ذلك لاعبين أساسيين في ساحة دراما الشرق الأوسط خلال فترة عصر المسيح عليه السّلام.

تعـود أصول الأنبـاط إلى قبائل رُحّـل رعويّة قطنت في جزيرة العـرب، ثم أضحوا تجاراً موسـرين يتّجرون بالبخور والتّوابل، ونزلوا بشـمالي الجزيرة. وعندما انحدرت مقوّمـات التجـارة، مكّنتهم مهارتهم في اسـتخدام مصادر المياه الشـحيحة من تطوير زراعتهـم. كمـا تمكّن هؤلاء القوم الذين كانوا من سـكّان الخيام مـن ابتداع نمط رفيع وفريـد مـن فن العمارة. وفضـلاً عمّا هو قائـم منها إلى اليـوم في البتـراء، فثمّة العديد مـن الآثـار الحيّة العائدة إلى الإبداع النّبطي تنتشـر في الحجاز، وفي تشـكيلات وادي رمّ الصّخريّـة، وعلـى طول دروب التجارة والحجّ في سـيناء، وفـي البلدات والمعابد المنتشرة من الأردن إلى سوريا وفي صحراء النّقب القاحلة التي ازدهرت على أيديهم يوماً.

أمّـا انطفـاء جذوة الحضـارة النّبطيّة فـكان على أيدي الغـزاة الرّومان، غيـر أن آثار عبقريتهـم ظلّـت ماثلة في الأجيـال المتعاقبة، طويلاً بعد تلاشـي مملكتهم واسـمها، وبعدما اضمحلّ اعتبار البتراء كمدينة رئيسيّة.

فـي هذا الكتـاب الذي وضعتـه الآثاريّة البريطانيّـة مارغريت أليس مَـري، تقدّم لنا مؤلفتـه لمحـة موجـزة ممتعة عن هـؤلاء الأنباط وحضارتهـم البائـدة، وقدرتهم على التكيّـف حسـب ضـرورات الظـروف المحيطة بهـم. وعـن أصولهم القديمـة وتطوّر ثقافاتهـم المتعـدّدة الأوجه، وعـن علاقاتهم بجيرانهـم، وكيف اضمحلّـت مملكتهم تحت حكم بيزنطة لبلاد الشام، عشيّة ظهور البعثة النّبويّة الشريفة.

* * *

ونلخّـص الموضـوع فنقـول: البتراء وكذلك تسـمى سـلع، مدينة تاريخيـة تقع في الأردن جنـوب البلاد 262 كم جنوب العاصمة عمّان إلى الغرب من الطريق الرئيسـي الـذي يصل بين العاصمة عمّان ومدينة العقبة. تعتبر البتراء من أهم المواقع الأثرية في الأردن وفـي العالم، ولعـدم وجود مثيل لها فازت مؤخراً في عام 2007 بالمركز الثاني في المسابقة العالمية لعجائب الدنيا السبع الجديدة.

وهـي عبارة عـن مدينة كاملة منحوته في الصخر الوردي اللون، ومن هنا جاء اسـم بتـرا وتعني باللغه اليونانية الصخـر، يقابله باللغة النبطية رقيمو. كما تعرف البتراء أيضا باسـم المدينة الوردية نسـبة إلى لون الصخور التي شـكلت بناءها، وهي مدينة أشبة ما تكون بالقلعة. بناها الأنباط في العام 400 قبل الميلاد وجعلوا منها عاصمة لهم. وعلى مقربة من المدينة يوجد جبل هارون الذي يعتقد أنه يضم قبر النبي هارون عليه السلام والينابيع السبعة التي ضرب موسى بعصاه الصخر فتفجرت.

تاريخ البتراء

كانـت البتراء عاصمة لدولـة الأنباط وأهم مدنهم، ودامت مـا بين 400 ق.م وحتى 106 م، وقـد امتـدّت حدودها من سـاحل عسـقلان في فلسـطين غربـاً وحتى صحراء بلاد الشـام شـرقا، ومن شمال دمشـق وحتى البحر الأحمر جنوباً. شـكّل موقع البتراء المتوسـط بيـن حضـارات بلاد مـا بين النهريـن وبلاد الشـام والجزيـرة العربية ومصر أهمية أقتصادية، فقد أمسـكت دولة الأنبـاط بزمام التجارة بين حضارات هذه المناطق وسـكانها، وكانت القوافل التجارية تصل إليها محمّلـة بالتوابل والبهارات من جنوب جزيرة العرب، والحرير من غزة ودمشق، والحنّاء من عسقلان، والزجاجيات من صور وصيدا، واللؤلؤ من الخليج العربي.

كانـت نهايـة دولة الأنباط علـى يد الرّومان عندمـا حاصروها ومنعـوا عنها مصادر الميـاه سـنة 105 وأسـموها المقاطعة. وفي سـنة 636 أصبحت البتـراء تعيش على من تبقـى من سـكانها علـى الزراعة، لكن الزلزال الـذي أصابها سـنة 748 - 746 وزلازل أخرى تسبّبت في هجرة سكّانها.

مع بدء رحلات المستشـرقين للعالم العربي في القرن التاسـع عشـر، تم أكتشـاف البتـراء عـام 1812 م علـي يدي المستشـرق السويسـري بوركهارت الـذي تعلّم اللغة العربيـة ودرس الإسـلام في سـوريا، وجاء إلى البتراء مدّعياً بانة مسـلم مـن الهند بعد ان تنكّر بزي إسـلامي وهدفه تقديم اضحية إلى النبي هارون، وبذلك سمح له السكان

المحليـون بالدخـول إلـى المدينـة الورديـة، وقد احتـوى كتابـه المطبوع عـام 1828 والمعروف باسم «رحلات في سوريا والديار المقدّسة» على صور للبتراء.

ومن أهم الرسومات التي اشتهرت بها البتراء الليثوغرافيا التي رسمها داڤيد روبرتس للبتراء ومنطقة وادي موسى أثناء زيارته عام 1839، والتي تجاوز عددها عشرين لوحة ليثوغرافيـة، وقـد طبـع العديـد منها ممـا أعطى البتـراء شـهره عالمية. ويوجـد للبتراء العديـد مـن اللوحـات والصّور الأخرى التي تعود للقرن التاسـع عشـر، مما يدّل على مـدى الاهتمام الذي أضفاه إعادة اكتشـافها على أوروپـا في ذلك الوقت. من الأعمال المشهورة للبتراء لوحة فنية بالألوان المائية لمناظر البتراء حوالي 1840، وأول خارطة مخطوطة للبتراء من رسـم الرحالة الفرنسـي لابورد حوالي عام 1830، وصور للبتراء تصوير فرانسيس فريث عام 1830.

* * *

كان البحث في الكتاب ممتعاً، ومليئاً بالفائدة إلى حدّ أنه يسـتثير القارئ لزيارة هذه المدينة السّـاحرة ومحيطها الصّخري الوعر. وهو يعيد إلى ذاكرتنا كتاباً شـبيهاً بفحواه وظـروف مؤلفته، هو كتاب الآثاريّة البريطانيّة ماري تشَـب «مدينـة في الرّمال». ونظراً لأهميّـة هذا المبحـث وجماليّة موقعه الذي يوحي بمغامـرات الصّحراء، فقد صدرت عنه كتب كثيرة وأنيقة، من أجملها كتاب جاين تايلور:

Petra, The Lost Kingdom of the Nabataeans.

أي: «البتراء، مملكة الأنباط المفقودة»، صدر في لندن ونيويورك عام 2001.

أخيـراً، فقـد بذلت ما أمكن في ضبط عبارات النصّ وتسـمياته بمـا يفي بالمطلوب إلى حدّ كافٍ، وقد بيّنت غوامض النصّ في الحواشي.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *18* ديسمبر *2011*

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والأسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1 – بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الأسماء الفرنسيّة، أمّا في الأسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 – الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho chica,. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: macinare ciao, Cesare,. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء الإنكليزيّة: چستر، چڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3 – أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، ويعرّبون لوحات الطرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمه بثلاث نقاط: ڠ تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (ڠيرير) أو كما في اسم: Guillaume (ڠيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghibellini (ڠيبيلّيني). وهذا طبعاً في الأسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي

التركيّـة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشـكل سـهل وذكـي، فخصصوا حرف g للجيـم اللهويّة، كقولهـم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشـجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّـا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشـكلة، إذ ليس لديهم جيم شـجريّة أصلاً بل لهويّة فحسـب، كما في: Gewehr (غيڤير)، وإن أرادوا رسم الأسماء الأجنبيّة لقوا فـي ذلك التباريـح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّـة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسـپان، فحرف G له أحكام واسـعة يطول شـرحها، فالأصل في القشـتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنـة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسـمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراڠون.

* * *

أمـا التعبيـر في العربيّـة عن حرف الجيـم اللهوي بكتابتـه جيماً (كما فـي مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شـجري مُشـبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهـوي مُشـبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتـى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتـب: جرناطة، البرتجال، بلجاريـا، مجنطيس.. أم هل نسـمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

مقدّمـة

رغـم أنّ معرفة الأوروبيين بوادي البتراء[1] مـا زالت حديثة العهد، فإن عدد زائريها آخذ في ازدياد كل عام. وتبعاً لذلك، لا بدّ أنّ الاهتمام بالمكان وتاريخه سيزداد بالقدر ذاته، لكن لمّا كان ليس ثمّة كتاب يقدّم عرضاً ميسّراً حول البتراء وتاريخها، فإنّني أُقدم على وضع هذا الكتاب لتعريف «المواطن العادي» بها، أو ربما عليّ أن أكون أكثر دقّة بقولي: «زائر البتراء».

تتمتّـع البتراء مـن الناحية الأثرية بأهميّـة كبرى، لأنها تنتمي إلـى حقبة محدّدة، في تلـك الفترة الغامضة التي أخذت فيها سـلطة روما بالارتقـاء. أمّا أطلال جَرَش وعمّان فتعـود إلـى الفترة التـي كانت لروما فيهـا السّـيطرة المُطلقة على شـرقي الأردن وهما تبقيـان شـاهدتين علـى ثرائها وقوتهـا. وأمّا البتـراء فلقد أخذت فـي الانحطاط حينما عجز الأنباط إبّان عهد «السِّلم الرّوماني»[2] *Pax Romana* عن تقديم الحماية لقوافل التجـارة. فخَوَت البتراء وأفل نجمها، وتحوّلت التجارة إلى قنوات أيسـر، لا ريب بأن الأنبـاط المَهَـرة قد تبعوها. فـإن أمكن التّنقيب عن آثار البتراء علـى نحو يليق بأهميتها لأصبـح تاريخهـا واضحاً، منـذ صعودها على شـكل مركز تجاري صغير مسـتتر، إلى عصر ازدهارها *Blütezeit*[3]، ثـم انحطاطها فموتها في الـختام.

---

(1) أضطر لإبقاء الاسم كما هو شائع: البتراء، رغم عدم اقتناعي بذلك، والصّواب إما: سلع، أو: پترا. أما البَتراء فتسمية عربيّة تعني: المبتورة! راجع المقدمة.

(2) «پاكس رومانا» تعبير لاتيني يشير إلى عهد أوج عظمة الإمبراطوريّة الرّومانيّة، منذ نهاية الحرب الأهليّة الجموريّة وتأسيسها على يد أوغسطس قيصر. دام 207 سنين بين 27 ق.م - 180 م.

(3) كتبت المؤلفة العبارة بالألمانيّة، وهذا ما يدرج عله كثير من أدباء الإنكليز منذ العصر الفيكتوري

كـم هـي قليلة تلك المدن فـي العالم التي يمكـن العثور على تاريخ تـام لها، ومنها البتراء التي تنتظر عالم الآثار المناسب.

أمّـا مَن كان يقطن وادي البتراء قبل الأنباط، فأمر لا يمكن استبيانه إلا في مدوّنات الكتـاب المقـدّس والمرويّات الشـفاهيّة لـدى اليهود. لـذا ينبغي ألا يتجـول أحد في فلسـطين أو شـرق الأردن إلا والكتـاب المقـدّس بيـده. إنّ الأدوميّيـن والحوريّيـن، والقينيّين، وأبناء سعير، وأرض عوص، وبرّيّة فاران وأرض تيمان، أسماء تشير جميعها إلـى هذا الجزء من شـرقي الأردن ووادي عَرَبـة. وكثير من الشـخصيات الكبرى التي تـرد أسـماؤها في الكتاب المقدّس مـن أبناء هذه الأرض. فمن هؤلاء قايين[1] ونسـله القينيّون، مثل يوبال وتوبال قايين وحابر القيني؛ وكان عيسو حاكماً لهذه الأرض.

ولقـد مـات هارون و[أخته] مريم[2] في نطاق هذه المنطقة، كما يبدو أن النّبي بلعام الذي أُكره على مباركة إسرائيل كان من ملوك المنطقة (وفي حكايا العرب ترد روايات عـن بهائـم ناطقـة). أمّا إن كان ثمّة آثـار تدل علـى أن أولئك الأقوام القدامـى ما زالوا مدفونيـن فـي الأقنية وحقول البتراء الصّغيرة، فلا شـيء يمكـن أن يظهرها إلا التّنقيب الأثـري السّـليم[3]. وعلينا أن نلاحـظ أنّ التربة هناك يتخلّل بعـض أجزائها فراغ عميق يكفي لإخفاء أشياء يعود عهدها إلى أزمان سحيقة أبعد من زمن الأنباط.

أمـا آثار العهـد الرّوماني فكثيـرة، لكنّها جميعها متداعية. وإذا شـاهدنا مـا تم في بلدان أخرى من ترميم أبنية قديمة مشابهة، نجد أن من الممكن تجديد هذه المباني إلى ما يضارع روعتها الأصلية. وها هي ذي الأحجار ما تزال مُلقاة هنا وهناك تنتظر أيدي المرمّمين.

بنقل عبارات فرنسية وألمانيّة، فهم إلى اليوم مثلاً يستخدمون: *par excellence* أو: *déja– vu* بالفرنسية، أو: *Blitzkrieg* أو: *Gesundheit* بالألمانيّة.

(1) أي ابن آدم عليه السّلام، يشيع اسمه في تراثنا المكتوب: قابيل، وهذا غلط مصدره كتاب النيسابوري الثعلبي «عرائس المجالس» في قصص الأنبياء، الحافل بالإسرائيليّات.

(2) أي مريم بنت عمرام، أخت النبيّين هارون وموسى عليهما السّلام.

(3) هنا بيت القصيد.. فأين هي آثار مرويات التّوراة المزعومة في فلسطين؟ لا شيء أبداً على الأرض.

وهـذه الأحجـار لا يمكن أن تكون نُقلت من مكانها، لأنه لـم يكن هناك من يحرّكها أصلاً. ولـم يُقم في ذلك الوادي أيّ بناء منذ أن غادره الصّليبيون، فمن ذا الذي يتجشّم عنـاء حمـل تلك الأحجـار الضخمة التـي كانت مادة البنـاء المتوفّرة فـي تلك البلاد؟ وحيث الحشد الأكبر من الناس لا يعيشون في بيوت مبنية بالحجر، وإنما في خيام.

ربما كان من شأن الشارع الفخم في البتراء بما حفل به من مبانٍ عامّة ومعابد عظيمة أن يضاهـي الشـارع ذا الأعمدة الذي يمتدّ لمسـافة ميل في جرش، لـو قُيّض له أن يتمّ التنقيـب فيـه وترميمه كما تمّ فـي لجرش. إنّ «العمـود الفقري» للبتـراء كتلة من البنى الضخمـة المهيبة مثل قواعد الأعمدة ونسـق الأحجار المربعـة؛ وهذه ملقاة على وجه الأرض أو نصـف مدفونـة فـي التّـراب، ولا ريب لدينا بأن القسـم الأكبـر منها يغطيها التـراب تمامـاً وبالتالي فهـي محفوظة إلى أن يتـمّ نصبها ثانية في مواضعهـا الأصليّة. وخراب المدينة هذا لـم يكن سـببه الإنسـان، بل قوى الطبيعية كالزّلازل غالباً، وهكذا طمر التّراب لألاء مجدها.

* * *

لقد قسّـمتُ بحثي بين وصف المظاهر الطبيعية في الوادي الذي، وهو يضم القليل ممّـا ألم بـه عن حياة النبـات والحيوان، وفي القسـم الخاص بالحيـوان وصف موجز للسـكان كما شـاهدتهم. وثمّة فصل مكرّس للمعالم الأثرية؛ وفصلان عن التاريخ، ثم يتلو ذلك فصول عن الدّين والعادات والتقاليد، وعن تجارة البتراء. وهذه ليست سوى الخطوط العامة، لأن التّنقيب كما قلنا يبقى وحده القادر على الكشف حقاً عن ظروف الحياة اليومية لأي شـعب قديم. فالشواهد الأدبية رغم أهميتها تبقى دائماً قاصرة، لأن الكتّاب القدامى كانوا أشـد عناية بالأحداث التاريخية منهم بالحياة الرّتيبة التي يعيشها الناس العاديون. ولئن كانت الوثائق ربما توفر حصيلة ثمينة للمؤرّخ وعالم اللغة، فهي مع ذلك لا تفي لعالم الآثار في غالب الأحيان إلا ببعض الثّمار الشحيحة.

وأخيـراً، قمـت باسـتعراض بعض تجاربـي الشـخصية كمنقّبة عن الآثـار. والحق أن كلّ عمـل تنقيبـي مهمـا كان موقعه، يمثّل دائمـاً ضرباً من المغامـرة. وهناك عموماً

مشـكلة الطقس، الذي إن لـم يكن ملائماً يوقـف البعثة أياماً عن العمل. كما أنّ العمال المأجورين يصعب التعامل معهم أيّما صعوبة؛ ومنهم مَن يدّعي معرفة كلّ شيء فيأخذ في تعليمك عملك وهو الذي لم يكن قد مضى أسبوع على عمله، والغبي الأحمق الذي يفسـد خطة عملك التي حرصت على إحكامها فلا يصغي حتى لأوضح تعليماتك، لا يضارعه في هذا إلا الغرّ المتلهّف الذي يتسبّب بالكوارث في العمل.

طبعـاً هنـاك عمـال كُثر جيّـدون، غيـر أن أفضـل الرّجال فـي الغالب، مثـل أفضل الطباخيـن، لا يمكـن التنبّؤ بمزاجهم. ولكن لعلّ المشـكلة الأعظم على الإطلاق إنّما تتبـدّى فـي العمال المتطوّعين بلا أجرة، ممّن يعتقـدون أن في الحفر والتنقيب «أعظم إثـارة»، وتراهـم يتخيلون أنفسـهم حديـث الصّحافـة باعتبارهم أصحاب اكتشـافات السّـاعة على شـكل كنوز هائلـة من الذّهـب والمجوهرات وكأنها كهـف جديد لعلاء الدّين. أمثال هؤلاء قلّما يدركون كم من الأيام على المرء أن يمضي في الرّياح الشديدة البرودة أو تحت أشـعة الشـمس المحرقة وهو يراقب العمال، الذين قد يمضون اليوم في الكدّ ثم لا يعثرون على أيّ شيء.

لا ريب أنّه ليس من المفرح أبداً قضاء الوقت على سفح الجبل والمرء بكامل يقظته متهيئـاً لأمـر ما قد لا يحدث إطلاقاً، فإذا لقي شـيئاً كان عليـه أن يمضي وقتاً طويلاً في توثيـق ما لقيه وتحديد المكان والمنسـوب على المخطّط، ويسـجّل وصفاً سـريعاً في دفتـر الملاحظات لما وجده، ثمّ ينبغي فيما بعد رسـم اللقية وتصويرها. ولعلك تكون محظوظـاً إن لـم تضطر إلى تنظيفها أيضاً. وقد تحتـاج لقية تتألّف من عدّة قطع صغيرة غير ذات أهمية من المنقّب إلى عدّة ساعات لتسجيلها على نحو صحيح، أما إذا كانت اللقية على أي قدر من الرّوعة، كأن تكون ذهباً، فيصبح تسجيلها مثاراً للتوجّس.

إذا كان التنقيـب عـن الآثار في انجلتـرا الآمنة والمريحة يُعتبـر مغامرة – وهو قطعاً كذلـك – فإنه حتماً أكثـر مجازفة في الأصقاع الغريبة. والواقـع أنّني كنت على الدّوام أرى أنّـه كلمـا كان العمـل ينطوي على المغامرة كانـت الحياة أكثر عناءً، وبالنسبة لي إلى الآن تبقى المغامرة مرادفة للعناء. وممّا لا شـك فيه أنّ عواصف الرّمال والعقارب

والأفاعـي كفيلـة حقاً بأن تنغّص الحياة في بعض أنحاء الشـرق الأدنـى. في البتراء لم نكـن نتعرض للعواصف الرّملية، لكنّنا عانينا العواصف الهوجاء والسّـيول، وشـاهدنا العقـارب مراراً أمّا الأفاعـي فلم تظهر بعد، لأن الطقس كان ما يزال بالنسـبة لها بارداً. أمّـا الأزهار فلم تتأثر بالرّيـاح وكانت مبعث بهجة دائمة، والعصافير كذلك كانت متعة للنّظر. كان إذن ثمّة ما يعوّض عموماً، حتى عن عناء الطقس وتنغيصه.

ومن شـاء زيارة البتراء فإني أنصحه أن يصطحب معه معطفاً دافئاً واحداً ليرتديه في النهار، وزجاجة كبيرة للماء السّاخن ليستخدمها حينما يخلد إلى النوم. وتفيد التجربة بأن المرء يحسـن صنعاً إن اصطحب معه حقيبة إسعاف طبيّة صغيرة لمعالجة الجروح والكدمات. وحريّ بالمرء أن يتذكر أنه ليس هناك في تلك الأصقاع دكاكين، إلا ما كان لبيع المواد الغذائية المحليّة، وهي أقرب من عمّان، وتبعد أكثر من ثماني ساعات؛ فإذا صادف أن نسي السّائح شيئاً فلن يجده إلا حين يعود إلى مرابع المدنيّة[1].

ولكـن زيـارة البتـراء حـدثٌ دونـه كل الصّعاب والمشـاقّ التـي يمكن للسّـائح أن يتحمّلهـا. والبتـراء تتمتع بجمـال ليس له نظير، ويزيـد من روعته مكانهـا النائي الذي يصعب الوصول إليه؛ وهو يتمتع بكل روعة الماضي السّحيق، بما يتيح للسائح عندئذ أن يمتـع ناظريه بمشـاهد يندر أن يجـد لها نظيراً فـي العالم القديم. أمّـا الأخطار التي كانت تصادف المسافرين قديماً فقد صارت اليوم من أخبار الماضي.

فالمرء يسـتطيع أن يسافر بأمان واطمئنان من عمّان إلى البتراء، وربما تكون الرّحلة متعبة لكن دون خطر، كذلك يستطيع السّائح أن ينزل في فندق الخيام المقام في الوادي حيث تتوفر له أسـباب الرّاحة. ولئن كان هناك من شـعر بخيبة الأمل في البتراء، فإنني لـم أسـمع بإنسان شعر بالأسف لزيارتها، بل إن معظم الزّوّار ليزعجهم قصر مدة زيارة هذا الموقع الرّائع والجميل.

ليـس الجمال هنا مـن النوع الذي تُعرف به جبال أوروبا مـن بهاء وروعة؛ بل الحق

(1) هذا الكلام في عام 1939، وبعدها صارت البتراء أهم معلم سياحي في الأردن وبها يتوفر كل شيء.

إن مناظر هذه البقعة تتسم بالشدّة والمأساوية التي يبدو أنها أوحت بترانيم «يهوه» التي يحفـل بها الكتاب المقدّس: «وقف وقاس الأرض؛ نظر فرجف الأمم؛ ودُكّت الجبال الدّهرية، وخسفت آكام القدم مسالك الأزل له... أبصرتك ففزعت الجبال: سيل المياه طما، أعطت اللجّة صوتها رفعت يديها إلى العلاء» [نبوءة حبقوق، 3: 6، 10].

يصعب على المرء أن يفهم العهد القديم ما لم يكن قد رأى أرض سعير وأثر الطبيعة والمناخ على الفكر الدّيني عند سكانها. تقدّم البتراء لعالم النفس ولدارس الأديان القديمة حلولاً لقضايا قديمة وتطرح قضايا جديدة؛ وتكشف الصّخور والتلال للفنان مهرجاناً لا حدّ له من الألوان؛ وأما عالم الآثار فالبتراء عنده إحدى أشد المواقع أهمّية في فترة هامة لم تحظَ إلا بالقليل من الدّراسة. فإن لم يكن ثمّة مشكلة في الوقت، كان على كل سائح يأتي إلى فلسطين أن يشمل شرقي الأردن في رحلته ليرى وادي الصّخور الذي ندعوه البتراء.

حريّ بالمرء عند دراسته البتراء أن يتذكر أن مدائن صالح (الحِجر Hegra عند بطليموس وپلينيوس) ربما كانت المركز الحقيقي لتجارة الأنباط. ومدائن صالح هذه وادٍ يشبه شكل حدوة الحصان تحيط به الصّخور. وهنا ثمّة واجهات وكثير من النقوش الكتابية وآثار بيوت بُنيت بالطوب. ويرى الأب أوغ[1] فَنسان Hugues Vincent (*Revue Biblique, 1898, 374*) أنه فيما كانت البتراء عاصمة الأنباط ومقرّ الملك فإن مدائن صالح هي مركز تجارتهم الحقيقي.

وجدير بالذكر أنه ما من أحد من الكتّاب القدماء الذين يرجع إليهم المرء لمعرفة أحوال البتراء في زمانهم قد زار منطقة شرق الأردن، إذ أنهم يقتصرون في رواياتهم عنها على المعلومات التي تبلغهم. وإنه لخطأ طبيعي أن يلتبس على المرء الأمر، فيخلط بين العاصمة والمدينة التجارية الكبرى فيعدّهما مكاناً واحداً. ولكن لمّا أصبح اسم البتراء الآن مرتبطاً بالوادي الذي يقع ما بين السِّيق ووادي السّياق، فلقد ذكرتُ مدائن صالح فقط لأجل أولئك القرّاء الذين يودّون متابعة الموضوع.

---

(1) هكذا لفظ الاسم في الفرنسية، والإنكليزية حتماً ليست أم اللغات حتى نكتبه: هوغ أو هيو.

ولقـد اتّبعت في تعيين أسـماء الجبال والقمم في الـوادي وما حوله التصنيف الذي وضعـه الدّكتـور كنعـان Dr. Canaan، وهـو يقـوم علـى تحقيـق دقيق للأسـماء التي كان يتداولهـا أهالـي المنطقة في ما بينهـم. وإنني آمل أن يتبع الآخـرون هذا التصنيف فيتفـادون بذلك الخلط الذي نواجهه الآن في أغلب الكتب التي تخصّ البتراء. كذلك استخدمت كثيراً نهج الدّكتور كنعان في لفظ الأسماء، سوى ما عمدت إلى تبسيطه في القليل منها، واستخدمت في بعض الأحيان الصّيغ الأكثر شـيوعاً، وإن كانت أقل دقة من سواها. كما عمدت أحياناً إلى استخدام المعاني الانكليزية للأسماء التي صادف أن كانت لي معرفة بها. أمّا الخريطة فقد عمدت إلى التحقق من دقتها بمقارنتها بالخريطة التي وضعها سلاح الجو الملكي.

ثمّة صعوبة تصادف من يتولى الكتابة في موضوع البتراء من حيث تسمية الواجهات وسوى ذلك من المعالم الأثرية الأخرى. فليس هناك من اسم حقيقي لها. فيقال «بناء» و«عمـارة» و«نُصب»، و«بنية»، وهي عبارات تفتقر للصواب لأن المشـار إليها ليسـت مبنيـة أو منصوبـة ولا هـي منشـأة. كذلك فـإنّ عبارة «نُصـب تـذكاري» مضللة لأن ما تشـير إليـه لا يوجد فـي ذاكرة أي شـخص؛ إذ إن الكثير مـن هذه المعالـم قطعاً أماكن للسـكن. ويبدو أن عبارة «مَعْلَم monument» هي الكلمة الوحيدة المقبولة، فهي كما قال الدّكتور جونسـون Dr. Johnson، تعني «كلّ ما من شـأنه أن يخلّد في الذاكرة ذكر الناس أو الأشياء».

وبالرّغـم مـن أنني وصفت بعض سِمات المعالـم، فإنني لم أحاول تناول هندسـة العمـارة أو أنمـاط عمـارة الواجهات بالبحـث. ولا كنـت ادّعيت بأنـي تناولت تعيين تواريـخ الأبـواب الضخمـة، والأبنيـة والأعمـال المحفـورة، لأن كلّ تعييـن صحيح للتواريـخ ينبغـي ألا يقتصـر على معرفة أسـلوب هندسـة العمارة وحسـب، بل وعلى الدّليل الأثري أيضاً الذي لا يمكن أن يرى النور إلا من خلال التنقيب. فتعيين التاريخ أمر ما زال إلى حدّ بالغ يقوم على الاستنتاج، والعمارة والطراز يحتاجان لخبير. لذلك اعتمدت في هذا على بضعة مراجع معروفة واسـتندت إلى خبرات أصحابها، دون أن

أدلي برأيي الخاص في هذا الموضوع.

وختاماً، أتوجه بالشكر إلى الپروفسور إيليس مينز Ellis Minns لترجمته نقش فلورنتينوس؛ وللپروفسور مينز والسّيد جي. ووكر G. Walker لقيامهما بترجمة النصوص الإغريقية، وللسيد ووكر لترجمة رواية القديس نيلوس للهجوم على الدّير ونجاة الفتى من التضحية به قرباناً. كذلك أتوجه بعميق الشكر إلى الپروفسور دبليو. پيرسيڤال يتس W. Percival Yetts الذي أدين له إلى أبعد حدّ لما أسداه لي من عون كثير وتوجيهات قيّمة في موضوع تجارة الصّين مع البتراء. وأنا مدينة للسيد ر. ريتشموند براون R. Richmond Brown لتفضّله بالسماح لي باستخدام بعض الصّور التي التقطها للبتراء.

مارغريت أليس مَري

* * *

الفصل الأول

البتراء

في القرن الماضي، كان الرّحّالون يبلغون البتراء عن طريق وادي العَرَبَة ثم يدخلون وادي البتراء عن طريق وادي الثغرة في الجنوب. وهناك مداخل عديدة للبتراء لعلّ هذا الـوادي أقلها مدعاة للاهتمام، لولا أنه كان يتمتع فـي تلك الأيام بمزيّة هي أن الرّحّالة كان يستطيع دخول المنطقة دون أن يلحظه سكان الجي. أما في هذه الأيام فبالرغم من أن طريق الجنوب ما زال متاحاً، فإنه يكاد لا يسـتخدم أبداً؛ فالمعتاد أن يأتي المسـافر من ناحية الشرق، حيث المشهد أخّاذ يدهش الناظر بروعته.

والطريـق الأسـرع بلا ريب هـو الأعلـى تكلفـة، وإن كان الإقبال عليه فـي ازدياد، وهـو طريـق الجو ويُقصـد بطائرة خاصة من القـدس أو القاهرة إلى معـان؛ ومن معان يتابع القاصد سـفره بالسـيارة إلى الجي، ولكن السّـياح القادمين من القدس يأتون إلى عمّان بالسـيارة، حيث يقيمون فيها وتكون مقرّهم الذي ينطلقون منه في جولاتهم في شـرق الأردن. وطريق السّـيارات المباشـر إنما هو الأقل إمتاعاً هو طريق الجنوب من عمّان في موازاة الهضبة العالية المؤدية إلى معان، حيث يمتد الطريق إلى جانب السّكة الحديدية. أما الطريق الآخر فيفترق عند مخفر الشـرطة في القطرانة ويتابع إلى جانب الهضبة متجاوزاً المرتفعات الكبرى ثم ينحدر إلى الوديان السّحيقة.

وهـذا طريق لا يسـتخدم إلا فـي الطقس الجيد، لأنـه غالباً ما يصبح سـلوكه صعباً بعـد هطـول الأمطـار. ولكن مـا إن تتوقف الأمطـار حتى يغـدو الطريق سـالكاً. وكل مـن يسـتخدمه يجد المكافأة بمشـاهد الطبيعـة الخلابة التي تعوّضه عـن طول الطريق

الإضافـي. وهـذا الطريـق يمر بقلعتيـن صليبيتين، همـا الكَـرَك والشَّـوبَك، وكلتاهما جديرتـان بأن يتوقف المرء لزيارتهما، كما أنه يتجـاوز الطَّفيلة حيث خاض لورَنس[1] إحـدى معاركـه. وعلى طريق الكَرَك يغادر السّـائح معان شـرقاً فيصل إلـى قرية وادي موسـى (كما تعرف أيضاً باسـم الجي Eljy). ولا يخشـينّ السّـائح أن يضل طريقه في الصّحراء إن هو ثابر على الدّرب، فلسوف تطالعه عند النقاط الحرجة جميعها علامات تشير إلى الاتجاهات والمواقع كافة.

وإذا سلك السّائح طريق الهضبة، وهذا واجب إذا كان للوقت أهمية عنده، فعليه أن يتوجه نحو معان؛ وينعطف الطريق عندئذ ناحية الشمال غرب، وينحدر عبر المرتفعات الفسـيحة ناحية وادي موسى. فيمرّ السّـائح عندئذ بنبع أو عين موسى الذي ينسب إلى موسى تفجيره بضرب الصّخرة بعصاه، سوى أن داوتي يسمّيه «عين هارون». وموسى بطـل عدد كبيـر من الحكايات التـي تتصل بالبتراء، ووادي موسـى أحـد معالم البتراء يتخذ اسـمه الحالي نسـبة إليه. وعين موسى ليست مجرّد نبع واحد وحسب؛ إنما يقال بوجـود مئة نبع كبير وصغير، وجميعها قديم قدم الزّمان. ومن هنا تنبع أهمية الجي في الوقت الحاضر، والبتراء في الماضي.

وفي الجي يبلغ طريق السّـيارات، سـواء من الكَرَك أو من معـان، نهايته، ولا بدّ من ترك السّـيارة في مخفر الشرطة. وعلى السّـائح عندئذ أن يمتطي دابة يسمونها حصاناً، إنما هي مجرّد بضعة عظام يكسوها جلد؛ ثم تُنقل الأحمال إلى ظهر دابة أخرى، تكون عمومـاً إما بغـلاً أو حماراً، وتُدفـع أجرة الرّحلة مقدمـاً. والقاعدة أن يتـم دفع الأجرة للشرطة الذين يتولون هذه الأمور كلها، وبذلك لا يتكلف المرء مشقة المساومة.

---

(1) توماس إدوارد لورَنس Thomas Edward Lawrence (1888-1935م) ضابط بريطاني اشهتر بدوره القيادي والاستخباراتي في الحرب التي شنّتها بريطانيا ضدّ الدّولة العثمانيّة في الشرق (1916 - 1918 م) والتي أسفرت عن انتهاء الحكم العثماني. لُقّب باسم: ملك جزيرة العرب Lawrence of Arabia. سننشر كتابه «ثورة في الصحراء» *A Revolt in the Desert* وكتاباً عنه من تأليف المغامر الأميركي لويل توماس بعنوان: «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب» *With Lawrence in Arabia*.

وللسـائح أن يمضي سيراً على الأقدام، إن شاء؛ والمسافة التي عليه أن يقطعها تبلغ قرابـة الثلاثـة أميال من السّـير الشـاق نوعاً ما، لأن معظـم الطريق تجري فيه السّـيول. ويمكن للسائر العادي أن يقطع الطريق في ضوء النهار في الأرجح بالسرعة ذاتها لتلك الدّواب التي يسمونها أحصنة، إنما يحسن بالمرء في الليل أن يمضي إلى مقصده راكباً لأن الدّواب اعتادت الطريق، وتعرف أين تسير.

ويُذكر أنه كان للجي صيتٌ لا تحسـد عليه بين الرّحالة القدماء، فيقول داوتي الذي زار المنطقـة عـام 1875: «شـاهدنا خياماً بالغة السّـوء، ولكنها لم تكـن مضارب بدو. وإنما كان هؤلاء فلاحي وادي موسـى ينتجعون: وقريتهم هي الجي، فوق البتراء. وقد أخبرني الدّليل همساً أن هؤلاء «أشخاص خطرون ولا يأبهون للضابط المقيم في معان ولا لحـرّاس طريق الحج؛ ولو وقعنا في أيديهم وشـاؤوا إعاقتنا للقينا منهم التباريح». والأوروبيـون الذين كانـوا يأتون لزيارة البتـراء في المـاضي كانوا يشـتكون عموماً من سـطوة هؤلاء الفلاحين اللجيين وتعنّتهم». والحق أن القبضة القوية للحكام الحاليين، المتمثلة بالشرطة، هي التي تمنع ظهور هذه السّمعة الآن. وحتى مؤخراً نجد أن أحدث طبعات دليل بيديكر Baedeker بالألمانيّة يذكر مؤكداً[1]:

«يتم توجيه التّحذيرات إلى شيخ الجي بشكل مشدّد».

والطريق من مخفر الشـرطة إلى القرية شـديد الانحدار ووعر جداً، ثم يسير لمسافة ميل بمحاذاة مجرى نهر موسـى، الذي قد تكون مياهه جارية إذا كانت الأمطار غزيرة. فكثيراً ما تكون الأمطار شـديدة في الشـتاء وأواخر الرّبيع فيضفي الماء الجاري الكثير مـن الجمال على مشـهد الطبيعة. والحـق أن الجي ذاتها عبارة عن بسـاط من الأرض توشّـيه الحقـول والحدائق والخضرة: بل ولقـد أجمع الرّحالة الأوائـل جميعهم على أن مظهـر القريـة يـدل علـى الخصب والبحبوحـة التي تنعـم بها وإن غلـب على ذلك نفـور أهليها ومقتهم. والقرية هذه مكتفية تقريبـاً بما تنتجه من مواد بفضل ما لديها من

(1) تورد مَري العبارة كما هي بالألمانية:
"Vor dem Schech von Eldschi sei ausdrücklich gewarnt".

الأراضي التي تنتج مختلف أنواع الحبوب وأشجار التين وسواه من الفاكهة. والمياه هنا لا تنقطع والأرض لا تشكو الشحّ.

أما أهلها فمن الفلاحين الذين يزرعون الأرض، وهم ينتمون إلى عشيرة اللياثنة[1]، وكانوا أصلاً من البدو الرّحل وثروتهم قطعان الماشية التي يملكونها؛ أما اليوم فإن ملكيتهم من الماشية، إن كان لديهم ماشية، لا تمثل إلا جزءاً من ثروتهم. وهذا مظهر آخر لقصة قايين الفلاح الذي يتغلّب على هابيل الرّاعي. وللجي شيخها، إلا أنها تقع في الواقع تحت حكم الشرطة، وهؤلاء يشكلون ضابطة جيدة، حينما تحسن إدارتهم. والشيخ، في شرقي الأردن أو في فلسطين، ليس الحاكم الرّومانسي الذي تصوره الرّوايات، وإنما هو رأس قومه الذي يدير شؤونهم العملية، وهو الوسيط بين عشيرته أو قبيلته والحكومة، كما أنه يرعى شؤونهم القانونية. ويقوم الشيخ بعد التشاور وكبار العشيرة بالحكم في المنازعات المحلية وداخل العشيرة، سوى أن سلطته ليست بالسّلطة التي تسمو فوق النقاش ولا هي بالسّلطة الأوتوقراطية التي لا تمسها المنازعة. فعلى الشيخ أن يبذل ما في وسعه في سبيل صالح قومه، والشيخ الكفؤ من استطاع أن يزيد في رخاء عشيرته ويجد أنها ازدادت بالمصاهرات ودخول من ليس منها في عدادها، بينما يجد الشيخ الرّديء أن عشيرته تتقلص بسبب انفضاض أفرادها عنها.

وهناك على بعد زُهاء الميل من الجي حاجز كبير من التلال الصّخرية شديدة الانحدار وفي وسطها البتراء. والصّخور هنا كلسية ذات لون أبيض كئيب يميل إلى الاصفرار؛ والصّخور تحِد من الطريق بفعل الجروف الشديدة الانحدار التي يصعب ارتقاؤها، ويبدو أنه ليس في جوانبها شقوق أو صدوع تسمح حتى لفأر بتسلقها. وتبدأ واجهات الكهوف والقطع التي يسميها كينيدي Kennedy «الكتل البرجية» في هذه الصّخرة الكئيبة، وهي أول مقدمة للواجهات والصّخور التي هي أبرز ملامح البتراء. ويظهر انعطاف في مجرى الماء يؤدي إلى مجاز ضيق لا منفذ له ذي جدران صخرية،

---

(1) اللياثنة من عشائر وادي موسى، وينقسمون إلى: بني عطا، والرّواجفة، والشّرور، والعلايا، والحسنات، والهلالات.

في الأمام وعلى كل جانب؛ ثم يظهر شق على الجانب الأيسر، هو مدخل السِّيق. وهذا واد صغير ضيق شديد الانحدار يستثير قوى البيان والوصف لدى معظم الرّحالة.

إن السِّيق عبارة عن شق في الجبال الصّخرية يعزل البتراء من ناحية الشرق (اللوحتان 1 و 2). وهذا الشق في بعضه من عمل الطبيعة أصلاً حيث أحدثه زلزال، ثم أصابه حت بفعل المياه، إلا أنه في بعضه مصطنع. إذ لا بدّ أن يكون توسيع الجوانب وتسويتها من عمل الأنباط، حيث لم يكن أحد من تلك الأقوام التي سكنت المنطقة سوى الأنباط على قدر كاف من الحضارة ليتجشم العناء أو يستخدم هذا الحشد من العمال. ويبلغ طول هذا الممرّ الضيق قرابة الميل وربع الميل، وإن كان العرض يختلف، إلا أنه لم يكن يقل، في ما اعتقد، عن اثني عشر قدماً قط. ولا يقل ارتفاع الصّخور عن مئة قدم قط عند طرف الجي، ولكن لمّا كانت القمم تظل على المستوى ذاته فإن الطريق ينحدر بسرعة نوعاً ما، ذلك أن جانبي الممرّ الضيق يصلان إلى ثلاثمئة قدم عند طرف البتراء.

والجوانب شديدة الانحدار، وتتقارب أحياناً فتبدو في بعض المواضع وكأنها تخيّم فوق الممرّ مما يعطي أثراً غير مستحب يوحي أنه ربما ينهار على رأس المرء. كما أن الشمس تكاد لا تسطع فوق الممرّ، إلا اللهم في الصّيف، بحيث أن المرء غالباً لا يرى سوى الشفق عوضاً عن ضوء النهار تاماً؛ وهذا مستحبّ جداً في قيظ الصّيف، أما في الشتاء فإن الرّيح تعصف عندئذ في الشقّ الضيق بقوة عظيمة. واتجاه السِّيق عموماً من الشرق إلى الغرب.

وثمّة شقوق أو وديان ضيقة تكسر هنا وهناك جوانب المنحدرات، وهذه حافلة أبداً بالخضرة؛ بل حتى أن المرء يصادف أشجاراً صغيرة مثل أشجار الزّيتون البري والتين البري التي تضرب جذورها فوق المنحدرات. والواقع أن الأشجار تنمو عند المنحدرات الصّخرية، حيثما تصل أشعة الشمس. ولكن أرض الشق الآن ليست إلا حصى يحملها الجدول إلى هذا الموقع حين يمتلئ بالماء، ولكن بعض أجزاء الأرض المرصوفة تعرّضت للحتّ والتعرية وتبين أنه كان في هذا الموقع في وقت من الأوقات طريق معبّد يؤدي إلى مدينة البتراء.



السِّيق

ولعل ديودوروس الصّقلّي كان المسؤول عن الخطأ الذي أشاعه الزّوار في الأزمنة الحديثة من أنه ليس للبتراء سوى مدخل واحد، هو عبر السِّيق. فيقول: «هناك في أرض الأنباط أيضاً صخرة [وپترا في اللاتينيّة تعني الصّخرة] وهي قوية إلى أبعد حد، نظراً لأنه ليس لها سوى مدخل واحد وتجدهم باستخدام هذا المرتقى يصعدون وهم جماعات صغيرة فيتمكنون بذلك من تخزين ما لديهم بأمان». وقد فهم القوم أن المقصود بهذا الكلام عموماً السِّيق، ولكن ليس يستبعد أن يكون ديودوروس يشير بذلك إلى أم البيارة.

ولئن كان السِّيق اليوم المدخل المعتاد إلى الوادي، فهناك عدة طرق أخرى أيضاً. وكان الرّحالة الأوائل يأتون عن طريق وادي الثغرة جنوب أم البيارة وبذلك يكون دخولهم البتراء من جهة الغرب؛ وهذا أيسر صعوداً من وادي العَرَبَة أو جبل هارون. وهناك طريق آخر يمر فوق الجبال عن طريق البيضاء شمالاً، وهو طريق شاق، إلا أنه ممكن جداً، وهناك ممرّ مباشر من الجي إلى وادي المتاهة. ولكن الطريقين الوحيدين المناسبين لدواب نقل المتاع هما السِّيق ووادي الثغرة. وأحد الأسباب الرّئيسة لدخول البتراء عن طريق السِّيق أن المرء يستطيع أن يرى كامل مشهد الخزنة، وإنه لمشهد لا مثيل لجماله ويصوّر السِّيق يلج وادي الجرة بزاوية قائمة تقريباً، والخزنة ذاتها محفورة في المنحدر المواجه للسيق. وهكذا يجد الزّائر الخزنة أمامه فجأة دون أن يتوقع ذلك. ويُعرف امتداد وادي الجرة بالسِّيق الخارجي؛ وهذا يؤدي مباشرة إلى وادي البتراء، أي الطريق الذي يلتف حول الطرف الغربي لجبل الخبثة Khubtha.

يتصف الوادي بأنه مستدير تقريباً، ويبلغ قطره قرابة الميل. وهو واد كبير منعزل يقع وسط سلسلة جبال سعير التي أعلاها جبل هور (جبل هارون). وهذه الكتلة من التلال الصّخرية التي تسمى تقليدياً سلسلة، إنما هي في الواقع الجانب الغربي من هضبة شرق الأردن، وتنحدر من ارتفاع 4000 قدم لتصل إلى مستوى البحر في وادي العَرَبَة. ويبلغ ارتفاع وادي البتراء قرابة 2800 قدم فوق سطح البحر. والوادي حافل بجداول المياه، وأهمها وادي موسى الذي يقطع السِّيق ويمضي مباشرة عبر الوادي ويخرج

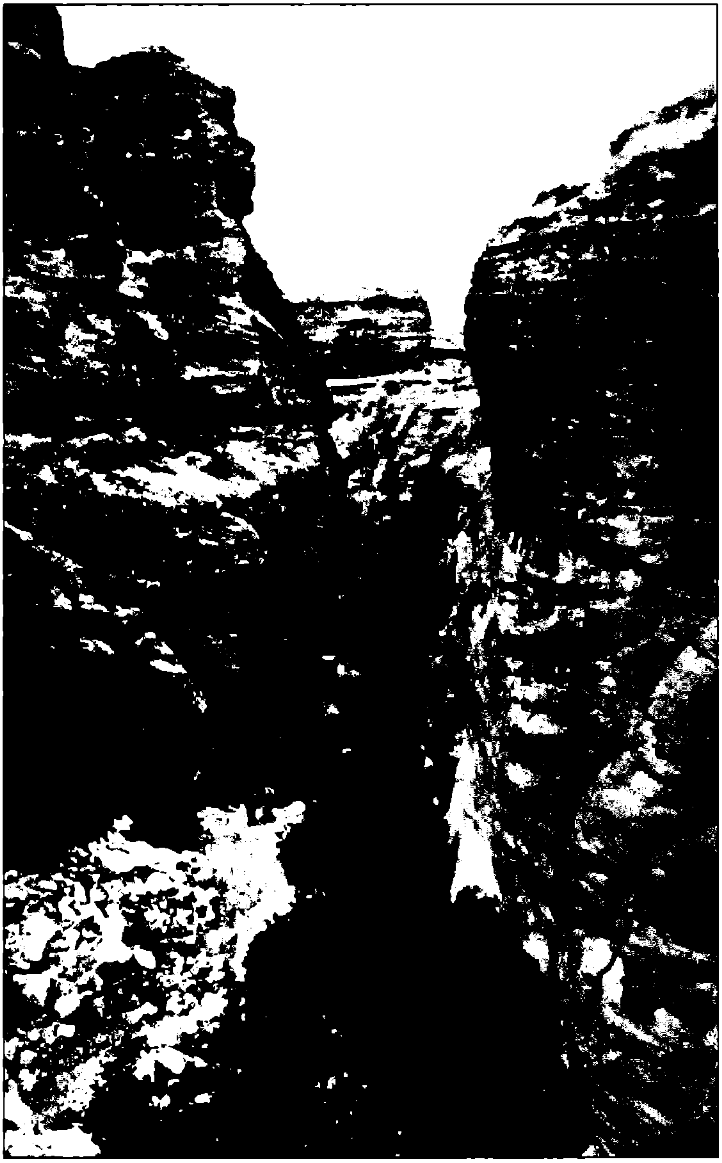
من الطرف الآخر عبر وادي الصّياغ. ويجد معظم السّياح أنفسهم بلا ريب يتنفسون الصّعداء حين يتجاوزون صخور السِّيق المهيمنة فوق رؤوسهم إلى الوادي الفسيح ويرون خيام النزل التي تشكل فندقاً ومخيماً على الطرف الآخر من الوادي (اللوحة 3) ويعتبرونها المنظر الأكثر جاذبية وفتنة في هذا المشهد كله. والحق أني لم أجد بعد أحداً يعنى كل العناية بهندسة العمارة أو مشهد الطبيعة لحظة وصوله بعد رحلة طويلة مضنية.

هناك دائماً ضرب من العاطفة الشاعرية، يرتبط بفكرة الوادي الصّغير المنعزل، وخاصة إذا كان يصعب الوصول إليه وحافلاً بالألوان. ولعل هذا ما يجعل البتراء توقد جذوة الخيال في العالم الغربي. وكانت قد وردت إلى العالم الغربي قصيدة دين بُرغون Dean Burgon والبيت الشهير فيها الذي يقول: «أيتها المدينة الحمراء الوردية القديمة نصف قِدم الزّمن»، جملة ترسم رؤى خيالية تكثف في عشر كلمات قصة البتراء الشاعرية كلها.

تحيط بالوادي جُروف صخرية عالية شديدة الانحدار، عدا ناحية الشمال حيث ترتفع كتلة عيون اغراية Ayun Aghrayeh نحو السّماء. لكن هذا الجبل بسبب من استدارة تضاريسه وكونه مغطى بنباتات قصيرة توحي عن بعد بأنها حشائش وأعشاب، أهمله عمداً كل الذين كتبوا عن البتراء، بالإضافة إلى السّياح. ومع ذلك فإن لعيون اغراية وقت المغيب سمة خاصة بها. فعندما يجلّل الوادي كلَّه ظلٌ كثيف، وتأسر منحدرات الجبل أشعة شمس المغيب، وتظهر ألوان السّماء الزّرقاء والذهبية، عندئذ، تكتسي عيون اغراية طابعاً سحرياً لا تبلغه الصّخور ذات اللون الأحمر الصّارخ. وعلى النقيض من عيون اغراية وقت الغروب نجد أم البيارة عند الشروق. ذلك أن هذه الصّخرة الجبلية الضخمة - اللوحتان (3، 20) - تهيمن على الوادي؛ فهذه الصّخرة ذات القمة المربعة الشكل والمتجهمة نقيض عيون اغراية تماماً، ولكن إلى أن يراها المرء عند شروق الشمس. حيث يغرق الوادي في الظلال العميقة وبينها تشع الصّخرة الهائلة بلون ذهبي براق، ببهاء وجمال لا تبلغهما في ضوء آخر. ولكننا لا نجد في

عيـون اغراية أو فـي أم البيارة أثراً من اللون الأحمر الـوردي. حيث تظهر عيون اغراية فـي أجمل أرديتهـا وهي مجللة باللونيـن الأخضر والأزرق، بينما لـون الذهب البراق النابض بالحياة هو اللون الذي يكسو أم البيارة.

إن الوصف الذي اسـتخدمه بُرغون Burgon حين قال «أحمر وردي» عند الإشـارة إلى البتراء لهو مما يجيزه الشـعر كما أنه من الخطأ قول روستوفسـتيف Rostovsteff «قطعـة مـن اللحم النيـئ الأحمر المائل إلى البنفسـجي» في وصف اللـون ذاته. فلون الصّخـور فـي البتـراء هو الأحمر الضـارب إلى السّـمرة الدّاكنة الذي يتسـم به الحجر الرّملي النوبي الغالب في تكوين الصّخور. فيقول هارت Hart: «يتسـم الحجر الرّملي النوبـي بعمـق اللون وتنوعه، ممّا مـردّه وجود حبيبات متنوعة – مثل أوكسـيد الحديد والمغنيز». والبتراء من الناحية الجيولوجية أحجية. فالحجر الرّملي الأحمر هو الحجر النوبـي ذاتـه، لكنه هنا متحد بالحجر الكلسـي الأبيض، والسّـؤال الذي مـا زال ينتظر الجواب: «أيهما الوافد أولاً الحجر الرّملي أم الكلسي؟» ولن يتوفر الجواب على هذا السّؤال حتى تتم دراسة جيولوجية المنطقة.



السِّيق ونباتات نامية

والمعضلـة الجيولوجية الأخرى التي تواجهنا أيضاً هي التأثير المتموج الذي يرافق تداخـل الصّخـور البيضـاء والحمراء التي تبـدو وكأنهـا موجات بحر تجمّـدت فجأة وصارت عاجزة عـن الحركة. فهذه الخطوط المتموجة الغريبة تضفي ثراء وتألقاً على واجهـات الكهوف المحفورة في الصّخـور. ولولا اختلاف الألوان وتضافرها لفقدت الواجهـات أكثر من نصف جمالها وسـحرها ولانحط الكثير إلـى حدّ الابتذال. ولكن الحـال أن التضادّ بين الحجر الكلسـي الأبيض واللون الأحمـر الدّاكن للحجر الرّملي مع لمسات متناثرة مائلة إلى الأزرق الرّمادي تجعل لون الصّخر مشرقاً زاهياً على نحو لا نظيـر لـه. بينما اللون «الأحمر الـوردي» تعبير فائق اللطف للـون البتراء؛ فالصخور المهيبة لونها بني قرمزي مشـوب بالرّمادي والأبيض وشـيء من الأصفر. والمحصّلة لون معتم داكن، يوحي بمأساة ورُعب أكثر مما يوحي بجمال حديقة ورود.

يتفاوت تأثير مشـهد الطبيعة في البتراء على مختلف الطباع كما يختلف التعبير عن ذلك التأثير. وهناك من يحبّون الجبال، كما أن هناك من يمقتونها، وبالتالي فإن للبتراء معجبيـن متحمّسـين وبـذات القدر لهـا من ينفرون منها. وسـوى هؤلاء هناك السّـياح الذين بلغهم أن البتراء مكان يسـتثير الإعجاب ويمضون في الهذر عن مشـاهدها دون أن ينظـروا إليها فعـلاً. ويغدو هؤلاء في محاولاتهم التغنّي بجمال المشـهد أقرب إلى إفـلات العقل من عقالـه، واللازمة في أنشـودتهم: «المدينة الحمـراء الوردية القديمة نصـف قـدم الزّمان»، كما أنهم يصرّون على أن الصّخـرة البنية اللون هي حمراء وردية لأنه قيل لهم إن هذا لون البتراء. وكانت بعض الرّسـوم التي خرج بها الهواة أدعى إلى الفـزع (وفي هذا القول الكثيـر مما ينبغي أن يوحي) ونُفّـذت بطريقة رديئة، حيث كان التعبير عن الصّخور بصباغ الفوة الأحمر والظلال باللّك القرمزي.

وينقسـم المعجبون بمشـهد الطبيعة والنافرون منه بالتساوي. وأشدّ هؤلاء النافرين اندفاعـاً داوتـي[1] الذي لنثـره المحكم الإيقاع قوة تـكاد تبلغ حدّ الشـعر. ففي إحدى

---

(1) تشارلز مونتغيو داوتي Charles Montagu Doughty شيخ رحّالي الإنكليز وأعمقهم معرفة بحياة البدو وطبائعهم، قام برحلة مطولة دامت سنتين (1875 - 1877 م) إلى مدائن صالح

رحلاتـه التـي وصفها في كتابه الصّحراء العربية قام بزيـارة خاطفة للبتراء التي نفر منها أشـد النفور، حيث قـال إنها «عجيبة ومخيفة أشـبه بالقبر الكبير، وسـط موت للطبيعة شنيع، هذا الموقع، حاضرة الأنباط هذه؛ والعين ترتدّ عن السّد الضخم من الانحدارات القوية، حيث الصّروح المقفرة المقيتة من فنّ فظّ طابعه الإسراف وهو من البداية قذىً للعين». صدر هذا طبعاً بقلم عاشـق للصحراء، والجمال عنده ينحصر في مدى اتساع الأرض أو عرض السّماء. فتأثير انغلاق الصّخور المحيطة يثير لديه رعباً لا يمكن للّون أن يعوّضه.

والنقيـض لهـذا ذلك الوصـف الذي أورده البروفسـور جي. إل. روبنسـون G. L. Robinson عند مشاهدته الخزنة لأول مرة: «إنك تدرك فيما شيء يعتصر قلبك أن هذه إحدى اللحظات العظيمة في حياتك. فهنا يبرز من جدار الممرّ الضيق الأبعد وقد غمره ضـوءٌ رقيق، معبد رائـع الصّنعة، وواجهته المحفورة من الحجارة الرّملية الصّلبة؛ وفي لمسته الأخيرة مثل نقش بارز على حجر كريم؛ وفي لونه مثل فجر وردي. والنسب هنا نبيلة، لو لا أنك في تلك اللحظة الفريدة الأولى لا تتكلّف حساب المسافات أو تحليل قيم اللون أو توازن النقاط الهندسية والعمارة. وتفتح عينيك وأنت واقفٌ هناك في ذاك المكان البعيد النائي عن كل ما يتصل بانجازات الحضارة، وتفتح قلبك المندهش إنما الممتن لتنهل من مجد هذا التراث الذي أنعم الله به وأنجزه الإنسان».

وبين السّـياح الذين دوّنوا آراءهم حول مشـاهد البتراء في سـجل الـزّوار في مخيم النـزل مـا كتبـه إدوارد ليـر Edward Lear: «إنه أسـلوبٌ ضخـم طنان مجلّـل بدمائة ورصانة عليلة لا يعرفها إلا من كان حقاً فاضلاً». وكتب رجل ذو حماسـة ورُقي: «لقد أهال الـرّب جُعبة ألوانه على الصّخور. فانظروا إلى هذه الألوان المجيدة». ولما كنت

(الحِجر) وتيماء وخيبر، وتجوّل ملياً في الحرّة الواقعة إلى جنوب صحراء النفود، ثم زار حائل في أيام أميرها محمّد بن رَشيد. كان من أوائل من أشاروا إلى حجر تيماء الأثري، ورغم أنه لم ينسخ نصّه فقد كان تقريره عنه هو من جلب الرحالة الفرنسي شارل أوبير Charles Huber (هوبَر بالألمانية) إلى تيماء وحصل على الحجر وشحنه إلى متحف اللوفر في باريس. دوّن أخبار رحلاته وخبراته بحياة البداوة كتابه الكبير *Arabia Deserta* في قرابة 1400 صفحة.

أنا نفسـي يطيب لي التلطيخ بالألوان فقد وجدتني مسرورة بأن اعتبر نفسي أتّبع المثال الـذي ارتضاه ذو الجلال ولو على نحو متواضع ومن بعيد. أما الرّأي الآخر بما يخص مشـاهد البتراء فقد عبّر عنه جماعة من هواة المشـي من الشـباب الواعدين في جامعة بيـروت الذيـن قالوا صراحة وبصوت عال: «إننا لا نسـتطيع أن نتخيّل لماذا يثير الناس مثل هذه الضجّة بشأن البتراء حيث لا يوجد إلا رُكامٌ من الحجارة القديمة».

بيد أن دين ستانلي Dean Stanley ربما كان أوثق دليل في هذا الموضوع في وصفه الرّصيـن لألوان البتراء، إذ قال: «يبدو لـي أنّ ثمّة خطأين في الوصوفات المعروضة – فجميـع من تقدّموا بالوصف تحدثوا عن ألوان مشـرقة: الأحمر، والأزرق السّـماوي، والبرتقالـي إلخ. ولكنهم لو تحلّوا بالشـجاعة وقالوا عوضاً عـن ذلك «قرمزي باهت، ونيلي، وأصفر، وأرجواني»، لفقدت روايتهم بالنتيجة شـيئاً ما، لكنها تكون قد كسبت الكثير في الحقيقة. والواقع أنها، من جهة ثانية، ما كانت لتفتقد الكثير في النهاية. ذلك أن الألـوان رائعـة، وإن لم تكن مبهرجـة أو بالأحرى لأنها بدون تزويـق وبهرجة. إنها لـن تذهلـك، أو تكاد لا تبلغ هـذا الحدّ أبداً كما أنك لن تخطئ في نسـبها إلا للطبيعة. ويـكاد المـرء ألا يـرى من بعيد الألـوان على الإطـلاق. وإنما يرى عندئـذ التضادّ بين الجُـرف الصّخري من الحجـر الرّملي الأحمر الذي ينتصب مقابـل التلال من الحجر الكلسـي الأبيـض والأصفـر التي تشـكل الخلفيـة الأكثـر ارتفاعاً. ولكن حيـن يواجه المـرء الجُـروف الصّخريـة المرتفعة ذاتها يجد أنهـا ذات لون قرمزي أخـاذ، وإن كان كامداً، يخالطه الأرجواني. وهناك في الكهوف والسّقوف والخلوات تبدو التجزيعات وتداخـل الألـوان ذات روعه اسـتثنائية، حيث يضـاف الأصفـر والأزرق أحياناً – مثل الشرائط – إلى الأحمر والبنفسجي».

ولكـن استحسـان البتراء، كما في كل مشـهد آخر من مشـاهد الطبيعـة، يكمن كما نعلم جميعنا في عين المُحبّ. فأولئك الذين يعجبون بالانحدارات والصّخور الجبلية والتلوين الأخاذ والطبيعة في أحد أشـد تلوناتها وحشـية، يرون في البتراء بهجة دائمة. وعنـد كل انعطافـة تتخذ الصّخـور والتلال مظهراً جديـداً، وتتحوّل الألـوان من حال

إلى حال من ساعة إلى ساعة. ولكن لأولئك الذين يؤثرون البرّية المفتوحة المنبسطة ومشاهد السّماء العريضة الواسعة، ربما تبدو البتراء أشبه بالسّجن، حيث التلال الصّخرية منتصبة من حولها كالأسوار تمنع كل اتصال بالعالم الرَّحب؛ وبذلك تكون مكاناً يطيب للمرء أن يهرب منه. وهذا الوصف يصدق خصوصاً على الحال ليلاً، حيث يتسربل جبل الحبس الصّغير بالسّواد ويبدو منذراً على خلفية السّماء المضاءة بالنجوم، بينما تخيّم الكآبة والعتمة الشديدة التي تكاد أن تكون خانقة.

بيد أن الاهتمام الذي تثيره البتراء لا يعتمد على مجرّد موقعها الشاعري وألوانها القوية فحسب، فالصّخور في كل بقعة من الوادي والوديان المحيطة، منحوتة ومحفورة لتغدو واجهات ومداخل بيوت ومعابد وقبور. ولعل الرّحالة الشغوفين الذين لم يقضوا إلا وقتاً قصيراً جداً في هذه المواقع فضلاً عن شدّة حماسهم لما شاهدوه بحيث لم يتفحصوا المكان بدقة، قد بالغوا في عدد تلك المواقع. ولعل المكان لم يكن يضمّ ما يزيد على الألف منها، وربما يزيد العدد عن ذلك إذا أضفنا إليها الكهوف الطبيعية. ولكن الانطباع الأول عند المرء أن الوادي كله محفور ومنحوت. وهذا صحيح إلى حدّ ما، لأن وجه كل صخرة قد جرت تسويته وتم تحضيره للحفر، فيما جرى نحت درجات السّلالم الطويلة (اللوحتان 4 و5) في الصّخور ليفسح الطريق لمدخل ما إلى الأعلى على جانب الجبل. والدّرجات مهدّمة على العموم وقد تحطمت من تدحرج الأحجار فوقها أثناء هطول الأمطار في الشتاء، والمداخل مخرّبة بلا نفع تقريباً اليوم كما كانت يوم وجّه أصحابها الأنباط عمّالهم إلى العمل فيها.



أم البيارة: المخيم، الحبس، قصر بنت فرعون

تدين البتراء بأهمّيتها إلى وادي موسى الذي وفّر المجال لشقّ طريق داخل الوادي المنعزل. وقد شكل وما يزال يشكل الطريق العام الرّئيسي من الجي إلى طريق بئر سبع على الطرف الغربي من الوادي. ويرتفع الوادي بعدئذ عند عين موسى الواقعة على بعد أربعة أميال شرق الجي التي تقول الرّواية إنها المكان الذي ضرب فيه موسى الصّخرة. والمكان يحفل بالأساطير التي تدور حول موسى؛ ومعظمها إسلامية المصدر إنما بعضها يهودي. وغنيّ عن القول أن لعين موسى مكاناً واسعاً في هذه القصص. ويقول اللياثنة (وإلى هذه العشيرة ينتسب سكان الجي) إن موسى ذبح جمله ليطعم رفاقه بعد أن تمكن منهم الجوع، وحين لم يكتفوا بلحم الجمل وطلبوا ماء التقط عصاه وضرب الصّخرة؛ وعند الضربة الأولى خرج الدّم؛ فضرب ثانية وإذ بالماء يتدفق منها.

وقد ورد في القرآن الكريم (ذكر لهذه القصة في السّورتين الثانية والسّابعة): ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: 60).

كما ورد في القرآن الكريم أيضاً: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (سورة الأعراف: 160).

ويذكر في تفسير هاتين الآيتين في القرآن الكريم أن الحجر الذي جرت فيه المعجزة رماه آدم من الجنة، وصار إلى شعيب (النبي الذي أرسله الله إلى المدينيين الكفرة) ووصل مع العصا إلى موسى، وفي تفسير آخر أنه تفجّرت ثلاث عيون على كل من الجهات الأربع من الصّخرة ليصل عددها إلى اثنتي عشرة عيناً بعدد الأسباط. والحجر المكعب يوحي للناظر برمز ذي الشَّرى (انظر الفصل السّادس).

ويذكر المؤلفان ياقوت[1] والقزويني[2] أن موسى ضرب عند البتراء حجراً له شكل رأس عنزة ومنها تفجرت العيون الاثنتي عشـرة، واختصّ كل سبط من الأسباط الاثني عشر بنبع. وتصل الرّواية مريم بالينابيع المعجزة هذه، حيث كان أحد الينابيع يلحق بها وهي تضرب عصا ترحالها في الصّحراء. وتذكر الرّواية أن القوم كادوا أن يموتوا حين جف النبع يوم ماتت، ولكن موسى ضرب الصّخرة فتفجر النبع وجرى الماء سخياً.

كذلك يذكر المسـلمون لموسـى معجزة أخرى، فيروي محدّث دين ستانلي: «كما أن جبـل هـارون يسـمّى كذلك لأن قبـر هارون يوجـد فيه كذلك يعرف وادي موسـى بهذا الاسـم نسبة إلى الشـق الذي حصل بضربة من عصا موسـى حين أخرج الجدول فـي الوادي على مسـافة من هـذا الموقـع». وهناك رواية أخـرى تعرض سـبباً مختلفاً لقيام الشـق؛ فقد كان مقدّراً أن يشـكل الشـق ممـراً لنقل جثمان هـارون عند موته إلى جبل هارون. وهذا الشـق الذي تتحدّث عنه الرّوايات هو السِّـيق الذي يبلغ طوله ميلاً وربـع الميـل. ولكن الرّواية لا تذكر طول عصا موسـى، التي لا بـدّ أنها كانت أكثر من مجرّد عصا طويلة ضخمة ولسوف يكون أمراً مثيراً للفضول أن نعرف تصورات أهالي المنطقة حول طول الرّجل الذي يستطيع حمل مثل هذه العصا.

ويذكر مؤلف سفر التثنية أنّ أرض بني عمّون «وهي أيضاً تحسب من أرض الجبابرة لأن الجبابـرة أقامـوا بها قبلاً والعمونيون يسـمّونهم زمزميين، وهم شـعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقيين» وكان هذا يحدث شمالاً؛ ثم أبعد من ذلك جنوباً بين أرض العمّونيـين وأرض الأدوميين كانت أرض موآب، وفي موآب تجدون الجبابرة: «وكان

(1) ياقـوت الحمـوي الرّومي، أحد أعظم الجغرافيين المسلمين في القرنين السادس والسّابع (575 – 626 هـ)، ولد في بلاد الرّوم (بيزنطة)، وقام بأسفار كثيرة. ألّف معجمه الذائع الصيت «معجم البلدان» في مرو بين 615 – 621 هـ في 5 أجزاء ضخمة.

(2) زكريّا بن محمّد القزويني (605 – 682 هـ)، قاضٍ ومؤرخ وجغرافي وفلكي من مشاهير أعلام العلوم الطبيعيّة، رحل إلى الشام والعراق فولي قضاء واسط الحلّة أيام المستعصم العبّاسي. أخصّ مؤلفاته: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» و«آثار البلاد وأخبار العباد». وقد نشرت مقاطع مهمّة منهما في كتابي «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى» بهذه السلسلة.

الإيميّون قد أقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقيين. وهم يحسبون جبابرة كالعناقيين والمؤابيون يسمونهم إيميين». [سفر التثنية 2: 10، 11]

وكان الجبابرة يسكنون الخليل أيضاً حتى جاء كالِب فأخرجهم منها. ومن المحتمل أن تكون أسطورة شق السِّيق بضربة عصا من أحد الجبابرة قد انتقلت من أحد أبطال القينيين أو الحوريين فنُسبت إلى موسى. فلا ريب بأن الإسرائيليين كانوا متصلين بشكل وثيق بسكان المنطقة، والشاهد على ذلك أن موسى تزوج بامرأة من القينيين، احتفظت باسم والدها رعيول. فإذا كان زعيم القوم قد صاهر أسرة من تلك البلاد فإن للمرء أن يثق بأن العديد من أتباعه قد اقتدوا به أيضاً. أما الرّواية الإسلامية الأخرى التي تقول إن موسى دُفن في وادي البتراء فربما تشير أيضاً إلى أحد أبطال الجبابرة المجهولين.

وقلّما يحظى هارون بالاحتفاء في الأسطورة، وإن كانت عين موسى تسمّى أحياناً عين هارون، سوى أن موزيل[1] وقع على رواية دفنه وربما ترجع إلى تاريخ أقدم وتشير إلى أحد أبطال المنطقة. وتروي الأسطورة أن هارون مات على قمة جبل يبعد ثلاثة أيام من السّفر شمال غرب جبل هارون، وأن طائراً هائلاً حط على القمة وحمل الجثة على ظهره وطار بها نحو الشرق. وبعد فترة من الزّمن أصاب الطائر التعب وحاول النزول على صخرة صادفها، ولكنها تداعت تحته فاضطر لمتابعة رحلته. ولم يُتح للطائر الاستراحة بعض الوقت، إلا عند نبع يسمى «عين الويبة» فروى ظمأه ثم تابع طيرانه إلى أن بلغ قمة جبل هارون الذي ثبت في مكانه ولم يتداعَ تحته، وهنا تمكن

(1) ألويز موزيل Alois Musil 1868 - 1946م رحّالة ومستشرق كبير، تشيكي المولد من أصل نمساوي، قام برحلات استكشافية عديدة في فلسطين والأردن وسوريا وبادية الشام وصحراء النّفود والحماد، ووضع عدّة مصورات جغرافية لها، وزار مدناً عربية عديدة، واجتمعت لديه نتيجة استقصاءاته مواد علميّة ضخمة، نشرها في سبعة كتب بالغة الأهميّة. كان عالماً كبيراً محبّاً للعرب وشغوفاً بتراثهم، وتفاعل معه كواحد منهم، وكان يجيد لهجة شمال الجزيرة أيّما إجادة حتى حقّ له اسم «الشيخ موسى الرّويلي»، أو «موسى بن نمسا». نشرنا له في هذه السلسلة كتاب «في الصّحراء العربية»، كبداية لنشر كتبه بأسرها.

عندئـذ من أن ينزل الحمـل عنه. وما كاد هذا أن يلمس الأرض حتى انشـقت الصّخرة وأحاطـت بجثمـان النبـي وأغلقـت من جديد. ومـن تلك البقعـة انبثق نـور يُعلم أهل المنطقة أن رجلاً صالحاً قد دُفن هناك؛ فأتى القوم وأقاموا في تلك البقعة مزاراً. ولكي يجعلوا الجثمان المقدّس أقرب إليهم، حفروا ممراً رأسـياً إلى القبر ثم رفعوا الجثمان ووضعوه في ناووس من الرّخام.

ولئن كان سـحر البتراء ومبعث الاهتمام بها يكمن في مشـاهدها ومعالم الآثار فيها فـإن هناك نقاطاً أخرى تبعث على الاهتمـام وينبغي عدم إهمالها. ومنها الأزهار البرّية التـي تحفل بها الطبيعة في الرّبيـع. ففي كل بقعة من الوادي، وفي كل الوديان صغيرها وكبيرها، وحيثما كانت هناك مسـاحة ما من الأرض تجد النباتات تغطيها، والبارز بين النباتـات المزهرة الـزّال البري الذي يغطـي كل منحدر من كل هضبـة وتحجب كثافة أزهاره الأوراق والسّاق. وأريج هذه الزّهرة ناعم وعطر، خاصة في الليل؛ وإن خروج المـرء مـن خيمته بعد أن يحلّ الظلام ليتلقى نسـائم هذا العطـر المذهل ما هو إلا أحد مباهج الحياة في البتراء.

ومـن النباتـات الشـائعة المـرار التي تصادف عنـد السّـفوح، ولكن هـذه النبتة تثير الرّعـب، وليس المتعة، في الحياة. فهذه نبتة جميلـة ذات ألوان صفراء جميلة، ولكنها مـن نـوع خطر ويُحذّر المرء من لمسـها إذ يمكن أن تدفع بأشـواكها في الجلد العلوي للحذاء، وقد تدخل النعل إذا كان رقيقاً. كما توجد شقائق النعمان القرمزية إنما ليست منتشـرة على نطاق واسـع؛ ولكني لم أصادف النوع الأرجواني هناك، وإن كان ينتشـر في الممرّات الضيقة عند عمّان. وفي مارس تغطي تلال البتراء السّوسن القرمزية ذات اللون البنفسجي الشاحب، وهناك زهرة بنفسجية أخرى هي زنبقة الجبل.



درجات تقود إلى البيت الملون

وفي أواخر شـهر أبريل، تحفل الحقول الصّغيرة بأزهار الخشـخاش القرمزي ذات الجمال الملحوظ حين تكون الحقول على مستوى النظر والشمس ترسل أشعتها عبر التـلال القرمزية. وثمّـة أنواع مختلفة من عشـبة الصّقر وكزبرة الثعلـب الممتعة للنظر بلونها الأزرق البهيج. وهناك نبات لا يعتدّ به وينتشـر في كل مكان، وهو نوع من زنبق الفصل. وهذا النبات ذو بصلة كبيرة جداً وله كتلة من الأوراق كبيرة وذات شكل أشبه بالسّيف، وتسلك سلوكاً وكأنها على وشك أن تزهر. ولكن هذا السّلوك مع ذلك ليس إلا تظاهراً، لأني لم أصادف هذا النبات مزهراً في أي وقت، ولا التقيت شخصاً يمكنه القـول إنهـا نبتة جميلـة أو ذات أهمية أو نفـع. ومع ذلك فإنها ذات حيويـة هائلة، وإذا زُرعت على رأسها ونهاية جذرها بارز في الهواء فإنها تطيل جذورها وترميها فتنغرس في الأرض، وتبرز الأوراق بعدئذ من الجوانب وتتدبّر النبتة أمرها لتكبر.

وبعـد أن يتوقـف نبات الـزّال الأبيض عن التفتّـح تبدأ الدّفلى. وعلمت أن أشـجار الدّفلى تبلغ أوجها في شـهر مايو؛ وقد شـاهدتُها في أبريل ولـم تكن في كمال تفتحها، ولكـن لا بدّ أنها ذات جمال أخاذ حين تكتسـي بأزهارها الجميلة ذات اللون الوردي، حيـث أنّ كل مجـرى ماء في البتراء وحولها يحفل بأجمات منها، وأشـجار الدّفلى في البتـراء مجموعة متنوعة من ضـروب اللون الوردي ولونها الناعم على تضادّ مناسـب واللون الأخضر الدّاكن الذي تتسـم به أوراقها؛ والأشجار ذات الزّهرة البيضاء على ما أعلم لا تُصادف في البتراء.

وأشـجار الدّفلـى سـامّة لمعظـم الحيوانات؛ فهـذه النبتة إنمـا تكمـن فضيلتها في جمالهـا. وهـذه خلاصة قول هارت Hart في النباتات التي صادفها في البلدان التي مرّ بها: «كما أن جبل سيناء تغطيه النباتات من الفصيلة الشفوية، كذلك جبل هارون تغطيه النباتات البصلية»؛ وربما يجدر بنا أن نضمّ البتراء إلى جبل هارون. ولعل عالم النبات يجد في البتراء العديد من النباتات النادرة، سـوى أنه لا بدّ من البحث عنها في الوديان وفي كل فصول السّنة.

أمـا حياة الحيوان في البتـراء فهناك منها قدر معين، ولكن ليس ثمّة من أوروبي أقام

فـي تلك النواحي طوال السّـنة، ولذلـك كانت معرفتنا بالموضـوع حتى الآن محدودة جداً. فلقد قيل لنا عن تيس الجبل والغزال والأرنب البري وابن آوى، لكننا لم نرَ شـيئاً من هذا. إلا أن السّـيد إيليس أصاب حظاً فشـاهد أرنباً من النوع *Hyrax syriacus* في أم البيارة؛ ويطلق العرب على هذا الأرنب اسم الوَبر *weber*، وهم يذبحونه ويجعلون منه طعاماً، إن تمكنوا منه، وهذا أمر نادر. ويقولون فيه إن له «وجه خنزير وأيدي طفل». ويختلف العرب عن اليهود الذين يحرّمون أكل الأرنب.

وأمـا الطيـور فإن الوادي يحفل بها. وقد وجدنا زوجاً من النسـور المصرية البيضاء التي يبدو أنها تقيم عشها على تل الدّير؛ وكثيراً ما تُشاهد هذه النسور تحوم فوق المخيم ومواقع الحفريات. وقُيِّض لنا أن نشاهد ستة من هذه الطيور تحلّق في سرب معاً، إنما يتكون السّـرب في الغالب من نسـرين وحسب. ومن أكثر الطيور شيوعاً نوع يحلق في أسـراب؛ وهذه تطلق صوتاً مثل صفير البشـر، لذلك كنا ندعوها «التلاميذ الصّافرون» أي: ".Whistling Schoolboys"

ويصف هارت لقاءاته بها، فيقول: «اسـترعى انتباهي صفير واضح عالي النبرة أشبه بالنغـم الذي يصدر عن الناي. وقد أصبحـت مقتنعاً في المرات القليلة التي تناهى إلى سـمعي هذا الصّوت بأنه إشـارة تحذير من تسـلل بدو البتراء الذين لا يحبّون الأجانب إلـى منطقتنـا. ولكني رأيـت فوراً أن ذلـك الصّفير يصـدر عن طائر، وتبيّـن أنه صوت زرزور أسـود. وظل عدد من هذه الطيور يحوم حولنا، مسـتعرضة في كثير من الأحيان البقعة البرتقالية التي تزين الجناح. ويتسـم طيرانها بالرشـاقة البالغة، التي تجعلها أشبه بالفراشة، وخفة الحركة، والتموّج في أقواس واسعة كما الغراب الأسود».

وهذا الطائر لا يهاب شـيئاً، فتجده يقترب من الإنسـان مسـافة شـديدة. والواقع أن طيـور البتـراء جميعها تتسـم بالاندفاع وعـدم الخـوف؛ فالبدول لا يأكلـون لحم هذه الطيـور، وهـي لا تمثـل نذيراً يخشـونه لعدم وجـود غلال تفـرض عليهـم مطاردتها. ويتحـدث هـارت عن «صيحة موسـيقية يصدرها الغـراب ذو الذيـل المروحي»؛ وقد شـاهدنا كذلك بعض هذه الطيور. كذلك يذكر هارت «البلبل الفلسـطيني». وأنا لست

واثقة من أن هذا هو نفس البلبل الذي رأيته، وكان شبيها بالطائر الهندي من حيث لونه الشبيه بالشوكولاته السّوداء، وصدره أبيض وله لطخة حمراء بجوار الذيل، وعُرف داكن اللون منتصب؛ ويصدر صرخة حادة لا تخطئها الأذن[1]: «بي كويك، بي كويك»، وهي خاصة بالبلبل الهندي الصّغير.

كما كان طائر الخطاف الذي يشبه السّنونو من الطيور الصّغيرة الرّشيقة ذات اللون الأشهب والملحوظة جداً. وقيل لنا إن في البتراء طيوراً نادرة، إلا أن مصادفتها ليست فألاً حسناً. وتبعاً لذلك هناك نباتات نادرة، وحشرات نادرة، وطيور نادرة، وزواحف نادرة؛ ومن المحتمل أن يكون مرد ندرة هذه النباتات والحشرات والطيور إلخ... أن قلائل من المراقبين المدربين قد ثابروا على العيش طوال العام في شرق الأردن. إذ قلّما يأتي الزّوار إلى هذه المنطقة في حرّ الصّيف حيث تظهر العظاءات والأفاعي، بينما يلجأ العديد من الطيور للبحث عن طعامه في أماكن أخرى في فصل البرودة. وكانت حياة الحيوان قد بدأت تستيقظ حينما غادرنا في منتصف أبريل؛ ولو أننا مكثنا طوال شهري مايو ويونيو لتضخمت القائمة التي أدرجت فيها أسماء الزّهور والطيور وصارت أكبر مما انتهيت إليه.

يقدّم هارت Hart الذي مكث في البتراء أثناء ديسمبر، نوعين من الأفاعي. وكان يومئذ يبحث عن هذين الصّنفين، لكننا لم نصادف أياً منهما، مع أن الطقس كان يزداد دفئاً مما يتيح لأنواع الأفاعي والحيّات أن تظهر. ولا يذكر هارت إن كان هذان النوعان من الأفاعي ساماً. وقد قيل لنا إن الأفاعي وإن كانت تظهر في الصّيف في الوادي، فإنّ موطنها في أم البيارة. ويذكر هارت أم الأربعة والأربعين، والدّودة الألفية، والعلق، والحلزون (وهو يورد تعليقات حول ندرتها)، ويرقات بعوض الجرجسة. ولما كان الوقت الذي قضاه هارت هناك قصيراً جداً فلم يكن بوسعه أن يشاهد الكائنات التي تظهر في الأجواء الأكثر دفئاً.

ومع أننا مكثنا في تلك الناحية حتى منتصف أبريل فإننا بالكاد رأينا فراشة طوال تلك الفترة، وأحسب أن اليرقة الوحيدة التي شاهدتها كانت اليرقة ذات الوبر الكثيف

---

(1) يشبّه الإنكليز صوت هذا الطائر بعبارة: "Be quick, be quick" أي: استعجِل!

التـي تدعـى الدّب الصّوفي التي أكلهـا مطرود. أما العقارب فإنها شـائعة، ويقال إن أم البيـارة مأواهـا الأول. ولقد حدّثوني عن وجود عناكـب زرقاء ضخمة في تلك البقاع، ولكنـي لـم أصادف أحداً لديـه أيّة معرفة بها، ولم أكن متلهّفة لاكتشـافها، فأنا أخشـى العناكب الكبيرة، وما حملني على استطلاع أخبارها أن حديقة الحيوان في لندن كانت تسرّ إن وجدت أنموذجاً من هذه المخلوقات.

وأمـا السّـحالي فكثيـرة في تلـك الأصقاع، ومعظمهـا ذات لون رمادي مشـوب باللون البنـي، وتلتصق بأصابع أطرافها وسـادة رقيقـة. وبعض هذه المخلوقات من النوع الشـائع جداً في جنوب فلسطين، وهي وردية اللون تتخلّلها نقاط خضراء، ولكنني لم أشاهد أياً من العظـاءات الضخمة «مصّاصة الدّماء» التي تبدو وكأنها نسـخة مصغّـرة من وحوش ما قبل التاريـخ. ولكن مجد البتراء هي العظاءة الزّرقاء. وكانت هذه السّـحالي قد أخذت بالظهور في الأيام التي تسطع فيها الشمس، قبل أن نغادر، ولكن لم تُتح لي الفرصة لاصطياد واحدة منهـا. وكان أهالي المنطقة قد دأبوا على إنكار كل معرفة لهم بوجود هذا المخلوق، وحتى حينما أخبرتهم بمشاهدتي واحدة من هذه الخلوقات لم يبدوا أي اهتمام، لأن السّحالي لا تعتبـر طعاماً طيباً. ولون السّـحلية أزرق ويكاد أن يكون لامعـاً مثل صدر الطاووس؛ ولهذا المخلوق عينان مثل حجر التوپاز. وحين تستلقي العظاءة على صخرة حمراء تغطيها أشعة الشمس فإنها تنثر لطخة هائلة من اللون.

وطبعـاً يظهـر مع حلول الطقس الدّافئ كل نوع من الحشـرات اللاسـعة وتأخذ في الطـواف: من ذبـاب وذباب الـدّواب، وبعوض وسـواها كثير. وقد وجدنـا عند ينابيع الميـاه العلـق وفي الرّمل الجاف النمل. وأحسـب أن عالم الحشـرات قـد يمضي وقتاً ممتعاً في البتراء في شهور الصّيف، إن لم يجد في اللّسعات التي تصيبه ضيراً.

* * *

ينتمي سـكان البتـراء الحاليون إلى عشـيرة صغيرة تعرف بالبدول[1]، أي المسـتبدلون.

---

(1) البدول إحدى قبائل الحويطات، أقامت تاريخياً في البتراء، ومنذ بدايات القرن العشرين بدأ السيّاح بالتوافد على البتراء، وبدأت البعثات الأثرية بالعمل الجاد في المدينة، فحصل البدول

ويقال إنهم منحوا هذا الاسم، لأنهم كانوا يهوداً في الأصل، ثم «بدّلوا» دينهم فأصبحوا مسلمين. وهذا القول قطعاً غير صحيح، لأن الرّشيد هي العبارة الصّحيحة التي تقال عن المتحوّل إلى الإسلام[1] وهي وصفه؛ ثم إن هؤلاء البدول بدو أقحاح في كل ركن من أركان حياتهم، والواقع أنهم فخذ من العشيرة المعروفة بابن غازي من قبيلة الحويطات الشهيرة. ولعلهم كانوا لاجئين نفروا إلى البتراء طلباً للسلامة من أعدائهم بعد هزيمة كبرى لحقت بهم. وكانت البتراء منذ أقدم العصور ملجأ يأوي العديد من هؤلاء اللاجئين.

ولذلك فقد يكون اسم البدول إما تحريفاً لكلمة أخرى، وإما أن الكلمة إشارة إلى تحوّل ما اتخذه هؤلاء من طرائقهم في الحياة أو نسبة إلى المكان الذي كان مسكناً لهم. وهناك رواية طريفة تروي وتفسّر اختفاء قدماء السّكان، فيذكرون أن أولئك السّكان «وجدوا ذات يوم باباً في الصّخرة يؤدي إلى أرض غنية خصبة واطئة، فسرّوا لاكتشافها أيما سرور، مما حملهم على النزول فيها فأقاموا مضاربهم هناك ثم أغلقوا وراءهم إلى الأبد». وقد وقعت هذه الحادثة ناحية البارد.

والبدول عشيرة صغيرة تتألف من خمس وثلاثين عائلة، ويبلغ تعداد أفرادها قرابة المئة والخمسين. ويسكنون الكهوف في جوانب التلال ويعيشون ممّا يحصلون عليه من العمل لدى الحكومة أو بيع «التحف» للسّيّاح. وهؤلاء القوم يصدق عليهم القول في الكتاب المقدّس فهم لا يكدحون ولا يحرجهم السّؤال. وقلة قليلة منهم يقومون بفلاحة الأرض ويزرعون القليل من الشعير أو القمح، وقلة منهم يعملون في رعي الماعز. والبدول لا يأكلون الخضار ويكتفون بالخبز، والبصل أحياناً. فغذاؤهم الأساسي يتكون منهما ويضاف إليهما الماء القَراح. وهؤلاء القوم يشربون الحليب،

على مصادر دخل جديدة بتعاملهم مع الأجانب، مما عوّضهم عن توقف الرحلات التجارية التى كانت تصل معان بغزّة قبل ظهور الحدود. وفي ربيع العام 1985 تم ترحيلهم إلى إسكان بُني خصيصاً لهم على تلّة أم صيحون المطلّة على البتراء.

(1) ومن الكنى التي تطلق علي من دخل الإسلام من المسيحيين واليهود: المسلماني، والمهتدي، وعبد الهادي. ولا أنسى نجاراً عرفته في قرية جوبر شرقي دمشق التي كان سكانها من اليهود، وكانت ملامح وجهه يهوديّة قحّة، واسمه ع. عبد الهادي.

إن توفّر لهم، وهم يأكلون الفاكهة أحياناً، وأما اللحم فلا يتوفر عادة إلا في إحدى المناسبات، وعندئذ يقبلون عليه حتى لا يعودوا يقوون على أكل المزيد. وهؤلاء البدول مدخّنون شرهون فينفقون في شرائه ما ينبغي أن يُنفق على الغذاء.

وأرض البتراء خصبة ذات عُمق كافٍ للفلاحة والزّراعة. وإذا ما أمكن حمل هؤلاء القوم هناك على تناول البطاطا أو البازلاء وما شابه من الخضار، ثم إذا أمكن إقناعهم بتربية الدّجاج والطيور لصار غذاؤهم الفقير متنوعاً ولتحسنت صحّة الأطفال، على الأقل. ولكن هذه مشورة تبغي الكمال، كما يعلم كل من حاول إقناع سكان المنطقة الحاليين بتناول غذاء لم يعتدوه. فالبدول قوم يسيرون على درب البوار بسبب سوء التغذية المزمن. فإن أصابهم الزّوال فذلك بسبب عنادهم ومكابرتهم، والوادي على درجة كافية من الخصب تسمح بإعالة عدد من السّكان أكبر من هذا العدد الحالي. وجدير بالذكر أن الحكومة تقدم قدراً معيناً من الخبز على امتداد الفترة القاسية من الشتاء، وفي الرّبيع هناك السّيّاح وهم بالنسبة للبدول فرصة لبعض المكاسب؛ إلا أن هذا كله لا يجدي نفعاً. أما العلاج الحقيقي للفقر الذي يعانون منه فإنهم يملكونه بأيديهم.

أما مسألة ما إذا كانت القبيلة جديرة بالبقاء فأمر آخر، ولعل هذا نهج الطبيعة في تدبير خلاص الأرض ممّن لا ترضى بهم على ظهرها. ويزدري البدول الفلاحين الذين يعملون في الأرض ويعتبرون أنفسهم أفضل من هؤلاء الفلاحين؛ ويقابل الفلاحون مشاعر البدول بمثلها من الكراهية[1]. وهذه قصة قايين وهابيل القديمة تتكرّر من جديد: كِبر الرّاعي الذي يرى أنه مختار من الله ويُظهر احتقاره لمن يزرع الأرض. وكما قال لي طفل صغير: «الفلاحين مش كويسين لكن البدول كويسين خالص».

“fellahin mush kwyis, lakin Bdul kwyis khalas”.

(1) لا يقتصر ذلك على البدول وفلاّحي وادي موسى فحسب، فالعلاقة بين البدو والحضر ما برحت غير ودّيّة على امتداد تاريخ مجتمعاتنا في الشام وجزيرة العرب.



أدراج جنوب البارد

يعيش البدول، في تجويفات في الصّخر؛ وبعبارة أخرى في كهوف. فهنا في البتراء مـا لا حصر له من الكهوف يختـارون منها ما شـاؤوا، ومنها ما هو من أمـر الطبيعة أو حفـره سـكانها القدماء، ومرابع الأنبـاط وقبورهم الصّخرية أوسـع واكبر من أن تؤمن راحة الإنسان. وعواصف الهواء البارد التي تجتاح أماكن الإقامة هذه تشتد وتقسو في الشـتاء وتشتدّ حرارة الشمس في الصّيف؛ ولذلك من الأفضل أن يتخذ الإنسان مكانه فـي كهف صغير ملائـم، وهنا يُقام جـدار منخفض من ركام الحجـارة بحيث يعترض فوهة الكهف فيحول دون سقوط الطفل الزّاحف على حافة المنحدر الذي تنفتح عليه الفوهـة. وداخل هذا المسـكن بدائي وبسـيط كالمسـكن ذاته. أما الموقـد فموقعه في وسـط المكان تقريبـاً، والنار يغذيها حطب الأجمات الذي تتولى سـيدة البيت جمعه، ويخرج الدّخان من فوهة الكهف.

وأمـا أدوات البيـت فتتألف من قـدر حديدي لطبـخ الطعام، وصـاج معدني لصنع الخبـز، وصفيحـة من تنـك البارافين لنقـل الماء، وكيس مـن الدّقيق، وحوض مسـتوٍ يستخدم لعجن العجين (إن كان بمقادير كبيرة) وطبخ الطعام حين تكون مقادير اللحم كبيـرة؛ وهناك في بعـض الأحيان صندوق ليحفظ الملابـس، إن كانت كثيرة، ويتجلى ثراء العائلة في شخص سيدة البيت، وما لديها من قلادات وأساور وزينة للرأس، وهي في كثير من الأحيان رخيصة الثمن ومتقشـفة. وتمتاز ترتيبات النوم بالبساطة الشديدة، وهنـا توضـع بضعة أحجار من مختلف الأحجام في ما يشـبه الدّائرة حـول النار، فتنام الأسـرة ورؤوس النائمين تسـتند إلـى الأحجـار وأقدامهم باتجاه جـذوات النار وهي تخمـد. ولا أملـك إلا أن أضحك حين أسـمع النـاس يتحدثون عن «الحياة البسـيطة» التي يعيشونها في إنكلترا، بعد ما شاهدت حياة البدول البسيطة حقاً.

يعـدّ صنـع الخبز من عمـل المرأة، طبعـاً. ويصنع مـن الدّقيق والمـاء والملح وهو أمـر لا بـدّ فيه من اللمسـة الخفيفة والماهرة حتى يخرج العجين كمـا ينبغي رقيقاً طرياً كالإسفنج. فالعجين حين يكون على الشكل المناسب وخفيفاً كأنما صُنع مع الخميرة، ويوضـع الحـوض الذي يحتوي العجيـن عندئذ على الأرض بجانـب النار؛ ثم يوضع

طبق الصّاج الحديدي الذي يكون إما مطروقاً أو مصبوباً بشكل قبّة، فوق النار ووجهه المفلطح إلى الأعلى، وهو الذي يغدو أحمر من شدة الحرارة. وتقوم المرأة بفتح كيس الدّقيق الذي تحرص على أن يكون نظيفاً نقياً دائماً، فتخرج منه قليلاً من الدّقيق الذي تقوم بنثره إما على قطعة من الكيس ذاته وإما على حجر مسطح منبسط. وبعدئذ تلتقط قطعة من العجين بحجم الكف وتضعها على السّطح حيث نثرت الدّقيق، ثم تقوم بالتربيت عليها حتى تصبح كعكة سماكتها بوصة أو بوصتان. ثم ترفعها وتطوح بها في الهواء بسرعة وهي تتناقلها بين كفيها الاثنين، وكما السّحر تنشر قطعة العجين حتى تصبح مثل صفحة مستديرة رقيقة. ثم بحركات رشيقة اكتسبتها بعد مران طويل تطوّح بهذه القطعة المسطحة كالورقة فتحط على الصّاج حتى تكاد تغطي سطحه كله. وفي غضون دقيقة يصبح الخبز مهيئاً للتقليب على الوجه الآخر؛ وهذه حركات تحتاج للمهارة، حين يجري تقليبها على الصّاج الحديدي الذي أصبح أحمر حاراً.

والخبز سريع النضج حتى أنه من الأمور الشائعة أن تقوم امرأتان بصنع خبزهما مستخدمتين الفرن ذاته في آن واحد معاً، بين مدّ وتطويح، يستغرق ضعفي الوقت الذي تستغرقه عملية الإنضاج. وقد جرت العادة في المناسبات التي تستدعي إقامة وليمة، وحيث تقتضي المناسبة تضمين الأكل لحماً في العشاء، على وضع حوض مسطح كبير من الصّفيح وعليه عدة طبقات من الخبز؛ وفوق هذا يوضع اللحم – لحم الضأن أو الماعز – الذي تم سلقه حتى النضج؛ وعلى هذا يجري صبّ السّمن واللبن الرّائب، وغني عن القول أن اللحم الذي جرى طهيه بالسلق يسهل تقطيعه إلى لقيمات.

وهناك ناحية هامة يجدر الإشارة إليها وهي أن اليد اليمنى وحسب، وليس اليسرى، تستخدم في الأكل. ويعتبر أطيب الطعام الخبز الذي في قاع الصّحن والمشبع بمرق اللحم والسّمن واللبن. ولكن هذا الضرب من الولائم قليل بين البدول فالوليمة تقام في المناسبات، وإذا أقيمت الوليمة كان حضورها مقصوراً على الرّجال، ونصيب النساء والأطفال فتاتها مما يُترك بعد أن يكون الرّجال قد نالوا نصيبهم وشبعوا وامتلأت بطونهم.

ولئن كان من غير المفيد الحكم على قوم بما يأكل أبناؤهم - لأن من شأن الأطفال أن يأكلوا أي طعام، وحسبكم أن يستحضر المرء ما يتناوله إبّان طفولته من مواد وخلطات مرعبة - ويظل من المفيد أحياناً أن يتبيّن المرء الأشياء التي يعتبرها هؤلاء القوم قابلة للأكل وما يعتبرونه ممقوتاً. وهكذا كان هناك طفلان صغيران التحقا بجماعتنا دونما دعوة ودأبا على أكل حزم من الحشائش ينتزعونها من الأرض ويمضون في مضغها بفرح عظيم؛ كما أن هذين الطفلين تناولا نباتاً بدا أشبه بنبتة الحمّاض. وفي احد الأيام أطلعني مطرود على يرقة الدّب الصّوفي وكان يضعها في كفه. وكنت مثل معظم الإنكليز الذين أمضوا حياتهم في الرّيف أعتقد بأنها قادرة على اختراق الجلد وتتسبّب في أذية كل من لا يقّدر الأذى الذي تحدثه هذه الحشرة. ولمّا سألت مطروداً عما يفعله قومه بهذه اليرقة أجاب «إنهم يأكلونها»، وعندئذ رفع يده إلى فمه وإذ باليرقة ذات الوبر تختفي في بلعومه. ولما سألته إن كان البدول يأكلون السّحالي أظهر أشد علامات الهلع والقرف لمجرّد عرض هذه الفكرة.

والبدول شأنهم شأن معظم البدو ليسوا بالضخمين، ولكنهم ليسوا قصار القامة كذلك، وإنما عظامهم دقيقة ويتّسمون بالنحالة، وملامح الغالبية منهم دقيقة ورقيقة. ولكن الحظ لم يسعدني بلقاء العرب الذين وصفهم داوتي بقوله: «كنت أعتقد بأني لم ألتقِ مثل هذه العصبة العجيبة من الإسكافية ذوي الوجه الغريب السّميك الذي ينمّ عن الأَنَفة» أما الهزال فيرجع إلى سوء تغذية دائم؛ والبدول وإن كان لديهم جَلَد على المسير مسافات طويلة وارتقاء الصّخور الصّعبة، يكاد ألا يكون لديهم طاقة على مقاومة المرض. وما يقوله داوتي في العرب عموماً يصدق جداً على البدول فيقول: «يعيش البدول مثل مخلوقات البراري، دون غذاء محدّد وهم يشربون المياه الملتاثة. وقلائل هم الذين لا يعانون من أمراض الجهاز الهضمي؛ ولما كان هؤلاء البدو يتعرّضون دائماً وهم شبه عراة للرياح العاصفة، فإنهم عرضة لكل ضروب الرّوماتيزم، ويسمّونها الرّيح ويطلقون هذا الاسم على كافة الأمراض الغامضة المسبّبة للأوجاع»[1].

---

(1) هنا فقرة آثرت حذفها لعدم ملاءمتها.

وتبذل الحكومة قصارى جهدها لمساعدة هؤلاء القوم، إلا أن من أكثر الأمور مشقة مساعدة قوم على هذا القدر من الجهل وبالتالي العناد كالبدول. وهؤلاء القوم عرضة جداً للإصابة بأمراض العين، وهنا تتدخّل الحكومة بكل إمكاناتها. وكان الطبيب قد وصل من معان وأنا بالبتراء وقام بفحص كل مقيم هناك، بدءاً من الشيخ حتى الرّضيع الذي وُلد لتوه. ولقد مكث مساعده بعد ذلك مدّة عشرة أيام؛ وأفادتني الشرطة أن على جميع العاملين تحت إمرتي، بلا استثناء، الحضور إلى مخفر الشرطة (أي الكهف فوق خيمتي) صباح كل يوم من هذه الأيام العشرة لمعالجة عيونهم بالقطرة، وأنذروهم بأن من يغيب عن المراجعة سوف يُصار إلى تسريحه من العمل، فوراً.

وفي اليوم الذي حضر فيه الطبيب سمعت هرجاً عظيماً بالقرب من المعسكر، فلما خرجت لاستطلع النبأ وجدت امرأة استبدّ بها الذعر تختبئ وراء صخرة ومطرود يجرّها من يدها ويصيح بها بأعلى صوته الحادّ الضعيف أن تخرج من مكمنها وتنأى عن السّخف حتى تتم معالجة عينيها على الوجه الأكمل. وهذا حال مطرود دائماً، أبداً مستعد للقيام بكل مهمة ليست في نطاق عمله المشروع. وأما مساعد الطبيب فقد أدّى عمله كما يقضي الواجب بكل دقة وعناية. وكل رجل وامرأة ينال العلاج كل صباح طوال عشرة أيام، ونتيجة لذلك لم يعد في البتراء من يشكو من أمراض العين، أو أصبحوا قلة.

وهناك في المنطقة قدر معين من داء السّل أصيب به كل من يشكو سوء التغذية، كما أن الأمر لا يخلو طبعاً من الحوادث. ولمّا كان أقرب طبيب يقيم في معان، أي على مسافة يحتاج قطعها إلى ثلاث ساعات، فإن الناس مضطرون لتدبير أمورهم على أفضل ما هو ممكن لهم في هذه الظروف، إلا إذا صادف أن كان في المخيم سائحٌ له نصيب من المعرفة بالطب، وكل أصحاب اللون الأبيض عند البدول يمتلكون هذه المعرفة. ومن ذلك أن امرأة من قرية بالجوار، على مسافة ثلاثة أميال، أتت حاملة طفلها الصّغير. وكان هذا قد سحب آنية فيها ماء غال فانسكب عليه وأصيب بحروق رهيبة. وعمدت الأم عندئذ إلى معالجة هذه الحروق بلصقات من مزيج من الدّقيق

وصباغ النيلة، ولكن هذا التدبير لم يبعد الذباب عن الحروق. وكان الأمر الوحيد الذي يبعد الذباب المرهم، ولذلك قمت بوضع مرهم من حمض البوريك والپارافين المخفف فوق حروق الطفل مما أبعد الذباب عنها، لكن ظل الذباب على طنينه يحوم حتى استقر على ساقي الطفل وذراعيه والمواضع التي لم تنل نصيباً من دهن المرهم، ولكنها تركت القروح وشأنها. كذلك لم تكن لتفيد محاولة تضميد تلك القروح على الوجه السّليم، لأن الضمادات كانت تنزاح أو ينتزعها الطفل أو أمّه من مكانها. إلا أن الطفل كما علمت فيما بعد قد أخذ يتعافى، ومع ذلك كنت أتساءل ما كان سيحلّ به لو ظلت القروح مكشوفة تحت رحمة الذباب.

كانت أمّ الطفل فائقة الحُسن، كما الكثيرات من نساء البدول اللواتي يتمتعن بملامح دقيقة وعيون واسعة عموماً وهن في الغالب جميلات، وبشرتهن صافية مُشربة بالحُمرة. أما شعرهن الذي يتباهين بجماله طبعاً فكثيفٌ لامع، ذو لون بني وليس أسود؛ بل حتى النساء الأكبر سناً منهن تجد شعرهن وكأنما لا ينال منه الشيب وقد كن يبدين اهتماماً بشعري الأبيض، الذي يصفنه بالأشقر وإن كان مردّ ذلك في الأرجح نوع من الكياسة والتهذيب من جهتهن.

ولكننا نرى أنهن يسئن إلى أنفسهن كثيراً بنقش الوشم الأزرق على وجوههن. حيث يكون الوشم خطاً بسيطاً فوق الشفاه وقرابة ربع البوصة من حولها؛ والوشم على كل من الخدين، عموماً، يكون بشكل نُقرة في الخد أو وردة صغيرة، أو نجمة. وهناك وشوم أخرى حيثما يكون في الوجه مكان لها. والواقع أنه لم يتيسّر لي أن أعرف التسبب للوشم ولا في أي سنّ يبدأ عمله؛ ولكن البنات الصّغيرات وهن قليلات العدد، لم يكن لديهن وشمٌ. والوشم في جنوب فلسطين عمل يقوم به الغجر الذين يجوبون تلك المنطقة من البلد أيام الرّبيع، ولكني لم أتمكن من معرفة مَن هم الذين يمارسون الوشم في البتراء.

والنساء هناك يسفرن عن وجوههن، ولكنهن يرتدين غطاء للرأس غير منتظم على نحو ما تفعل نساء شرق الأردن. ويتألف هذا من منديل (أزرق داكن أو أسود) يُربط

فوق الشعر وفوقه قطعة قماش سوداء - وللبدويات كلهن شعر جميل - وهو مرسل في جدائل مُسدلة على مقدّمة الكتفين. وأما لباسهن فإنه إما أسود أو أزرق داكن، وهو من عدة طبقات متراكبة فوق بعضها بعضاً، بما يجعل المرأة تبدو من الخلف وكأنها، حزمة بلا شكل.

وتحمل المرأة ثروة العائلة كلها بشكل عقود وأساور، وأقراط وخواتم، ووجدت لدى الأسر الثرية التي صادفتها حلية للأنف ولكن معظم الحلي من أرخص الأنواع، وليس بين المجوهرات ما يجعل المرأة تأبى بيعه. ومعظم العقود المتدلية من الفضة والزّجاج والعقيق، وغالباً ما تتزيّن به المرأة إلى جانب أدوات الزّينة الأرخص (اللوحة 6). ولما كنتُ مطلعة على أحوال هؤلاء القوم ومدى بؤسهم فقد دأبت على شراء «العقيق» من النساء، وكن يأتين من أماكن تبعد عدة أميال وهن يأملن أن يتمكن من بيع ما يحملن منه. وكنت أكنّ الود للنساء أكثر من الرّجال، وكن يبادلنني الشعور ذاته. فكانت النساء يستلقين خارج خيمتي بانتظار خروجي منها ويتبعنني حيثما كنت أمضي.

وقد اعتدت أن اشتري من الأطفال الكثير من قطع الكوارتز الأرجواني أو البنفسجي مما يعثرون عليه بين ركام المخلّفات القديمة. وكان يصادف أحياناً أن يعثروا على قطعة من هذه المادة، وذلك يبيّن أن هذا السّقط من ركام ورشة تختص بإصلاح ما يحتاج للإصلاح. والواقع أنني لم أتمكن من معرفة إن كان هذا الكوارتز متوفراً في تلك الناحية أم أن الأنباط قد استوردوه ليصنعوا منه حُبيبات. وقد ظل الأمر مدعاة للحيرة ولم أحصل على جواب له من الأطفال أو الرّجال. فإن سألت «من أين حصلتم على هذا؟» أجابوني بلا استثناء بقولهم: «من فوق»، ممّا قد يعني المرتفعات حول البتراء. وإذا حملتهم على تعيين المكان أشاروا نحو الصّبرة، باتجاه الجنوب - جنوب غرب؛ ولكن ربما يعني هذا أحد تلال الرّكام في ذلك الاتجاه.

وقد بدت النساء لي أشدّ ذكاء من الرّجال، ولكن لعل مردّ ذلك إلى أنهن كن أكثر حرية في الحديث معي من أولئك الرّجال. وقد درج الكثير من الرّجال على تمشيط

شـعرهـم مثـل صديق لورَنس الذي سـلف ذكـره. ولباس الرّجـال كثير ومتنـوع؛ وفي مختلـف مراحل البلى والهلهلة؛ ويتألف في معظمه من الملابس الأوروبية الرّخيصة، التي ترد من الجي، أو ثياب مهترئة خلّفها وراءه أحد السّيّاح، وهـم يرتدون فوقها العباءة العربيـة البيضـاء الفضفاضة. ولا يقومون بإصـلاح هذه الثياب ورتقها، وأحسـب أنها نادراً ما تُغسـل. وهناك من الرّجال من يضع الكوفية فوق رأسـه، وبعضهم يغطي رأسه بقمـاش كان أبيـض ذات يوم، وقلة منهم يضعـون كوفيات مختلفـة، والرّجال إجمالاً يغطون رؤوسهم.



حلي امرأة من البدول

لقد سبق لي الإشارة إلى أن البدول ينظرون إلى السّياح على أنهم مورد رزق مشروع. ولا بدّ أنهم أصابوا رزقاً طيباً من أولئك الذين زاروا ديرتهم في القرن التاسع عشر، وإن كنت أعتقد أن حصة الأسد من الغنائم كانت من نصيب أهل الجي[1].

ومن مصادر الدّخل تزوير القطع الأثرية وهو نوع من التجارة يتقنه شيخ البدول، وهو ماهر فيه. والشاهد على ذلك التماثيل الصّغيرة التي يقوم بصنعها وتحمل ذلك التأثير الغريب الذي يجعل المرء يظن أنها قديمة فعلاً؛ ويصنعونها من الحجر العكسي ثم يجري نقعها في الحبر، على ما أعتقد، مما يكسبها ذلك اللون العتيق الغريب. وهذه قطع تدعو بسبب حداثتها للاهتمام الشديد. كما أن الكثير الرّجال والنساء والأطفال يقبلون على البحث في الرّكام عن الأشياء القديمة وتجدهم كثيراً ما يصادفون فيها قطعاً أثرية حقيقية؛ وعلى هذا النحو يصادف المرء بعض قطع النقود القديمة الجديرة بالشراء.

إن أهل شرق الأردن، على الجملة، مسلمون، ولكن البدول لا يعرفون عن شؤون دينهم إلا القليل. فليس عندهم جامع ولا مفتي، ولا مؤذن يدعو للصلاة؛ ولئن كنت كثيراً ما أسمع رجال الشرطة يتلون القرآن، ولكني لم أسمع أحداً من البدول يقومون بذلك لكنهم يبدون أشد التعصب في أمور معينة، ومن ذلك أن أحدهم لا يتردد في بذل حياته، كما يطمح الرّجل الأبيض، لارتقاء جبل هارون الذي على قمته كما يقال قبر هارون. وقداسة هذا الموقع تثير الأسئلة الهامة، لأن هارون ذاته ليس له في الكتاب المقدّس قدسية خاصة وكان دائماً شخصية ثانوية بالمقارنة مع موسى أو حتى مريم، ولا ريب بأن قداسته تكمن في عيون بني الإسرائيليين لا الأدوميين الذين أنكروا عليه وقومه المرور بمنطقتهم. ومع ذلك فإنه يحظر على اليهود وكذلك المسيحيين على حد سواء صعود الجبل المقدّس. والتفسير الوحيد لذلك أن الجبل كان يستخدم في تقديم القرابين والنذور لهارون.

(1) هنا فقرة آثرت حذفها لعدم ملاءمتها.

أمـا فيما يخص رقصة السّـيف عند البدو[1] فإني لسـت واثقة مـن أنها أثر من طقس مقدّس قديم كان يؤديه قدماء سكان شبه الجزيرة العربية وشرقي الأردن. أما الآن فقد غدت الرّقصة في البتراء مجرّد عرض يقدّم للسّـياح، فالاسـتعراض جميل فتّان، حيث تجري الرّقصة في الليل على ضوء نار الحطب المتقد. فيشكل الرّجال صفاً وتقف في مواجهتهم امرأة تلوح بسـيف (وفي البتراء يصبح السّـيف عصا طويلة). فيأخذ الرّجال بالغنـاء على تصفيق اليدين ويحرّكون أقدامهم إلى الأمام أو الخلف والمرأة تسـتحثّ همـم الرّجـال فينزلون القرفصـاء أو ينهضون فيما هي تلوّح بالسّـلاح بيدها. ويشـكل الفتيان أنفسهم مجموعة صغيرة إلى جانب الرّجال، ويمضون بتقليد آبائهم وأخوتهم. ويتـم هذا الاسـتعراض في البتراء لكسـب المال، لكن هذه الرّقصـة ما تزال تؤدى عند البدو الرّحل بكامل دلالتها كرقصة حرب. بيد أنه يجب على السّياح أن يقنعوا بالشكل المتقشـف مـن الرّقصة كما تؤدّى في البتـراء؛ وقلة هم الذين على معرفـة وثيقة بالبدو تجعلهم على معرفة بكيف اعتادوا على تأديتها.

والحكومة حريصة دائماً على أن تؤدّي كل ما هو ممكن لتحسـين أحوال الشـعب، وهـي شـديدة الحرص على أن تتبـع الطرق العقلانية فـي أداء مهمتهـا، وهناك أحوال يحظـى نهجهـا برضـى الله. وقد قيل لـي هذا في شـرق الأردن بوصفه عكـس ما يُتّبع في فلسـطين. وتربية الطيور تجارة كبيرة عند الفلاحين والبدو في فلسـطين، ووجدت الحكومـة أن فـي توجيه الناس إلى الأسـاليب العلمية في هذه التجـارة فائدة كبرى في تحسـين سـلالات الطيور وإنتاجها. ولذلك عمـدت الحكومة إلى جمـع أكثر من مئة رجل مـن مختلف أنحاء البلاد ونقلتهم إلى حيفا لاطلاعهـم على المزرعة النموذجية الحكومية وتعريفهم إلى الأساليب السّليمة في تربية الطيور للأغراض التجارية. وبعد هـذه الجولة أعيـد هؤلاء الرّجـال إلى بيوتهم، فمسـحت الحكومة العـرق عن جبينها وهنـأت نفسـها علـى مجهودها فـي خدمة النـاس. أما هـؤلاء الرّجال فقد عـادوا إلى

(1) تعني العَرضة، رقصة بدويّة شهيرة بالسّيوف، تقام عند الإعداد لمناخ (حرب كبرى)، أو للاحتفال بنصر أو قدوم شيخ ذي شأن إلى مضارب العشيرة.

مناطقهم وهم يضحكون ملء أشداقهم. ويقولون: «جميل من الحكومة أن تأخذنا في هذه الجولة الممتعة، لكنها سخيفة. فالناس يعلمون أن تربية الطيور تقوم بها النساء، والنساء لا يسمحن لنا أن نتدخل في شؤونهن».

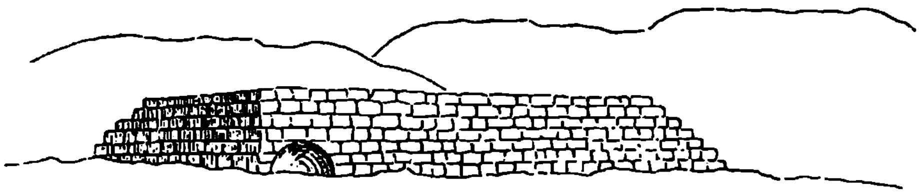
وبالمقابل فإن كل طقوس إعداد القهوة أمرٌ يختصّ به الرّجال. وهذا شأنهم في تحميص حبوب القهوة ودقّها بالمهباج، وهو أمر يقتضي مهارة فائقة، وتنفيذه يكون وفق إيقاع يمكن أن يرافق رقصات الرّجال. أما السّبب في كون القهوة من اختصاص الذكور حصراً فلأن تناول القهوة هو الأسلوب الأول في الترفيه عندهم، ولمّا كان الجنسان محكومين بالفصل بينهما دائماً، فإن الرّجال مضطرون إما لصنع قهوتهم أو الاستغناء عنها. كذلك يمضون وقتاً أطول في التسلية من النساء. ولو استُبدلت القهوة بالشاي لكان صنعه في أيدي الرّجال أيضاً.

* * *

الفصل الثاني
المعالم

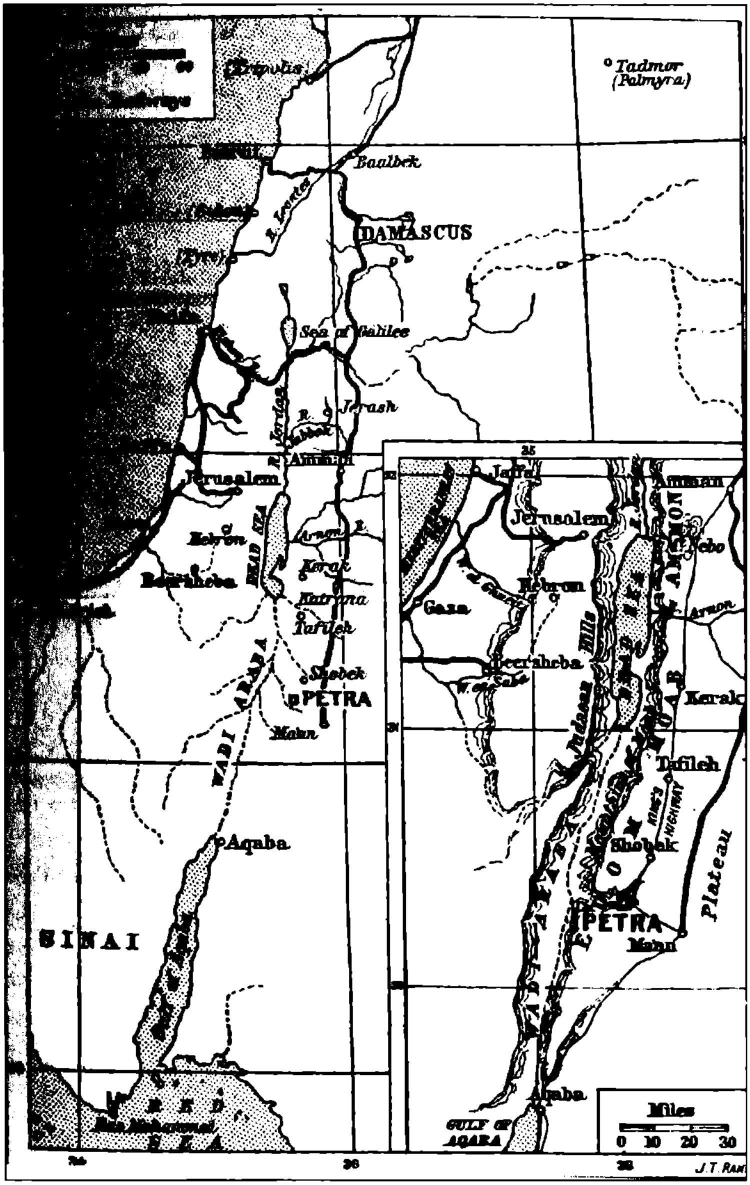
يمضـي الدّرب من الجي إلى البتراء نزولاً من القرية إلى وادي موسـى حيث يشـقّ الجـدول طريقـه عبر الوادي. ومـا زال عليه أن يقطع بعدئذ البتـراء كلها ثم يمضي إلى الطرف الآخر حيث يجري النهر إلى جانب الممرّ أو هو في الواقع الممرّ ذاته.

يعرف الوادي الفسيح ما بين الجي والسِّيق باسم «باب السِّيق». ولا يكشف الدّرب في بداية الطريق عن شـيء جدير بالملاحظة سوى بقايا صهريج (الشكل 1) في شمال الطريـق. وكان هذا الصّهريج ينتمي إلى ذلك النظام البديع من تخزين المياه الذي كان من معالم البتراء النبطيّة. وبعدئذ يقترب الطريق شيئاً فشيئاً من الحاجز الصّخري الذي يبدو أنه يسـدّ كل ممرّ بعده، وإن كان يكمن وراءه وادي البتراء. وعند هذه النقطة يرى المـرء بعـض الصّروح التـي تزخر بها البتـراء ذاتها. وهنا وهناك يقـوم صَرح نُحت في الصّخـر، إلا أن أهـم نمط بين هذه الواجهات ذلك الشـكل الخاص الـذي أطلق عليه موزيل اسم «الصهريج» وهو لفظ عربي يعني «خزان الماء».



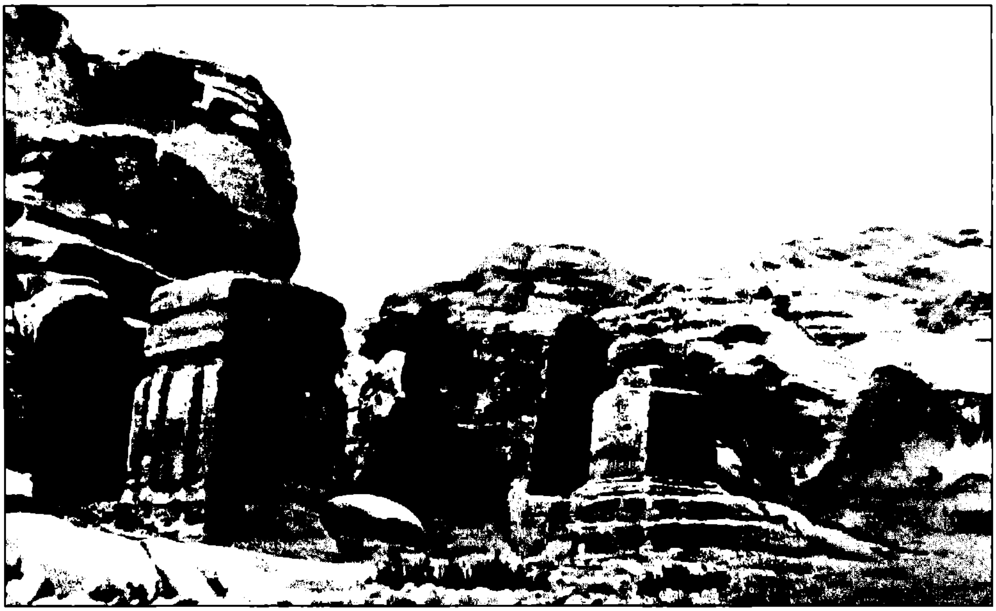
الشكل ١

ونصـادف الصّهريج فـي ثلاثة أماكن من البتـراء، وجدير بالملاحظـة أن الموقعين الآخريـن كمـا الموقع هنا قـد نُحتت جميعها من الحجر الكلسـي الأبيـض الباهت أو الـذي يميـل إلى الاصفـرار، وليس مـن الصّخور زاهية الألـوان التي تعدّ مـن المعالم الطاغيـة فـي البتراء. والصّهريـج كتلة ضخمـة ذات أربعة جوانب يتـراوح ارتفاعها ما بين عشرين وثلاثين قدماً حُفرت في الصّخر الصّلد لتقف منفصلة على كافة الجوانب (اللوحـة 7). وأعلـى الكتلة على العموم مستوٍ، إلا أن بعضها تعلوه قباب. وبعضها له أبـواب تنفتـح على حجرة فـي الدّاخل؛ ولكن نصفهـا خال من أي غرفة فـي الدّاخل، نظراً لصلابة الصّخرة. وليس هناك ما يبيّن ما إذا كان سـبب عدم اكتمال العمل صلابة الصّخر وحسـب، أو لأنها تركت على حالتها الرّاهنة قصداً. ويرى كينيدي Kennedy أن الصّهاريج المتينة هذه «تبدو وكأنها نسخة مجيدة للكتلة التي ترمز إلى ذي الشَّرى». أمـا المواضـع التي تصادف فيها فهي المداخل إلى وادي البتراء: باب السِّـيق والسِّـيق الخارجي، ووادي الثغرة الذي يشـكل المدخل الجنوبي إلى الوادي. وقد عدّ برونّوف Brünnow سـتة وعشـرين صهريجـاً فـي ثـلاث مناطـق، ولكن مـن المرجّـح وجود صهاريج أخرى لم يرها.



خريطة فلسطين وشرق الأردن

ويفضي الطريق مباشرة إلى ما يبدو أنه حاجز [سد لحجز الماء وتحويله عبر نفق] لا سبيل إلى تجاوزه من الصّخور شديدة الانحدار، ثم يتخذ استدارة مفاجئة نحو اليمين، وإلى اليسار شقّ ضيق يظهر للعيان بين الصّخور. وذلكم هو مدخل السِّيق الذي يؤدّي، إن تابـع المرء الطريق على نحو مسـتقيم عوضـاً عن الالتفاف إلى اليميـن، واتجه إلى الجانب الأيسـر من السِّـيق يصل إلى ضاحية البتراء التي ما زالت تحمل اسمها النبطي القديـم، المـدرَس Al Medras. ويصـادف المرء هنـا معالم أثرية عديـدة من كل نوع مـن واجهـات وممرّات، وكهـوف وأماكن عالية مقدّسـة (معليات)، ونقـوش كما في البتراء. ويرد في أحد هذه النقوش ذكر «ذو الشَّـرى» على أنه ربّ المدرس، وفي ذلك ما يثبت أن الاسم كان متداولاً على مدى ألفي سنة. ويذكر أنه في الالتباس الذي تتسم به ترجمـة العبارات العربية غير المترابطة، ربما تعني كلمة المدرَس «معصرة الزّيت»، أو «المدرسـة» أو «ذات القوة البارزة». وهذا هو الأرجح. أما المعنى النبطي فمجهول. وهذا الموقع لا يسـتحق الزّيارة من السّـائح إلا إذا كان لديـه الكثير من الوقت، لأنه لا ينطوي على ما يدعو للاهتمام إلا اللهم لعالم الآثار.



الصهريج

أما إذا انعطف المرء يميناً، عوضاً عن متابعة الطريق إلى المدرَس. وثابر على السّير في خط مستقيم، تاركاً مدخل السِّيق عن يساره، فإن الدّرب يؤدي عندئذ إلى وادٍ شديد الانحدار يدعى مجراه الأبعد «المظلم» Al Muzlim. وهناك عند مدخل الوادي نفق بناه المهندسون الأنباط لنقل فائض الماء الذي تم تحويله عبر النفق لتخزينه في صهاريج واستخدامه في المدينة. وهذا مثال آخر على منظومة شبكة المياه التي أنشأها الأنباط. وأمّا نهر وادي موسى فيصبّ متدفقاً بعد هبوط أمطار غزيرة في الشتاء والرّبيع مما يجعل السِّيق غير سالك والمياه تغمر وادي البتراء. ولذلك أقام الأنباط السّد لتحويل الفيضان عبر النفق وتخزين المياه لتلافي أخطار الجفاف في الصّيف. وهذا النفق شأنه شأن المدرَس غير جدير بالزيارة ما لم يكن لدى السّائح الكثير من الوقت.

يكون الطريق المعتاد باتباع الدّرب المؤدي إلى السِّيق. وهذا شقّ ضيق بين التلّين الصّخريين، الخبثة Al Khubtha والمدرَس. وكان الطريق عبر الممرّ الضيق مرصوفاً ببلاط كبير من الحجر الكلسي الذي كان يجري غسله بين الحين والآخر لتنظيفه من الحصى الذي يأتي به الفيضان؛ وواضح أن هذا الطريق المبلّط امتدّ من أول وادي البتراء حتى نهايته. ومع أن التبليط يبدو جلياً للناظر في السِّيق فإنّ الجزء الأكبر من أرض الوادي الضيق مكسو الآن بالصخر السّائب والحصى الصّغيرة التي أصبحت بفعل حركة الفيضان ملساء. ويصادف أن يجد المرء بين الحصى، خاصة جهة الجي من السِّيق، أداة حجرية، وإن كان الحتّ جعلها ملساء لدرجة يصعب تبينها. وعند مدخل السِّيق في أعلى أحد الطرفين يصادف المرء بقايا جسر، ويتألف هذا من قوس واحد فوق الممرّ الضيق يمتد من أحد الطرفين حتى الطرف الآخر. وقد وصفه الرّحالون الأوائل، إنما يبدو أنه انهار قرابة العام 1896، وكل ما بقي منه ويمكن مشاهدته الآن جزء من قاعدة القوس وكوى صغيرة لوضع التماثيل وجميعها نالت منها عوامل الطقس.

وهناك على امتداد السِّيق وعلى الجانبين كُوى. وبعضها فارغ إنما ما زال الكثير منها يحمل إشارة الإله ذي الشَّرى أو العُزّى؛ وهذا الشعار إما حجر مربّع الشكل

أو عمـود قصير مسـتدير. وقـد تكون قلة من الكـوى تضم تمثالاً، إنما قـد تكون هناك تماثيل تمثل أشـكالاً بشـرية قد جرى نحتها بتأثير أوروبي (يوناني أو روماني). ويقال إن في السِّـيق ثلاثـاً وأربعين كوّة، إنما ثـلاث منها فقط جديرة بالتوقـف عندها للنظر. فعلى الجانب الأيمن (الشـمالي) كوّة تحتوي تمثال إحـدى الإلهات واقفة بين نمرين أرقطين؛ ولهذه الكوّة أهميّة بسبب وجود نقش إغريقي، أما الأخرى ففيها نقش لكلمة إغريقيـة واحـدة. بيد أن الأهم من وجهة النظر الدّينية صفٌّ من عشـر كتل محفورة في الصّخر في كوة طويلة. وفي هذا يلاحظ كينيدي Kennedy أن الكتل متشابهة جميعها، ولا تختلف فيما بينها، إلا من حيث الطول، والقول إنها تمثل عشـرة آلهة ينطوي على مبالغة. والأقرب إلى الواقع أن كل كتلة تصوّر صلة أو تذكرة بشخص أو ربّ المكان. وليـس من قبيـل المبالغة، في هذه الحالة بالـذات، أن يعتقد المـرء أن عائلة من ثمانية أفـراد (الزوج، والزّوجـة والأبناء أو الأب والأبناء والأحفاد). «شـاؤوا إعلان إيمانهم برحمة ذي الشَّرى لترافقهم السّلامة أثناء عبورهم الصّحراء».



قناة الماء، في السِّيق

وإلى جانب الكوى يبقى أبرز ما يستدعي الانتباه في السِّيق قناة الماء إلى الجانب الأيسر (الجنوبي) (اللوحة 8). وهذه القناة قُدّت بطول قامة الرّجل، وهي من جديد جزء من منظومة الرّي المعقدة والكفوءة في البتراء.

ويبلغ السِّيق نهايته فجأة عند الشق المعروف بوادي الجرّة Wady al Jarra الذي يلتقي به في ما يشبه الزّاوية القائمة. وعلى الجدار الغربي من وادي الجرّة تطالع المرء خزنة فرعون Khazneh al Faraun، وهي محفورة، مقابل السِّيق الذي ترتفع صخوره أكثر من أي موقع آخر، والنتيجة أن الخزنة تظهر، أولاً كلمحة بين صخور معتمة، وإذا كانت الشمس في موقعها الصّحيح وترسل أشعتها إلى وادي الجرّة بدت الخزنة مثل شمس غاربة في صخور السِّيق المعتمة الكئيبة. ويا له من تضادّ أخاذ وجميل (اللوحة 9).

والخزنة واحدة من ثلاثة مشاهد رائعة في البتراء – وهي من نوع المشاهد التي تظهر لدى بيديكر Baedeker. وموقعها حيث يتصل السِّيق بوادي الجرّة بشكل الحرف T، ويبين أن موقعها هناك مقصود لإحداث تأثير لدى الزّائر الذي يفاجأ بها.

ويزيد ارتفاع الصّخور ههنا على جانبي السِّيق عن مئتي قدم والممرّ ضيق. وبعد مسير مسافة الميل في الممرّ حيث لا تخترق الشمس المكان إلا في منتصف النهار، تكشف استدارة مفاجئة في الممرّ عن فتحة ضيقة بين صخور المنحدر فيحظى المرء بأول نظرة من المعبد [الخزنة]. والوادي الذي فيه السِّيق أعرض من السِّيق ذاته مما يجعل المعبد على بُعد كافٍ من التقاء الواديين بحيث يبدو المشهد كاملاً وأخاذاً. والوقت المناسب لمشاهدة هذا المنظر في ذروة اكتماله يكون في الصّباح ما بين السّاعة الحادية عشرة والواحدة ظهراً حين تتألّق الشمس فوقه. أما أبكر من ذلك فإن ظلال المنحدر الصّخري تغطي المشهد، بينما تكون الشمس قد توارت في العصر وراء الصّخر الذي نُحتت منه.

وذلكم هو الجزء الوحيد من البتراء الذي يمكن القول فيه بحقّ إنه وردي أحمر اللون، وذلك عندما تسطع فوقها الشمس وحسب. والصّخر هناك فيه ظلال ناعمة من

اللـون الأحمر أكثر قليـلاً ممّا في أيّة بقعة أخرى من الـوادي، ويبدو أن العمارة تخرج تلـك التدرّجات الخفيفة للـون. بيد أنه جديرٌ بالملاحظة، مع ذلـك، أن اللون الوردي إنما يظهر في الأضواء شبه السّاطعة. كما أن بعض جمال المعبد يكمن في موقعه، لأنه يتألق كما الجوهرة تحت أشـعة الشمس، ويزيد من سطوعه عتمة الصّخور التي عبرها يلمح المرء المنظر في البداية (اللوحة 10).

يقـدم لنـا دالمـان Dalman أول وصف واضح للواجهـة التي هي كل ما نشـاهده، لأن الغـرف وراء الواجهـة عارية من أيّة زينة أو زخرفـة. ويعتبر دالمان الخزنة قبراً، إلا أن المخطـط يبـدو لي أنـه في الواقع معبـد. والترتيب الثلاثي يتبع نمـط معبد مصري. حيـث هناك الفنـاء الخارجي الذي يمثله الرّواق المعمّد عند مدخل المبنى؛ والسّـاحة الدّاخليـة التي تتمثل في حجرة كبيرة مربعة الشـكل منحوتة فـي الصّخر؛ ومقابل باب الحجـرة الدّاخليـة مباشـرة مدخـل المقام المقـدّس. وهـذا تنظيم مألوف في هندسـة المعابـد، حيث يكون المقام المقدّس على خط واحد مع المدخل الكبير. وأما الغرف الجانبيـة التي يعتبرها دالمـان مدافن وإن كان يقر بأنها أضيق من أن تكون كذلك، فهي برأيي مستودعات أو ربما غرف الكهنة مثل التـي كثيراً ما تُصادف في المعابد القديمة وحولها.

وفيما يلي مقتطفات من مقالة دالمان المتعلقة بالواجهة.

«لقد صمّم المعماري مقدّمة البهو بما يشـبه واجهة المعبد ذي المدخل المسـقوف بأعمدتـه الأربعـة والسّـطح القائم على أعمـدة والواجهة المثلثة، لكنه في سـبيل بلوغ واجهة أوسـع وأشـد مهابـة، أضاف إلى الـرّواق المعمّد عموداً إلى كل جانب ووسّـع السّطح القائم على الأعمدة وفقاً لذلك، وجعله يتراجع أولاً، ثم أبرزه بعد هذه الإضافة في خط المقدّمة الأصلي. ولقد كان بالوسع تنفيذ واجهة مثل هذه في بناية مستقلة على طـرف تل منخفض؛ أما هنا فقد كان من شـأن الجـدار الضخم، أي الصّخرة التي تخيّم فوقه أن تجعله يبدو أصغر وتقلل من شأنه.

لذلـك كان لا بـدّ من إقامة دور آخـر فوق ذاك، إنما كانت المعضلـة في كيفية تنفيذ

ذلـك دون إفسـاد الانطبـاع الذي تتركـه واجهة المعبد، وهـي نواة البنـاء كله. فأضاف المعماري أولاً علّيّة تحت السّـطح مباشـرة، وكان من شـأنها في الواقع التشـديد على اسـتقلال الطابق السّـفلي وتعد في الوقت ذاته أساسـاً للطابق الأعلى. ويمكن للطابق الأعلـى أن يتألـف مـن رواق ذي أعمـدة بسـيط، لو لا أنه قد يشـكل ثقلاً علـى واجهة المعبد، وبدا من الأفضل ترك الأعمدة تتراجع عند الوسط، بما يتفق والبهو في الطابق الأسفل وإقامة معبد دائري صغير في وسط الموضع المكشوف.

ولتوحيـد الأجنحـة الثلاثـة، التي ظهـرت الآن في مقدمـة الطابق الثانـي، أضيفت إلى الجناحين الجانبيين واجهات مثلثة تشـير خطوطهـا المتصاعدة نحو «قمة الخيمة» الجناح المركزي. وهكذا ارتفع معبد ثان فوق ذلك المعبد القائم في الطابق الأسـفل. فـإن لم يكن هذا المعبد الأخير في الواقع نصباً مقدّسـاً؛ وكان مدخلاً إلى ضريح، فإن المعبـد المسـتدير فـي الطابـق الثاني له كل مظهـر المقـام الدّيني، والدّليـل على ذلك تمثـال الإلهة ايزيس في مقدمته... وهذا الجمع بين مقدّمة المعبد التي تشـكل الطابق السّـفلي مـع أعمدة تحيط برواق مسـتدير قد تم تقليـده في البتراء في مـا يعرف بمعبد الدّير والضريح الكورنثي، إنما ليس له، على حدّ ما نعلم، مثيلٌ في مكان آخر... وهذا يتناقض مع كل قاعدة كلاسيكية، إلا أنه يتفق والمكان، وكان تأثيره التزييني موفقاً.

وفوق ما يسمّيه دالمان Dalman قمّة الخيمة، جرى نحت صورة آنية زهور أو جرّة لتضفي لمسة أخيرة على الواجهة. وتُعزى هذه الخزنة مثل كل شيء في البتراء لا يملك له السّكان تفسيراً، إلى الفرعون، فاكتسبت اسم خزنة فرعون؛ إذ لطالما اعتُبر الفرعون ساحراً عظيماً حتى يقال إنه أودع هذه الآنية كنزه ثم أحاطها بسحره لئلا يمسّها الفانون. وكان العـرب قد اعتادوا توجيه أسـلحتهم إلى الآنية وإطـلاق الرّصاص عليها (وباتت هـذه العادة محظورة الآن) آملين تحطيمها ليتدفـق منها نهر من الذهب والمجوهرات ويقـع بين أيديهـم الضارعة التي تنتظر أن تنهال عليها الثـروات. ومن الواضح للعقول البسيطة أن فرعون لا بدّ أنه كان ساحراً عظيماً لأن الرّصاص كان يرتد عن الهدف أو لا يصيب إلا قطعاً صغيرة تتناثر من أطراف الآنية وما تزال سليمة.

ويعـود تاريـخ الخزنـة في الأرجح إلـى عهد أريتـاس (حارثة) الرّابـع فيلوديموس Aretas IV Philodemos، أو خليفته ربّ إيل Rabel، وكلاهما عاش في القرن الأول الميلادي. وهذا تاريخ يعود إلى ما قبل الغزو الرّوماني، وبالتالي فهي هيلينية. وإحدى المزايا التي تتمتع بها الخزنة على سـواها من المشـاهد الرّئيسة في البتراء أن مشاهدتها لا تحتـاج لصعود الجبل. وهذا أمر هـام عند غير الرّياضيين أو من لا يتوفر لهم الوقت للقيـام بهذه المسـيرات. وقد جـرت القاعدة على اصطحاب أولئـك الذين يطيب لهم صعـود الجبال لرؤية الخزنة عند عودتهم من مذبح القرابين، أمّا غير الرّياضيين فالأمر عندهم يسـير لأن الموقع قريب من المخيم حيث يسـتقرّون ويمكنهم بلوغه سيراً على الأقـدام، بـل ويمكن تدبير حصان أو بغل من الجي ليسـتخدمه السّـائح. كذلك يمكن للسـائح مشـاهدة المعبد عند عودته إلى الجي، ولكن الكثير من جمال المشهد، يضيع عندئـذ، فيضطـر للعـودة لرؤيتـه ثانية، وفي تلك السّـاعة المبكـرة التي عليـه أن يغادر المخيم لا تكون أشعة الشمس فوق الخزنة.

وجديـر بالذكر أن إحدى مصاعب الترحال في شـرق الأردن اضطرار السّـائح إلى النهـوض في الصّبـاح الباكر كي يبدأ ترحاله ليبلغ وجهته في ضوء النهار. فالمسـافات شاسـعة والطـرق غالباً ما تكون سـيئة، حتـى أن العربة قلما تبلغ مقصدهـا مهما كانت سرعتها وأماكن الاستراحة، إن وجدت، قليلة ومتباعدة.

* * *

يعرف الشـقّ الضيّق الممتدّ من الخزنة إلى مدخل الوادي بالسِّـيق الخارجي. وهنا يغـدو الممـرّ أكثر اتسـاعاً وتصطـف على جانبيـه الواجهـات المحفورة فـي الصّخر، وتنتصـب الصّهاريـج هنا وهناك بأوجهها المربعة بكامل قوتهـا. وتقود الواجهات إلى غـرف محفورة فـي الصّخر ذات جدران جـرداء قلّما تظهر أثراً مـن الزّينة إلا علامات المعـول على النحـو الذي عُرفت به آثار الأدوات النبطيّة. وغالباً ما تدعى هذه المعالم ذات الواجهات قبوراً أو معابد، إلا أنّ ثمّة شواهدَ كثيرة على أن تلك الغرف المحفورة في الصّخور في البتراء كانت أماكن للسـكن أو مخازن. ومعظم الواجهات في السِّـيق

الخارجي إنما كانت من الطراز المعروف بالآشوري، والأعمدة ذات تيجان بسيطة، والزّخرفة تأخذ شكل أوراق نبات قَدَم الغراب في أعلى السّاكف الذي يستند إليه الإفريز (اللوحة 21). كذلك تصادَف واجهات مماثلة في أجزاء أخرى من البتراء، لكن السّائح إنما يراها على هذا النحو، هنا، لأول مرة. وبالمقابل هناك آثار من الطراز الآشوري وهي قطعاً قبور، وتحتوي على حُجيرات تضم أضرحة مخصصة للجثامين سواء كانت ضمن توابيت أو بلا توابيت.

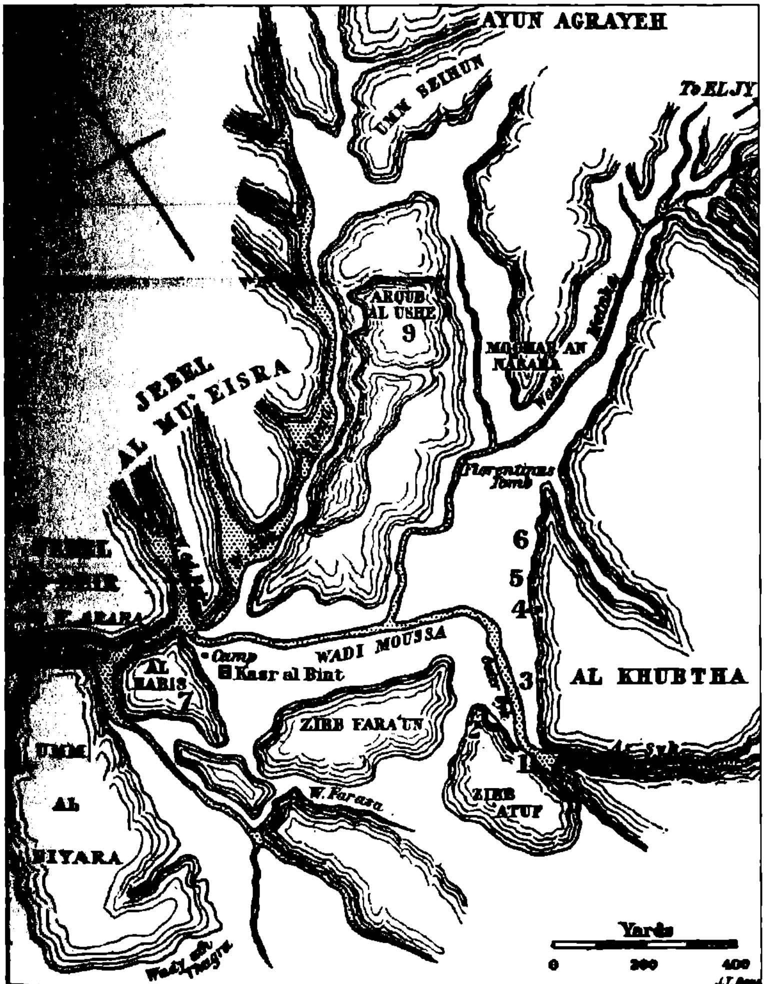
وإذا ما تبعنا مجرى وادي موسى عبر السِّيق الخارجي نجد أن الممرّ الضيّق يغدو أوسع وجانبيه أقل عمقاً. وحيث يقوم الوادي بالاستدارة فجأة نحو الشمال وينفتح على وادي البتراء (اللوحة 11) هناك، ناحية الشمال، مسرحٌ مفتوح ضخم منحوت في الصّخر. ولقد أزال هذا المسرح مجموعات كاملة من الأضرحة من القبور القديمة التي تظهر هنا وهناك في مواقع المقاعد التي تداعت وتكسّرت. ويتألف موضع المشاهدين من ثلاثة وثلاثين أو أربعة وثلاثين صفاً من المقاعد ليستوعب المسرح ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف متفرج. وهذا يعرض لنا فكرة ما عن سكان البتراء الذين قُدِّر عددهم في ذروة رخائها بثلاثين ألفاً تقريباً.

* * *

والبتراء بلد يبعث على الحيرة الشديدة، ولكي أتمكن من وصفها على نحو بارع، عمدت إلى تقسيمها إلى أربعة أقسام (1) التلال الشرقية والجنوبية؛ (2) أم البيارة في الغرب؛ (3) سلسلة الجبال الشمالية؛ (4) المنطقة الوسطى التي تحتوي آثار المدينة.

1: يستحسن أن يبدأ السّائح جولته من ناحية الشرق، التي دخل منها. والسِّيق شق في كتلة الخبثة Al Khubtha الجبلية التي وإن كان الشق يقسمها فإنها في الواقع جزء من سلسلة الجبال التي تضم المدرَس ومَمات حسن وجبل العَطوف (اللوحة 11). وهذه السّلسلة تنحدر شيئاً فشيئاً نحو الغرب لتبلغ مستوىً منخفضاً نسبياً وبذلك تنقسم بأرض منخفضة من القمم الخارجية ناحية الغرب.

وهـذا الجزء هو الأدعـى للاهتمام من البتراء، إذ تتحلق حول الخبثة وفوهة السِّـيق أرقى المعالم، ألا وهي الخزنة، والمذبح والمسرح. وقاعدة الجزء الرّئيسي من الخبثة محفورة من الجانبين الغربي والشمالي بواجهات، غنية بالنقوش قليلاً أو كثيراً. وهناك مـن ناحيـة الغرب أكثر الواجهات أهمية في البتراء؛ وهـذه الواجهات هي على التوالي الضّريـح – الجـرّة، والضريح الكورنثي، وضريح القصـر ذي الثلاثة طوابق (اللوحتان 12، 13).



1. Khazneh. 2. Theatre in Outer Syk. 3. Obelisk Tomb in Outer Syk.
4. Urn Tomb. 5. Corinthian Tomb. 6. Palace Tomb.
7. Crusaders' Castle on Al Hibis. 8. Ad Deir Temple on Jebal ad Deir.
9. High Place on Arqub al Ushe.

خريطة البتراء

وقد ذهب بعض أصحاب الرّأي إلى أن هذه المعالم كانت أضرحة آخر الملوك الأنباط الذين حكموا المنطقة، كما من المحتمل أن تكون «البيوت البارزة» التي ذكرها سترابو Strabo. وكان الضّريح - الجرّة قد تحوّل في وقت ما إلى كنيسة مسيحية؛ وهناك قول بالإغريقية مخطوط بالأحمر خلف الجدار ويفيد بتكريس الأسقف الذي أقام القداس وتاريخه. (انظر الفصل الثالث). وهناك على الوجه الشمالي من الخبثة Al Khubtha واجهة ضخمة عليها نقش تذكاري باللاتينية موضوع وفق آخر وصية للمسؤول الرّوماني الذي يحتفى به [ضريح فلورنتينيوس]. ولكن لا يمكن الجزم هنا أيضاً إن كانت هذه الواجهة المدخل إلى ضريح أم إلى منزل، لأن المسؤول المعني كان صاحب أرفع مرتبة ولا بدّ أنه أقام في أضخم البيوت وأفخمها.

هناك إلى الطرف الشمالي من الخبثة ممرّ صغير يحتوي على كهوف يبدو كثير منها قد استُخدم ورشات عمل أو ربما دوراً للسكن. ولكن القول إن هذه مقابر أصلاً أمرٌ يحتمل الشك؛ إنما يبدو الأرجح أنها كانت دوراً للسكن يختص بها العمال في ورشات صهر الحديد والاشتغال به، والشواهد على ذلك كثيرة على مستوى الأرض أمام الكهوف.

يشقّ وادي المتاهة الخبثة من تل يعرف باسم مغار النّصارى؛ وهذا هو ما يعرف بحيّ النّصارى. وقد اكتسب المكان اسمه من الصّلبان الموجودة في بعض الكهوف. ولئن كان هناك مطارنة للبتراء على مدى قرون فلا يمكنني الجزم إن كانوا قد نالوا مرتبتهم من المدينة النبطيّة أو كان مصدرها على الأرجح البلدة التي تعرف اليوم باسم الكَرَك، وكانت تُعرف باسم البتراء أيضاً. ولكن ليس هناك شك، على أي حال، بوجود طائفة مسيحية سكنت هذه الكهوف ذات يوم، أو لعلهم كانوا جماعة من النسّاك اعتزلوا في هذه البقعة النائية العالم وشروره.



الخزنة من السِّيق

إن لون الصّخور الزّاهي في فوهة السِّيق لافتٌ للنظر (اللوحتان 14 و 15). وهناك العديد من الكهوف المحفورة في الصّخر وأبرزها «ضريح المسلّات» (اللوحة 16). ولقد حملت الصّخرة آثار الشمس والرّياح كلها واكتست أشكالاً مذهلة. وكانت الأرض الرّأسية المرتفعة التي يقوم عليها المذبح تقع فوق المسرح، وتعرف باسم جبل[1] العطوف». وقد جرى حفر أدراج على ثلاث جهات بحيث تؤدي جميعها إلى المذبح الكبير (المعلاة العظمى)، لكن هذه الأدراج تداعت إلى حدّ كبير، ولم يبق منها سوى درجات قليلة، وغير متتابعة. أما سطح التل فعبارة عن كتلة من الواجهات التي يرتفع بعضها فوق بعض في صفوف (اللوحة 17).

وتنحدر التلال الآن حتى وادي فرسة والجزء المنبسط من الوادي الذي يقع عند رأس المنطقة 4. بيد أن الواجهات منتشرة في كل مكان، وهي محفورة أحياناً، وعادية بسيطة، أحياناً أخرى، إنما لا تستدعي تعليقاً خاصاً.

ومن وادي فرسة يصعد الدّرب المعتاد إلى المذبح الكبير، وهو المشهد الأبرز الثاني في البتراء. والاسم الذي خُلع على الموقع حديث العهد ويتداوله السّياح الذين يرتادون البتراء مهما كان عددهم. وأما أهالي المنطقة ولعلّهم لم يعرفوا بوجوده حتى أخبرهم الزّائرون به، فإن كلّ طفل في المحلة صار يتحدث بطلاقة عن «المذبح». ولهذا المكان اسم آخر يتداوله السّياح هو»المعلاة العظمى».

والصعود إلى هذا الموقع صعبٌ لأن المرء يرتقي عندئذ طريقاً شديدة الانحدار، إلا أن الصّعوبة تكمن عندئذ في مكان أو مكانين وحسب، وإن كان على السّائح أن يصطحب معه دليلاً ليعينه في الأطراف الشاقة. ولكن الأدلّاء يؤثرون الدّرب الصّاعد من وادي فرسة، مما مردّه في بعض الأمر، إلى أنه الأيسر لمن لم يعتد تسلق الأماكن المرتفعة، وفي بعضه الآخر لأنه يمرّ بمعالم أخرى هامة وعن طريقه يصل المتسلق إلى الموقع المعروف بتل المسلّة. وعلى السّفوح الأدنى يتجاوز المرء عمود فرعون

(1) التسمية بالأصل مغايرة لذلك، والكلمة الأولى منها فيها فحش، لذا تم تغييرها إلى: جبل العطوف.

وأعلى منه يوجد قبر الأسد، وهناك، في الأعلى المسلّات (اللوحة 29). وقد دأب الأدلاء دائماً، عند النزول، إلى العودة عن طريق أحد الممرّات التي تفضي إلى الوادي بالقرب من المسرح الرّوماني. وقد كان الدّرب الذي يتخذه السّائح عند النزول في الأرجح الطريق الرّئيس المؤدّي إلى المذبح في العصور القديمة، لأن درجات السّلم كانت منحوتة في عدّة مواقع عميقة لتتيح للمتعبّدين بلوغ القمة. وهذا يوحي بأن المتعبّدين لم يكونوا بهمّة البدو في العصر الحديث الذين يصعدون ويهبطون هذه التلال الصّخرية مثل الماعز الذي يربّونه.

ويقع المذبح المقام على تلّ العطوف على علو ستمئة قدم تقريباً فوق وادي البتراء، أي قرابة ثلاثة آلاف وأربعمئة قدم فوق سطح البحر. وهناك على التلّ ما يشار إليهما بالمسلّتين. وقد جرت تسوية قمّة التل بوسائل بشرية، بينما ظلت المسلّتان قائمتين. وأما آثار أسوار القلعة والحوض فتعزل المسلتين عن المذبح، ولكن لما كانت القلعة قد بنيت في وقت متأخر عن بقية المعالم فيمكن تجاهل ما بقي منها لبرهة.

لقد كان المذبح الكبير ملجأً مكشوفاً ويتألف من فناء قائم الزّاوية محفور في الصّخر ليكوّن أرضاً منبسطة يحيط بها سور (اللوحة 18). وهذا مثال رائع لمهارة الأنباط في تسوية الصّخر. ولئن كانت الأرض تنحدر قليلاً إلى الجنوب فإن قطع الصخر كان أشدّ في ناحية الجهتين الشمالية والجنوبية، بما يبيّن أنه بُذل في هذا الكثير من العمل الدّقيق الذي تقتضيه تسوية مثل هذه المساحة الواسعة، إذ تبلغ سبعة وأربعين قدماً طولاً وواحداً وعشرين عرضاً، وعلى الجانب الشرقي ثمّة مصطبة قُدّت من الصّخر ليفيد منها أصحاب القرابين الذين يأتي منهم قلة في وقت ما وفاءً لما قطعوه على أنفسهم من نذور.



الخزنة

وعلى الطرف الغربي هناك منصة صغيرة تُركت قائمة عمداً حين قاموا بتسوية الأرض؛ ويبلغ ارتفاعها أربع بوصات ونصف. وموضعها أمام المذبح الكبير يُظهر أن لها دوراً هاماً في هذا الطقس. ومن المحتمل أنها، كما يرى دالمان Dalman، كانت مثل مائدة خبز الفطير التي تُعرض فوقها الهدايا البريئة من الدّماء. ويؤيد هذا الرّأي القياسات؛ ذلك أن التعاليم سبق أن نصّت على أن تكون الطبقة العليا من الطاولة التي تحمل هذا الخبز مربعاً مضاعفاً (ذراعان هما طول الطاولة وذراع سوف يكون العرض)، بينما يبلغ طول المنصة الصّغيرة خمسة أقدام وبوصة والعرض قدمين وثماني بوصات. كذلك كان موضع مائدة خبز الفطير «في السّرادق، إلى جانب خيمة الهيكل النقال شمالاً، خارج الحجاب».

يقوم المذبح الكبير (اللوحة 19) على الطرف الغربي، في مكان منعزل خاص، ومثل باقي المعليات كذلك هذا المذبح محفور في الصّخر الصّلد. ويبلغ ارتفاعه عن الأرض نحواً من ثلاثة أقدام ويكون الوصول إليه بارتقاء ثلاث درجات واطئة ويحيط به ممرّ محفور في الصّخر، والغرض منه جلياً أن يكون ممرّاً للكهنة للقيام بطقوس تقديم القرابين. والمذبح ذاته جديرٌ بالاهتمام لوجود فجوة محفورة في سطحه ذات شكل مربع يبلغ عمقها أربع بوصات. وكانت وظيفتها على الأرجح أن تحمل رمز الإله الذي كُرّس له هذا المعبد. كما كانت زوايا المذبح محفورة للإيحاء بقاعدة مرتفعة لحمل الرّمز، ويلوح أن المذبح لم يكن قد اكتمل نظراً لبقاء الزّاوية الجنوبية الغربية دون تشذيب.

وهناك مباشرة إلى الجنوب منصّة مستديرة يتمّ الوصول إليها بارتقاء أربع درجات من ناحية سور المذبح، وفوق المنصة حوض مستدير يبلغ قطره ثلاثة أقدام وتسع بوصات. وفي وسطه فتحة للتصريف تصبّ ما في الحوض على الدّرج المؤدي إلى المنصّة. وفي الجهة الشرقية للمنصّة ثمّة فجوة مستطيلة الشكل يبلغ طولها خمسة أقدام، ويبدو أن القصد منها أن تكون حوضاً لغسل الأواني المستخدمة في المذبح، ويُستدلّ على ذلك من وجود ثقب لتصريف الماء. وعلى مسافة بسيطة من الطرف

الجنوبي من الفناء يجد المرء صهريج ماء منحوتاً في الصّخر؛ وتبلغ أبعاد هذا الصّهريج عشرة أقدام طولاً وسبعة أقدام عرضاً وأربعة أقدام عُمقاً؛ ولا بدّ أن هذا كان صهريجاً لخزن الماء. وكان كلّ معبد تقدم فيه قرابين يحتوي على كمية كبيرة من المياه لا بدّ منها لغسل آثار الدّماء.

يعتمد تعيين تاريخ تأسيس المذبح على التخمين؛ فليس هناك ما يبيّن متى كان إنشاؤه؛ وبما أنه يخلو من أيّة زينة ولا يحمل نقوشاً، فإنه لا يمكن معرفة نمط العبادة التي كانت تُتّبع فيه بل ولا اسم الإله الذي كُرّس له المذبح إلا تخميناً. والطريقة الوحيدة لبلوغ تاريخ تقريبي لذلك هي القيام بأعمال الحفر والتنقيب في الحصن المقام فوق التل ذاته، ومن الجليّ أن الحصن يعود إلى فترة متأخرة. فقد قام الذين بنوا الحصن بحفر قناة حول الأرض المقدّسة وهذا لم يكن ليحصل إلا بعد أن فقد الموضع المقدّس حُرمته وفقد وظيفته. فلو أمكن، إذن، تعيين تاريخ عمارة الحصن، وهذا ممكن تماماً إن تم التنقيب على يد عالم آثار كفوء، فربما يمكن عندئذ استنتاج التاريخ النهائي الذي ينتمي إليه الموقع المقدّس هذا.



فوهة السِّيق، ويظهر جبل الخبثة وجبل العطوف

في نطاق الوادي والوديان الأخرى، هناك الكثير من الأماكن القدسيّة (المعليات) المشابهة الأخرى، وإن كانت أصغر حجماً سوى أن هذه المواضع تنتمي إلى الطراز ذاته إن قليلاً وإن كثيراً، ولا تلقي مزيداً من الضوء على المسائل المتعلقة بالطقوس والآلهة. ويشير عدد هذه الأماكن المقدّسة إلى انتمائها للفترة النبطيّة، آخر أزمنة الرّفاه العظيم الذي عرفته البتراء، وليس الفترة الأدومية. ولقد كان الأنباط معلمين متمكنين في نحت الصّخر، وبقدر ما نعلم لم يمارس الأدوميون هذا الفن. وتوخياً للحذر يجمل بنا أن نُرجع الأماكن المقدّسة جميعها، بما فيها المذبح، حتى تبلغنا معلومات أكثر دقة، إلى الفترة النبطيّة، أي إلى القرنين الأولين قبل الميلاد، وليس إلى عهد الأدوميين.

2. ترتفع في غرب الوادي كتلة «أم البيارة» الهائلة، التي أطلق عليها العرب اسم «أم الصّهاريج»، بسبب الصّهاريج التي اكتشفت في أعلى قمتها (اللوحتان 3، 20). ولعل هذه الصّهاريج أقيمت حين كانت أم البيارة، الملجأ الأخير للقبائل التي استقرّت في المنطقة. وهذه أدعى تلال البتراء للإعجاب على الإطلاق، فضلاً عن أنها تهيمن على الوادي كله. وجدير بالذكر أن الدّرب الذي سلكه الرّحالة الأوروبيون للوصول إلى البتراء يؤدي إلى وادي الثغرة، الذي يصبح وادي المغاريق عند الطرف الجنوبي من أم البيارة.

وجوانب الممرّ الضيق حافلة بالواجهات والكهوف، شأنها في ذلك شأن كافة المداخل المؤدية إلى البتراء. وهنا وضعت عدّة رسوم جدارية أيضاً، ومضمونها يشير على العموم إلى ابتهالات ونذور. وأم البيارة ليست عصيّة على الرّحالة إنما دربها صعب ولا يُنصح بان يطرقها إلا المتمكّن من صعود الجبال. وهناك في القمة صهاريج مياه، ومنها يستمدّ الجبل اسمه. وقد وجدت في قمة الجبل فخاريات تعود إلى العصر الحديدي، وتبين أنها كانت مأهولة في تلك الفترة، ولو باعتبارها ملجأً وحسب. ومن فوقها كان أمصيا [ملك مملكة يهوذا أو اليهودية] يرمي أسراه «وأما أمصيا فتشدّد وخرج بشعبه ومضى إلى وادي الملح وكسر من بني سعير عشرة آلاف. وأسر بنو يهوذا

عشـرة آلاف أحيـاء وأتوا بهم رأس الصّخـرة وطرحوهم مـن رأس الصّخرة فتحطموا بأجمعهم». [سفر أخبار الأيام الثاني، 25: 11 ، 12].

وتمتـدّ الواجهات بمحـاذاة أم البيارة (اللوحة 21)، ومع أن حجارتها لا تتمتع بمثل ذلـك اللون المتألق الـذي يميز الخبثة، فإنها تضفي على الصّخـرة مظهراً زخرفياً. كما أن شـروق الشـمس يوحي للمرء بأجواء سحرية تكاد لا تتفق مع التجهّم الذي تتسم به صخور قمة أم البيارة.

وأمام أم البيارة جبل الحبس، ويفصلها عنه وادٍ عريض. ويبدو الحبس لمن يشاهده عـن قـرب جزءاً مـن أم البيارة؛ ولا يكـون الانفصال جليـاً بين الاثنين إلا حين يسـلّط الضـوء من زاوية معينة. وعند أسـفل الحبـس يقوم المخيم – الفندق الـذي يأوي إليه السّياح (اللوحة 3).

والحبس مطرّز بالكهوف فيبدو أشـبه بخلية نحل، ويسـتخدم بعض هذه الكهوف لأغـراض حديثـة مثل مخفر للشـرطة وغرف نوم فـي الفندق. ولكن ثمّـة قطعتين من الصّخر المحفور تنطويان على أهمية. فهناك الضريح غير المكتمل (اللوحة 22) الذي يبيّـن بالضبط كيف يبدأ الحجارون على وجه التحديـد عملهم. فقد بدأ هؤلاء كما في مصر القديمة من الأعلى. فإذا وقع اختيارهم على طبقة مناسبة بدؤوا بالقسم العلوي، أي الواجهـة التي يتم حفرها وتزيينها قبل البدء بالقاعات الدّاخلية والغرف، فإذا انتهوا منها ومن السّـطح المعمد، يقومون بقطع الكتلـة تلو الكتلة من جانب التل، ويتوغلون أعمق فأعمق حتى يبلغوا النقطة التي سوف تصبح الجدار الخلفي عند إنجاز القاعة.

وكانـت الأعمـدة التي يمكن أن تغـدو مطلوبة تترك كدعامات مـن الصّخر الصّلد، حيث العمل جارٍ في ترتيب التيجان قبل أن يُصنع العمود ذاته. وفي غضون ذلك يكون السّـقف قـد صُقل عندما تكون الحجرة قد أصبحت في مسـتوى يمكـن للمرء معه أن يقـف ليعمـل. ويتم إنهاء العمل بالجدران والأعمدة حالمـا يكون الحفر قد وصل إلى مسـتويات أخفض فأخفض؛ وتكون الأرض آخر ما يُرتّب ويسوّى. وهذه الطريقة، أي البدء من الأعلى والانتهاء عند الأرض، هي بالضبط نقيض البناء الذي يبدأ من الأسفل

وينتهـي عند أعلى نقطة؛ بيد أن هـذه هي الطريقة المتبعة حيثما يكون هناك صروح من الصّخر المحفور، سواء في مصر أم في الهند.

يلي الضريح غير المكتمل ما يسمى «الكولمباريوم» Columbarium (اللوحة 23). وهو حفريات أثرية واسعة وسطحية، اصطناعية، والجدران جميعها مغطاة بحُفر مربعة سـطحية، تعطي المرء انطباعاً بأنه يشـاهد رقعة شـطرنج. وهذه الصّورة فريدة في بابها في البتراء، ويصعب تفسيرها. وقد كان هناك من قال إن المشهد يصور أعشاش حمام، ومنه اشـتق اسـمه الحديث [أعشـاش الحمام]؛ بيد أن حجـم المكان الكبيـر والعناية بالصنعة وسـطحية المربعات تعارض هذه النظرية؛ فلكـي تكون المربعات ذات فائدة للطير لا بدّ من بناء كل مربع بالصلصال أو مادة ما متينة إلى حد كاف، مما يقتضي عملاً ضخماً بالغ التكلفة وغير ذي مردود.

وهنـاك رأي آخر يقول إن الحفر الغائرة المربّعـة كان المراد منها حمل جرار الرّماد مـن حقـل محرقـة جثث الموتـى. إلا أن هذا الرّأي بعيـد جداً عن الاحتمـال. ذلك أن حرق الجثث لم يكن يسـتخدم إلا إذا توفر مقـدار كبير من المحروقات، نظراً للحرارة العالية البالغة اللازمة لتأتي على الجثة؛ ثم إن الوقود كان صعب المنال، ولو لأغراض التدفئة، سواء في البتراء أو جوارها. لذلك يرجح أن يبقى اسم كولمباريوم راسخاً حتى نقع على فرضية أكثر قبولاً.

3. إلى الشـمال من وادي البتراء يقع جبل الدّير وسلسـلة جبل المعيصرات. وهناك بين أم البيارة وجبل الدّير الشـق الجبلي المعروف بوادي الصّياغ، ومنه يشق نهر وادي موسـى طريقه إلى وادي عربة تحت صخور البتراء. ولعل هذا الوادي أروع مشهد تقع عليه العين في نواحي البتراء. وهناك على مرحلة قصيرة نزولاً شـلال ومن بعده يصبح الوادي غير سالك. أما أعلى وادي الصّياغ Wady as Siyagh فحافل بالكهوف ذوات الواجهات؛ وجليّ أن هذا الموقع كان حياً سـكنياً راقياً، يقع خارج أسوار البلد، ولكنه قريب كفاية مع ذلك ليأتي التجار إلى أعمالهم دون أن يتكبّدوا العناء أو التّعب.

ويتقاطـع الطريـق الصّاعد إلى الدّير مع ثغر وادي الصّيـاغ ويتابع حتى وادي الدّير.

وحيثما كان الدّرب شـديد الانحدار غدا إمـا مرصوفاً (اللوحة 24) أو جرى حفر درج في الصّخر. وجليٌّ أن هذا كان درباً هاماً، ويبيّن أن الدّير كان يعتبر مقاماً مقدّسـاً وبناءً عليـه جـرى تيسـير الطريق أمام الحجـاج. وهناك ثـلاث نقاط تسـتدعي الاهتمام عند صعود الدّرب. فضريح الأسـد يحمل صورة أسد محفوراً على جانبي المدخل؛ وهذا لـم يكن قطعاً ضريحاً، وإنما يحتمل أنه كان غرفة طعام على الطراز الرّوماني (تحتوي علـى ثلاث أرائك ترصف بشـكل حدوة حصان). للولائم التي تقام بمناسـبة الوفيات وربما لمناسـبات أخرى أيضاً. وكانت هناك بئر صغيرة جميلة يتدلى فوقها السّـرخس البري فيغدو خلفية جميلة للمياه المتسـاقطة. والموقـع الثالث معتزل الزّاهد، ويتألف مـن حجرتين جـرى حفرهما كيفمـا اتفق في الصّخر؛ فهناك إلى اليسـار غرفة معيشـة الزّاهد، وإلى اليمين هناك كنيسـة صغيـرة وفي الجدار الخلفي محراب، وفوقه صليب وعلى الصّخرة فوق المعتزل ثلاثة صلبان ورموز مقدّسة.

وتظهـر الجـرة المحفورة (اللوحـة 26) على قمة الدّير بوضوح للناظر على مسـافة قبل أن يصل إلى المعبد؛ وهذا أمر مشـجع لمتسـلق الجبـل المتعب من حيث أنه يبيّن اقتراب المسير من نهايته. وتسلّق المكان يستغرق ممن يتمتع باللياقة من عشاق المشي قرابة نصف السّـاعة؛ أما من كان لا يحسـن المشي فقد يسـتغرق من الوقت ما طاب له لأن الأدلاّء يتمتعون بصبر عظيم.

وأمـا المعبـد (وهو أحـد المعالم الثلاثة الرّئيسـة فـي البتراء) فمحفـور في الصّخر الصّلد ويواجه هضبة ناحية الغرب (اللوحة 25). ويبيّن شـبهه بالخزنة أنه نسـخة عنها وإن كان أخشـن وأكثـر فظاظة مـن حيث الخطّ العـام والتفاصيل. و«الدّير» هو اسـمه الحديـث الذي يعرف به، ويبيّن أن المسـيحيين كانوا يسـتخدمونه إما داراً للعبادة وإما مأوى للرهبان أو الرّاهبات. ولكن ليس ثمّة تاريخ مدوّن له سواء قبل دخول المسيحية أو بعدها. والواقع أن تاريخ المعبد مُبهم. وليس هناك ما يدل على أولئك الذين أقاموه، وشأنه في هذا شأن دور العبادة كلها في البتراء.

أمـا تاريخ المعبد فيُسـتدل عليه من طـراز العمارة، وهو يعود إلـى عهد الإمبراطور

هادريـان؛ وبذلك يعـود بعهده إلى فترة انحطاط مجد البتراء؛ فـي حين أن الخزنة التي كان نسخة عنها تمثل ذروة الرّخاء الذي عرفته البتراء، ولكن ليس للخزنة ولا للدير أيّة إطلالة واسـعة. فالخزنة تواجه السِّيق حيث المشهد مغلق باسـتدارات الممرّ الضيق؛ أمـا الدّير فيقف على أحد جانبي المنخفض المسـتوي الضعيـف الذي تحيط به أرض مرتفعة تغلق المشـهد مـن كل جانب. وواضح جداً أن الأرض المسـتديرة حول الدّير لا بدّ كانت أرضاً مقدّسـة ذات يوم، والأراضي المقدّسـة موهوبة للإله والرّهبان الذين يعيشون فيها. وتبيّن الهضبة علامات تنم عن أنه جرت تسوية أرضها بشكل اصطناعي. وثمّـة إشـارة على أن أعداداً عظيمة مـن الناس لا بدّ قد اجتمعوا هنـا في فترة ما، وهي صفوف المقاعد حول المسـاحة التي جرت تسـويتها على النحو الذي شـكّل المسرح المكشوف.

إن داخـل المعبد، مثل داخل الخزنة، يتّسـم ببسـاطة تدعو لخيبـة الأمل. ويقع باب المدخـل على ارتفاع ثلاثين قدماً ويفضي إلى حجرة واسـعة مسـدودة دون نوافذ ولا تُنـار إلا عبـر الباب. ومقابل المدخل وفي الصّدارة محراب مقوسـن، يبلغ عمقه سـتة أقـدام، ولا بـدّ أنـه كان يحتوي ذات يـوم على تمثال الإلـه أو رمزه. وهنا يوجد رسـم صليـب متسـاوي الأبعـاد على الجـدار، وقد يكـون رمـزاً مسـيحياً وإن كان هذا ليس مؤكداً، لكن لا ريب بأنه السّبب في اكتسـاب المعبد الاسـم الحديث [الدّير]. وهناك كـوى فـي الخارج، كما في واجهات صخرية أخرى في البتراء لوضع التماثيل أو رموز الإله. ويلاحظ جي. إل. روبنسون G. L. Robinson اختفاء هذه التزيينات، ويتساءل: «كيف اختفت التماثيـل التي قيل إنها ملأت هـذه الكوى ذات يوم فـي صُروح البتراء العديدة وضاعت كلياً؟». ولكن إذا لم يكن هناك تماثيل وإنما محض كتل صخرية غير مزخرفة تمثل الإله ذي الشَّرى، فلن يكون هناك مجال للغز أو السّر. فمثل هذا الحجر غير الثابت يمكن إزاحته ونقله واسـتخدامه في أغراض دنيوية مثل بناء سـور أو جدار فيفقد سمته الخاصة ولا يعود يختلف عن أيّة كتلة أخرى كانت ترتبط به.

ويتّسم الدّير، كما الخزنة، بروعة لونه فيبدو أن بناة المعبدين قد تأثروا في اختيارهم

للموقعيـن بروعـة الصّخر كما بالموقـع ذاته. ولئن كان موقع الخزنة ذاته أشـد الاثنين رومانسـية فـإن للدير من الطـرف المقابل للهضبة حيث يقـوم تأثيراً فائقـاً. وقد تكون هندسـة عمارته ضعيفة إن اعتُبر نموذجاً للفن الرّوماني، لكنه يهيمن على موضعه على نحو ربما لن يتمكن عمل عمارته أفضل من بلوغه. إذ إن الخطوط المستقيمة الصّارمة ونقص أسباب التزيين تضفي عليه تأثيراً رائعاً من الصّلابة يتّسق والصّخرة الجبلية التي اقتُطع منها. ولا يملك المرء، حين ينظر إلى المشـهد، إلا أن يشـعر بأن الجبل ذاته قد يتهاوى قبل أن يلحق الدّمار بالمعبد.

4. إن القسـم الأوسط من الوادي أرضٌ جبليّة تقسمها الوديان التي حفرت لمياهها مجرى عميقاً بين التلال الصّغيرة. وهناك ما يسـمّيه هورسفيلدس «المحور المركزي» الذي يمتدّ ما بين الشرق والغرب مخترقاً وسط الدّائرة الكبيرة من القمم. وهذا يشكل الجزء الرّئيس للمدينة النبطيّة. ويقع على الجهة الجنوبية وادي موسى الذي كان يمثّل للبتـراء القديمـة ما يمثله نهر التّيمز للندن اليوم. وهناك على الجهة الشـمالية وادي أبو علقة الذي يعرف قبل أن يغادر التلال بوادي التركمانية.

وضمن الوادي يجري [نهر] وادي موسـى الذي يشـكل الطريق العام. وحين يترك السِّيق يعبر الوادي باتجاه الشمال غرب نحو سفح الحبس. وهنا يلتقي بوادي أبي علقة وثلاثة وديان أخرى. وتشـكل الأنهار الثلاثة وادي الصّياغ. وتلتقي بهذا المجرى على امتداده منذ أن يغادر عين موسـى بعد الجي حتى يبلغ وادي الصّيغ العديد من الوديان الصّغرى بحيث يتشـكل تيّار مياه قوي ويجري في فيض من هذه الأنهار الصّغرى التي تندفع بسرعة عند وادي الصّياغ.

وليس هناك من وسـيلة لحصر مياه الفيض كما كان الحال في أيام الأنباط؛ ولذلك تندفـع المياه عبـر الصّياغ وتتبدد فـي رمال وادي عَرَبَـة. وتغمر مياه الجـداول الوادي كلـه، بحيث يكاد المـرء ألا يصادف أرضاً جافة، والأرض القليلة الباقية صارت الأبنية تغطيها. وقد جرت الحسـابات لتفيد بأنّ سكان البتراء كانوا يبلغون ثلاثين ألف نسمة. وهذا عدد ما كان بوسـعه الاجتماع في الوادي، إلا أن قيام ضواحي المدرَس والصّبرة

والبارد (اللوحة 27) والبيضاء إلى جانب عدد لا يحصى من الوديان الصّغيرة وما فيها من الكهوف، أدّت إلى التخفيف من حدّة مشكلة الإسكان.

لتكوين فكرة عن البلدة القديمة، علينا أن نتبع وادي موسى في جريانه عبر الوادي، وكانت ضفتا النهر ذات يوم مرفوعتين ومدعمتين بالحجارة - وما زالت آثار السّد ظاهرة للعيان حتى اليوم. وفوق طرفي السّد هناك طريق مبلّط، ويبدو أن الطريق الذي في الجنوب هو الشارع الرّئيس في المدينة. وكان الطرف الجنوبي مشغولاً كله بالأبنية العامة، ولبوابة المدخل [بوابة النصر] ثلاثة مداخل وتفضي إلى قصر أو معبد، والمعبد أرجح، لأن ثمّة رُكاماً على مسافة قليلة، وهي بقايا ما كان ذات يوم بناءً واسعاً مزيناً بالأعمدة، وإذن يكاد يكون مؤكداً أنه آثار معبد. ويبدو أنه كان على الجانب الجنوبي من النهر فُسحة واسعة من الأرض كانت بستاناً يطل على الوادي. ولا بدّ أن هذه كانت تخص المعبد الوحيد الذي بقي صامداً، وهذا عبارة عن مبنى مربع الشكل واسع له جدران ضخمة من الحجر، (اللوحة 28).

والتاريخ مدوّن بالأرقام الرّومانية، وهذا القصر وإن لم يتسم بجمال العمارة، فإنه يتمتع بعدّة نقاط تثير الاهتمام أبرزها اسمه العصري: قصر بنت فرعون. فمن شأن العرب المُحدثين أن يطلقوا هذا النوع من الأسماء على أي بناء يبدو لهم غريباً أو لا يملكون له تفسيراً، فاسم فرعون عندهم يقابل اسم العفريت أو الشخص البارع جداً لدينا. وعلى ذلك ينبغي أن تسمّى الخزنة «خزنة فرعون» واستخدام كلمة فرعون لا تعني أن المكان كان ملكاً للمصريين؛ بل تعني أن فرعون ساحر عظيم، وأقوى رجل على ظهر الأرض (ربما باستثناء [النبي] سليمان)، وهو لذلك يقدر على بناء وإشادة أي نوع من الصّروح التي تتجاوز مقدرة أهل المنطقة، والعالم عموماً طبعاً.

ويبدو أن فكرة امتلاك فرعون قوى سِحرية خارقة مردّها التباسٌ في عقول العرب عن التنازع الذي دار أمام حاكم مصر بين موسى والسّحرة المصريين. ولما كان موسى قد احتلّ جانباً واسعاً من مصطلحات البتراء وأساطيرها فلا عجب، إذاً، أن نجد فرعوناً هناك أيضاً. والفارق بين سِحر موسى وذاك الذي اختصّ به فرعون أن موسى كما يبدو

كان يملك السّيطرة على قوى طبيعية، بينما كانت سلطة فرعون على صروح فذة أقامتها قوى إنسانية. أمّا نسبة معبد إلى ابنة فرعون فأمرٌ يدعو للدّهشة، إلى أن يعلم المرء أن الإلهة التي بُني المعبد تمجيداً لها هي التي يدعوها الرّومان ڤينوس Venus، وإن كانت تُعرف عند الأنباط باسم «العُزّى». فنخلص إلى أن ابنة فرعون تجسيدٌ للإلهة.

ولقد وجد موزيل إبّان زيارته البتراء رواية شعبية تدور في تلك المنطقة حول ابنة فرعون وتحفظ بعض الملامح القديمة. وتقول الرّواية إنه في سابق العصر والأوان كانت أميرةٌ تقيم في قصر البنت دأبت على الشكوى من انقطاع الماء من النبع، فأعلنت أنها سوف تقبل بالزواج بالرجل الذي يأتي بالماء إلى قصرها. فجاء رجل وأعلن أنه بعون من الرّجال والجمال سوف يأتي بالماء من «عين براك». ولكن كان هناك رجل آخر تقدم وقال: «لسوف آتيكم بالماء من عين هارون، بعون الله وهمّة الرّجال والجمال». ويبدو أنه يراد بالقصة أن تروي حكاية نظام توزيع الماء الذي كان على قدر عظيم من الكفاية، ولكن ما لم يتمّ التنقيب في قصر البنت فلن يتيسّر معرفة إن كان الماء يصل إلى القصر ذاته.

وهناك موقعان آخران ينسبان إلى فرعون وابنته. وأحد الموقعين في الوعيرة حيث توجد قناة عالية لجرّ الماء على امتداد واد ضيق؛ وتُعرف باسم «قنطرة بنت فرعون». أما الموقع الآخر فيمتدّ من الشرق ويُعرف باسم بساتين فرعون.

وهناك إلى جنوب شرق المعبد ساحة واسعة مربّعة الشكل مسوّرة احتُفرت في الصّخر، يكسوها العشب لدرجة يصعب معها معرفة أنها كانت سوق البتراء الكبيرة. وإلى شمال غربي المعبد هناك مساحة مستوية إلى حدّ ما يقوم عليها المخيّم – الفندق، مباشرة أسفل جبل الحبس.

وعلى الضفة اليمنى (الشمالية) لوادي موسى هناك شاهدٌ آخر على وجود سدّ لضبط مياه الوادي كي لا تتدفق خارج مجراها وتفيض في المدينة. وهنا وهناك على طول السّد بقايا حجارة الرّصف ويبدو أن المياه حملتها من السّيق إلى وادي الصّياغ واخترقت بها البلدة. وأحجار الرّصف هذه عريضة وحسنة الوضع تبيّن جودة الطريق

كمـا فـي العديد من المـدن الحديثة. أما التل المنخفض نوعاً ما الـذي يرتفع من ناحية شـمال الوادي ويشـكّل وسـط وادي البتراء، فيبـدو أنه كان الجزء الرّئيـس من المدينة حيـث تقوم البيوت والأبنية العامة وتتناثر جذوع وقواعد الأعمدة على الأرض وأعلى نقطة هي المعلاة العظمى المنحوتة في الصّخر. ولا ريب بأن العديد من الكهوف على هذا التل كان قطعاً مرابع للسكن، بفناءاتها وغرفها التي بُنيت في المقدمة.

لقد كانت البتراء ذات يوم مدينة حصينة، كما يسـتدل من بقايا سورين ممّا عُثر عليه فـي عمليـات التنقيب. وكان أقدم هذين السّـورين قد أحاط بالتل الأوسـط، ماراً على طول الجانب الشمالي عبر الطرف الشرقي، ثم انعطف جنوباً وعبر وادي المتاهة حتى سفح جبل الخبثة Al Khubtha الذي يتسم بشدّة الانحدار ويشكل دفاعاً طبيعياً منيعاً. وليس هناك بعدئذ أي أثر للسـور حتى نقطة غرب المسـرح؛ ثم تظهر الآثار من جديد وتسـتمرّ حتى سـفح جبل أم البيارة الضخم. أما السّـور الثاني، الذي يوحي مظهره بأنه بُني على عجل من أيّة مادة كانت متوفرة، فيحيط بمساحة أصغر كثيراً من سابقه. ويبدأ مـن وادي أبـو علقـة، إنما من نقطة بعيدة غرب أقصى شـرق السّـور الأول؛ ثم يخترق وادي المتاهة إلى جبل الخبثة، ومن بعيد ضمن السّور الأول. ويضيع هذا الأثر عندئذ ويسـتأنف من جديد شمال شرق السّـور الأول حتى يلتقيا أخيراً بالقرب من أم البيارة. وهكذا يضمّ السّوران كلاهما القسم الرّئيس من المدينة والمباني الرّئيسة.

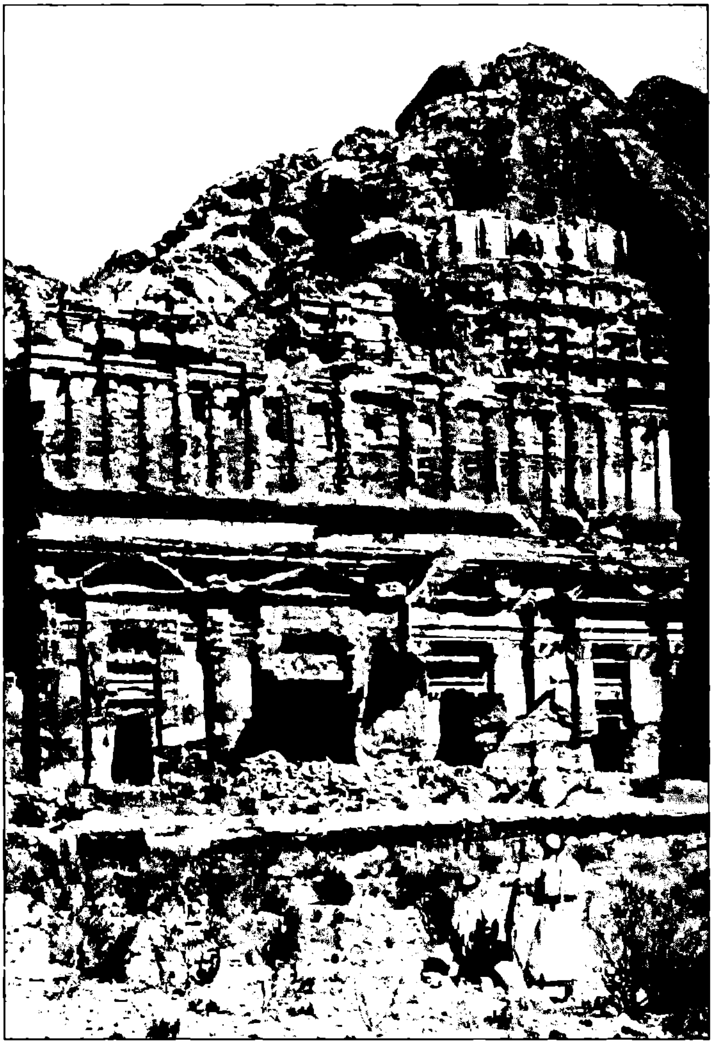
وينتصب داخل الأسـوار إنما على مرتفع ومسـافة قليلة جنوب وادي موسـى معبدٌ هـام ذو أعمـدة عديدة. وهذه الأعمدة باسـتثناء عمـود واحد، هـي الآن بكامل قوامها سرميّة على الأرض، وجذوعها تنتشر واحداً تلو الآخر تماماً على نحو ما تهاوت. وهي مصطفـة بأناقـة حتى ليكاد يحسـب المرء أن بوسـعه أن يضع يده تحـت أقصى الجذع ويدفع العمود كله إلى حيث كان موضعه. وليس هناك من صعوبة في اسـتعادة المعبد الوضع الذي كان عليه إن توفرت الأموال اللازمة لهذا الغرض؛ فالأعمدة والسّـور في الموضع الذي سقطت عنده وتبدو كأنما دفعت بها يد عملاق. وواضح أن سبب الدّمار الـذي لحـق بها عوامل طبيعية، ولعلها كانت هزة أرضيـة. أما العمود الذي ظل منتصباً

ففقـد تاجه والآن يقف وحيداً مخذولاً بين رفاقـه المنبطحين على الأرض. وهناك أثر واضـح للعيان على جانب التل فوق الـوادي، وبما أنه لا يُعرف المصدر الذي قدم منه فإن العرب، طبعاً، ينسـبونه إلى فرعون ويشـيرون إليه باسم «عمود فرعون». أما نسبته الدّينية فمجهولة؛ ومع ذلك فقد يكون هذا معبداً لذي الشَّرى ذاته.

وهنـاك فـي كل بقعة من التـلال، وخاصة فـي القمم أماكـن للعبادة مكرّسـة لأحد الآلهـة أو أكثـر مـن إله واحـد. ولعل مذبـح (العطـوف) والدّير يختصان فـي الأغلب بالاحتفـالات الكبـرى التي يؤمهـا جمع كبير مـن المتديّنين. فقد كان هـذان المعبدان الأكبـر بيـن المعليـات، إلا أن المـرء يصادف معابـدَ أصغر حجماً على قمـة «المحور المركـزي» للمدينـة وقمة التل المشـرف على معبد عمود فرعـون. كما توجد مزارات أصغر في أماكن توحي بأن الأسـر الثرية تختصّ بها لممارسـة طقوسـها الدّينية. ولكن هـذه المعابد الكبيرة والصّغيرة على حدّ سـواء كانت تقام على مخطط واحد، بما يبيّن تماثل الطقوس في كل الأحوال.

هنـاك بضعة بقايا آثار تُعـزى عموماً إلى الصّليبيين يصادفها المرء في سلسـلة تلال البتـراء. فالصليبيون شـأنهم شـأن الرّومان فرضـوا هيمنتهم على منطقة شـرق الأردن وخلّفوا شـواهد كثيرة على وجودهم. ومع أنه ليس ثمّة شـواهد ممتازة في البتراء مثل قلعتي الكَرَك والشَّوبَك، فإن الخرائب تُظهر على الأقل أن سطوة الفرنجة امتدت بعيداً في الجنوب، فهناك عدة تحصينات ربما كانت تعرف ككتلة باسـم «سـلَع»، وهو اسـم مألوف إذ إنه الاسم العبري للبتراء[1]. وكان حصن سلَع آخر الحصون في شرق الأردن الذي يستسلم للقائد المسلم العظيم صلاح الدّين

(1) ولماذا العبري؟ في الكنعانيّة والنبطيّة أيضاً سلع تعني: الصّخرة، وهو ما تُرجم باليونانيّة واللاتينيّة إلى پترا، وعُرّب على نحو مغلوط تماماً إلى البتراء.



القصر الكورنثي

وكان الحصن الرّئيس يقع أعلى جبل العطوف. وما زال باقياً إلى اليوم جزءٌ من السّور والأبراج وخزان المياه العميق، المنحوت في الصّخر. وكان هذا الحصن يعتبر دوماً قلعة صليبية، وإن لم يكن هناك دليلٌ حقيقي يشهد على صحّة هذا الزّعم. فقد يكون حصناً من حصون الأنباط، إذ عُرفت البتراء في عهد الأنباط بأنها مدينة منيعة بينما لم تكن بالنسبة للصليبيين إلا مخفراً متقدماً. والحفريات وحدها كفيلة بحسم موضوع تاريخ المكان. وكل ما يمكن أن يقال الآن إن حوض الماء يعود إلى عهد متأخر عن المذبح.

ثمّة مبانٍ عند قمة أم البيارة، ولعلها كانت أو لم تكن موجودة زمن الصّليبيين. وقد أمكن التغلب على صعوبة الحصول على الماء في أعلى جبل لا يمكن اجتيازه بحفر الصّهاريج في الصّخر. وتبدو هذه الصّهاريج بشكل ناقوس، وفي أعلاها ثمّة فتحة صغيرة نسبياً أو فوهة؛ وينفتح كتف الجرس على كل جانب تحت الفوهة. وهذه الصّهاريج مسدودة تماماً الآن بالحجارة وما شابه من الأنقاض بحيث يستحيل مع هذا حتى تقدير حجم الصّهريج وطاقته. وتشير المهارة في قطع الصّخر والقدرة في تدبير توزيع المياه في ظروف صعبة إلى الأنباط باعتبارهم صناع الصّهاريج وأنهم افتراضاً بُناة تلك الأبنية. ولكن نكرّر فنقول لا شيء سوى التنقيبات يمكن أن يأتينا بأي تاريخ دقيق، مع أن تنظيف الصّهاريج مهمّة شاقة.

وهناك حصنٌ لا ريب بأنه من الفترة الصّليبية عند قمة جبل الحبس، ويطلق عليه عدد من الرّحالة اسم تل الأكروپوليس وبقاياه ما تزال في حالة جيدة، وهي تشمل قوساً يعلو الوادي الضيق شديد الانحدار. ولعل هذه القلعة كانت في الأرجح الجرء الأساسي من التحصينات؛ ولا بدّ أنها حصينة منيعة، سوى أنها ربما ضعُفت بتأثير الحصار نظراً لعدم وجود الينابيع وصهاريج الماء فوق ذلك الجبل. ذلك أن وجود جيش محاصر وممسك بالوادي وينابيع المياه يملك أن يجبر القوات المحاصرة على الاستسلام.

وهناك في الوعيرة على أحد التلال الشرقية آثار قلعة صليبية ربما أقيمت لحراسة مدخل الوادي.

كانـت الهزيمة التي نزلت بالصليبيين وانتصار المسـلمين الضربة القاصمة للبتراء. فلقـد ظلـت تصمد في مواجهة قدرها وهـي المركز الصّغير المتقـدّم منذ أفولها تحت ضغـط الرّومان، إنما كانـت النهاية حينما قام صلاح الدّين بطـرد الفرنجة منها. فمهما كان شـأن الإقطاعييـن الصّليبييـن فممّـا يذكر لهم أنهـم تركوا طرق الاتصـال مفتوحة بيـن حصونهـم والبلدان الأخرى، ولكن حين فصمت هذه العـروة – زالت البتراء عن الخريطة – كما يقال بالعامية الدّارجة – مجازاً وفعلاً.

قـد يتوقـع المرء قـدراً معيناً مـن المعلومات في تاريـخ البتراء بعد سـقوطها في يد المسـلمين، يمكن أن يكون الكتاب والمؤرخون المسـلمين الأوائل قد دوّنوه. ولكن المؤرخين الوحيدين اللذين ذكرا المكان هما القزويني (القرن الثالث عشر وابن إياس (الخامس عشـر). ويذكر القزويني رواية موت (النبي) موسـى ودفنه في وادي موسى، بيمـا يكتفـي ابن إيـاس بتكرار القصـة، والأرجح أنـه أخذها عن القزوينـي. ولكن من الجدير بالاهتمام، مع ذلك، أنّ زعماء بني إسـرائيل الثلاثة، موسـى وهارون ومريم – على ما يُعتقد – قد ماتوا ودفنوا في البتراء أو قريباً منها.

وكان داوتـي أحـد أوائل الذين لفتوا انتباه العلماء الأوروبييـن إلى النقوش النبطيّة. فقد نسـخ عـدداً كبيراً منها في مدائـن صالح، إلا أن الوقت الذي قضـاه في البتراء كان أقصـر مـن أن يتيح له نسـخ أكثر مـن بضعة نقوش منهـا. ولكن النقـوش التي وُجدت فـي مدائـن صالح أكثر أهمية مـن الناحية التاريخيـة من تلك التي وُجـدت في البتراء، والسّـبب في ذلك ليس معروفاً؛ ولسـوف يظل مجهولاً حتى يتم التنقيب في الموقعين على الوجه الأكمل.

تختلف الأبجدية النبطيّة عن الآرامية والعبريّة من حيث أنها أشدّ انحناء وتجري مع بعضها، سـوى أنها واضحة كفاية لتتحول بسهولة إلى عبرية. وتعتبر اللغة عندئذ لهجة آراميـة يخالطها قـدرٌ من العربية. ولقد كانت الآرامية اللغة السّـائدة في فلسـطين زمن المسيح، لكن لا يُعرف عن يقين إن كان الأنباط يتحدّثون بها فعلاً، أو أنها كانت اللغة الفصحـى التي ينسـخ بها الكتّاب المدونات، وقد ظلت هـذه اللغة حتى اليوم مجهولة

ولـم تُعرف إلا من النقوش التي على الأحجار. ولـم تظهر كتابات على قطع من الآنية الخزفيـة أو البردي أو الورق أو الرّق لنعلم منهـا الكتابة التي كان الأنباط يأخذون بها، ذلـك أنه لا يمكن للمواد العضوية أن تسـلم فترة من الزّمن فـي تلك البيئة الرّطبة، إنما يمكـن أن نتوقع العثور على قطع من الخـزف التي تحمل هذه النقوش، كما حدث في مصر وتل دوير في فلسـطين. كذلك من شـأن حسـابات التجار والمراسلات التجارية وإيصالات الضرائب، إن وجدت، أن تلقي الكثير من الضوء على حياة سـكان البتراء. وإذا لـم يتـم العثـور علـى هذه الأدلـة حتى الآن، فـإنّ ذلك ليس سـبباً للاعتقـاد بعدم وجودها؛ ولكن العثور عليها لن يكون إلا بتأثير من المصادفة.

تتألـف معظـم النقوش من نـذور، فهي أحيانـاً تقتصر على ذكر اسـم صاحب النذر وحسـب، وأحيانـاً تحتـوي على الاسـم وبضعة كلمـات أخرى. ومن ذلـك «تباركت يـا تيمو. سـلام» أو»ذكرى طيبة لحورو. سـلام». ويصـادف المرء هـذه النقوش على الصّخـور في مدخل الوادي، وكأنما أصحابها يريدون الشـكر لسـلامتهم بعد الرّحلة، أو يسـألون حمايـة الرّب حين يغادرون. وهناك ابتهالات يسـأل الكاتـب فيها الرّب أن يوليـه اهتمامه، إما شـكراً لما حصل مـن قبل أو طلباً للرعاية، إما مـن حيث الصّحة أو ليزيده ثراءً.

تتسـم النقوش القصيـرة في البتراء عادة بإتبـاع صيغة موصوفة. ذلـك أنهم كثيراً ما يفتتحون بعبارة «لحياة ....» ثم يتبعون بذكر اسـم الملك والشـخص صاحب النقش. والكثيـر مـن الدّعاء الموجه إلـى الإله، وهو عادة ذو الشَّـرى، والتالي مثال على ذلك: «سـلام لخير عبد مليكو بن عبيدو من ذي الشَّـرى والآلهة كلها. سـلام على القارئ». وفي هذه العبارات تذكرة بآخر الكلمات التي وردت في سـفر نحميا: «فاذكرني اللهم بالخير».

ويصـادف المـرء أحياناً أن يطول النقش، بل وتكون لـه كذلك دلالة تاريخية: «هذه تذكـرة بالعُزّى وربّ البيت وهب اللات رئيـس القافلة ابن زيدون الذي صنعه». «هذه القاعات والصّهريج من صنع اسـلاح ابن اسلاح بن اسلاح لذي الشَّرى إله منباطو من

أجل حياة عبادة ملك الأنباط ابن حارثة في السّنة الأولى». «هذا تمثال عبادة المقدّس الذي صنعه حنينو بن حوتاشو بن فطمو... طلوق بن وِذره إله حوتاشو الذي هو على تل فطمو، جدهم(؟)؛ من أجل حياة حارثة ملك الأنباط محبّ شعبه وشَقيلَت أخته ملكة الأنباط، ومالك وعُبادة وربّ إيل وفص إيل وسعدت وهاجر أولاده، وحارثة بن هاجر... في العام 29 لحارثة ملك الأنباط. سلام له». وهناك على المحراب بالقرب من الدّير، نقش في ثلاثة سطور: «ليذكر عبيدو بن زكا ورفاقه في عيد القربان المقدّم للإله عُبادة». والكلمة المستخدمة في القول «عيد القربان» تعني نوعاً من الاحتفال الجنسي التي كان سكان فلسطين يحتفلون به في عيد البعل الذي كان الأنبياء ينكرونه أشد نكير.



ضريح القصر



كهف، ويظهر طوق من الصّخور

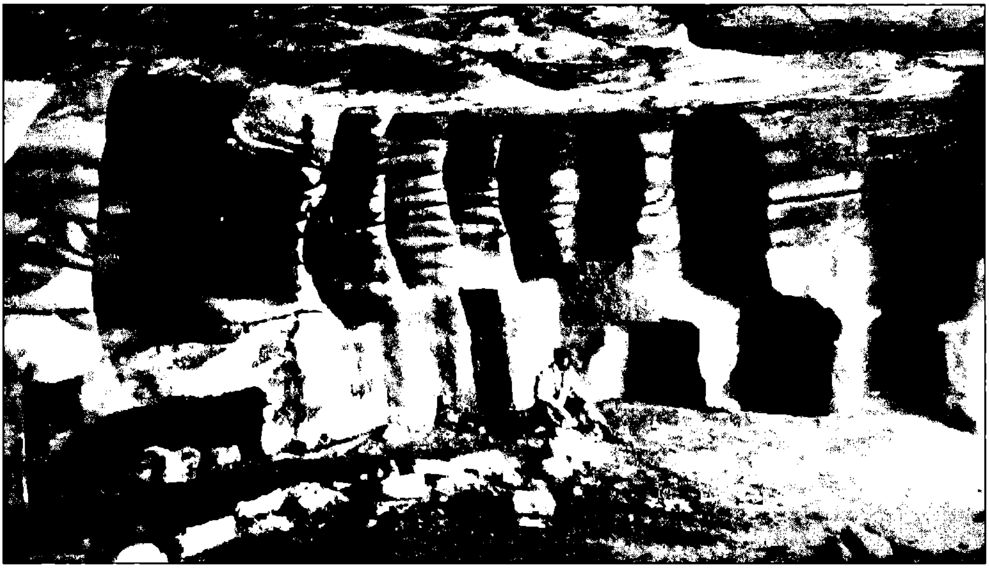
وثمّـة نقش مطـول موجود علـى ضريح فـي وادي التركمانية. ولكـن النقش يغفل لسـوء الحظ اسـم صاحبه، وما زالـت مكانة عائلـة المتوفي بين الأنبـاط مجهولة ولم تحسـم. وهـا أنـا ذي اقتبس الترجمة عن الأب جـي. إيه. كـوك G. A. Cooke: «هذه المقبرة والقبر الكبير والضريحان الكبير والصّغير في الدّاخل مقبرتان جُعل لكل منهما محرابـان في الجـدار قبالتهما والصّفوف (؟) والبيوت فـي الدّاخل والحدائق والتلال (؟) وباقي المُلك كله في هذه الأماكن ملك ذي الشَّـرى ربّ مولانا وعرشـه المقدّس وقفٌ منذور وغير منقوص، كما هو مثبت في صكوك النذور حسـب محتواها، وسـائر الآلهة، التي سوف تُحترم دون أن ينال منها تغيير وتنفذ كما ورد في الصّكوك المتصلة بالنذور. كذلك لن ينقص أو يُسحب منها نص، ولا يُدفن أي إنسان في هذا الضريح إلا من كان لديه عقد مدوّن يجيز له أن يُدفَن (بشكل محدّد صريح) في النصوص المتعلقة بالقدسيات إلى الأبد».

وإلـى جانب النقوش النبطيّة، ثمّة نقـوش بالإغريقية واللاتينية والعربية. كذلك ثمّة نـص قصيـر بالإغريقية، في جدار السِّيق الشـمالي، على محراب كان يضـمّ ذات يوم تمثال إحدى الآلهات، ويفيد بالتالي: «لقد كرّس (هذا المكان) سابينوس ألكسندروس پانيغيريارخ (رئيس الاحتفال) من المبجل أدراينيس» وهناك نقش آخر بالإغريقية، في السِّـيق أيضاً، يبيّن كلمة واحدة فقط هي: پانيغيريارخيس *Panegyriarches*. وأطوال نقـش موجـود في ضريح الجرّة وسـجلات تحويل ذلك المعلم إلى كنيسـة مسـيحية؛ وهـذه مطليـة بالأحمر على ظهر حائـط الكهف. ويصـادف هذا التاريخ وفـق تقويمنا العام 44 ميلادية. وكان الأسـقف يومئذ ياسـون Jason، وهو اللفظ الإغريقي المعادل لـ «يسوع» أو يهوشُوَع.

وأطول نقش لاتيني يوجد على قبر أحد كبار المسؤولين الرّومان، ويبدو أن ابنه كان منشـئ الضريح، وإن كان هذا اسـتنتاجاً ولم يرد به ذكر صريح. وأنا مدينة للپروفسـور إيليـس مينـز بهـذه الترجمـة: (1) إلى لوسـيوس... نينيـوس ابن لوسـيوس پاپيريوس سيكسـتوس فلورنتينوس، تريوموڤير لصكّ الذهب والفضة، المحكمة العسكرية (2)

مـن الفيلـق الأول مينرڤيا، مفتش مقاطعة آخيا، محكمة العامة، مندوب الفيلق التاسـع في إسـپانيا، نائب القنصل في (3) مقاطعة (غاليا) ناربونيسـيس، موفد أوغسطس، في بلاد العرب، والدي الأجلّ، وفق وصيّته».

وهنـاك نقش ينمّ عن شـعور مفعم بالإنسـانية نطالعـه على مذبح صغيـر، على بعد خمسة عشر ميلاً شمال البتراء. ولكن اسم المتبرّع، لسوء الحظ، يكاد يكون مطموساً. وهـذا نصـه: «[مقدّم] إلى الآلهة التي أعادته من أرض غريبـة إلى البتراء.... يرفع إليها ميوس وقومه الشكر».



كهف في السِّيق الخارجي، وطوق من الصّخور

الفصل الثالث

أدوم

يـرد أقدم ذكر تاريخي لأدوم، كمـا يمكن للمرء أن يتوقع، من مصر التي كان يطيب للقـوم فيها تدوين كل واقعة جرت في زمانهم. وكان ديدن المصريين انشـغالهم البالغ بتسـجيل الوقائـع الصّغيرة، ولكن يذكـر أن للتفاصيل أحياناً نفعـاً، خاصة حينما تدوم آلاف السّنين. وهكذا يذكر أحد الموظفين في المناطق الحدودية في عهد مرنپتاح أحد ملوك فراعنة السّـلالة التاسـعة عشـرة (قرابة 1214– 1234 ق.م) أن قبيلة من البدو في أدوم دخلت مصر: «لقد فرغنا من إدخال قبائل الشاسو الأدومية عبر حصن مرنپتاح – حوتفيرما إلى بحيرات باطوم لرعايتهم وقطعانهم في ملك الفرعون».

ويبرز الشاسـو، وهو الاسـم الذي أطلقه المصريون على البدو، من جديد في عداد الأقوام التي تغلب عليها رمسـيس الثالـث (1202 – 1170 ق.م) في مجموعة هاريس الكبرى من أوراق البردي. ويشـار إلى هؤلاء البدو بشـعب سـعير، وهو الاسـم الذي يُطلق عليهم ويرد في عدة أسفار من العهد القديم. فيذكر رمسيس الثالث: «لقد قضيت على شـعب سـعير من قبائل الشاسـو. واسـتوليت مـن خيامهم وممتلكاتهـم وقطعان ماشـيتهم، على ما لا عدّ له ولا حصر. وجرى سـوقهم أسـرى مقيديـن، جزية لمصر. فقدّمتهم عبيداً للآلهة في بيوتها».

ونطالع رواية هذه الحملة منقوشة على جدران معبد رمسيس الثالث في مدينة حابو، حيـث يصوَّر زعيم الشاسـو وسـتة من صغار الملـوك الآخرين يجثو فـي وضع مزعج ويـداه مقيدتـان خلفه. وليس هناك سـبيل للخطأ فـي تعيين هذا الشـخص، فهو «زعيم

الشاسو الأعداء». وجدير بالملاحظة أنه يدعى «زعيماً» وليس «ملكاً».

وتلـك أقدم الوقائع المدونـة، إلا أن الكتاب المقدّس حفظ بعض الرّوايات الأولى التـي تبيّـن أن الأرض تدعى سـعير أو أدوم، وكانـت معروفة جداً ومسـكونة منذ أقدم العصور.

لقد ضاع تاريخ البتراء ذاتها في العصور القديمة كما ضاع تاريخ تلك المناطق كلها التي لم يكن لأهلها غير نصيب ضئيل من الحضارة ولا معرفة لهم بالكتابة. وقد وردت أقدم رواية مدونة في الكتاب المقدّس (سفر العدد، 24: 21) في نبوءة بلعام: «ثم رأى القينيين فضرب مثله وقال مسـكنك متين، اجعل في الصّخر وكرك». ونجد هنا تلاعباً بالكلمات يسـتهوي كتّاب العبرية أيما اسـتهواء فكلمة قن تعنـي العش، وبذلك يكون التلاعب بكلمة القينيين على سبيل التورية. وإذا كان النبي بلعام بن بعور هو كما يعتقد الكثيـرون، بالع ذاته ابـن بعور وملك أدوم أيضاً فلا عجـب إن كان عارفاً بالموقع لأنه كان جزءاً من مملكته.

وقـد تحدّدت الصّخرة (سـلع بالعبرية) على نحو جازم بكتلـة أم البيارة الضخمة، وهي المعلـم البـارز في البتراء. أمّـا أنّ القينيين كانوا أصحاب البتراء ففي ذلك إشـارة إلى تاريخ أقدم لاحتلال ذلك الوادي. فقد كان القينيون قبيلة من سلالة قايين (قابيل بالعربيّة)، وقابيل وفـق الرّواية التـي أوردهـا يوسـيفوس (Josephus, Antiquities i, 2,3) مخترع الأوزان والمقاييس. «وعاشت (البشرية) طاهرة وكريمة فيما هي لا تعرف شيئاً عن مثل هذه الفنون، وهو الذي غيّر العالم وأشاع فيه الحرف الدّالة على البراعة. وكان أول من وضع حدود كل أرض؛ وبنى مدينة وأقام تحصيناتها بالأسـوار». وتخبرنا الرّوايات في الكتاب المقدّس أن توبال قايين، وأخاه غير الشـقيق يوبال كلاهما من سـلالة قايين. «ويوبال هو أبو كل عازف بالكنارة والمزمار. وتوبال قايين هو أول صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية». [سفر التكوين 4: 21، 22] وبذلك فإن القينيين حدّادون وموسيقيّون.

تبيـن هذه الرّوايات المبكرة أن فلسـطين البكر كانت تتطلـع إلى القينيين ليأتوا إليها بفنـون الحيـاة. ولكـن بما أن قبائـل جنوب شـرقي الأردن لم يكـن يبـدو أن لديها أيّة

حضـارة خاصة بها فـي ذلك الوقت المبكر جـداً من حياتها، فمـن المرجح أن أولئك القـوم كانوا مجرّد ناقلين لحضـارة وافدة من بلاد العرب والهنـد بالقوافل أو محمولة بالسّـفن. ومثل هذه التجارة لا بدّ من أن تنتقل بطريقي التجارة الرّئيسـين: شـمالاً عبر أدوم ومؤاب وعمّون إلى دمشـق، أو غرباً عبر أدوم وفلسـطين [البتراء وبئر سـبع] إلى غزّة فالبحر الأبيض المتوسط.

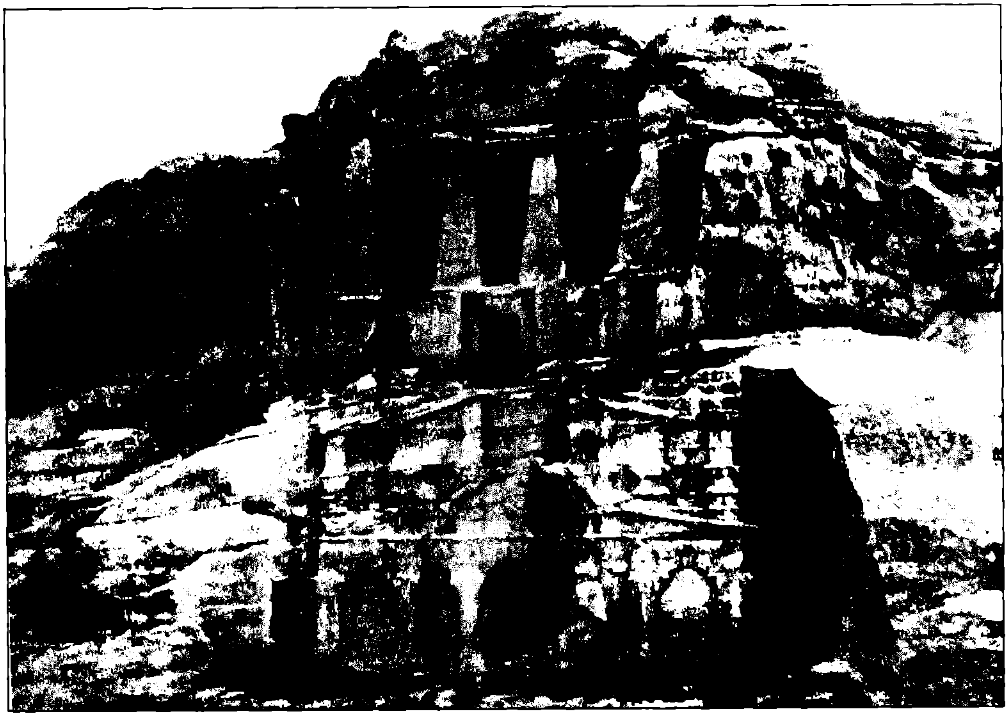
كذلـك يعرض يوسـيفوس الرّأي أن العمالقة الذين قاتلهم بنو إسـرائيل بعد ضرب الصّخـرة كانوا سـكان جبع والبتراء وهم «أكثر شـعوب بلاد العـرب ولعاً بالحروب». وهو يؤكد من جديد تفوق حضارة العدو على العبريين، إذ يقول «نالوا ثروات ضخمة؛ وقد ترك الأعداء في خيامهم ثروات ضخمة؛ إذ وجدت في معسـكرهم مقادير عظيمة مـن الذهب والفضة؛ كما وجدت لديهم أوانٍ نحاسـية تسـتخدمها أسـرهم؛ وكثير من الأدوات المزخرفـة، وبعضها مما يحيكه القوم، أو ما هو موشـى من الدّروع، وأشـياء أخرى تفيد منها الأسر أو يفرشون بها حجراتهم؛ كذلك نال هؤلاء القوم نصيب الأسد من ماشيتهم وما تفيد منه معسكرات جماعتهم حينما يتنقلون من مكان إلى آخر».

ولمّا لم يكتشـف أي أثر مـن آثار تلك الحالة الرّفيعة مـن الحضارة والأدوات التي تشـير إليها، في أعمـال التنقيب في البتـراء حتى من تاريخ متأخر، فـإن المرء لا يملك إلا الاسـتنتاج بأن سـكان البتراء سواء كانوا من القينيين أو العمالقة أو الأنباط، هم قوم يمتهنون التجارة وأصحاب قوافل يحملون معهم بضائع من بلاد العرب والهند وربما الصّين إلى الغرب فيصيبون بذلك ثراء، إلا أنهم ليسوا صناعاً أو حرفيين.

كان سـكان أدوم، وبالتالي سـكان البتـراء، الأوائل المتحدرون من نسـل قايين من العامليـن فـي الأرض على العكس مـن أبناء هابيل الذيـن يعملون بالرعـي، أي القوم الذيـن يدعـون أنفسـهم اليوم البـدو. ولعل بلعـام كان يخطـر بباله وهو يدلـي بنبوءته الحافلة بالتورية صورة وادي البتراء الصّخرية القاسـية المسـتديرة، إن قليلاً وإن كثيراً، وكأنما هو نسرٌ يجول بحدقتيه من عشّه في أعلى الجبال، بعيداً، نائياً، وبالتالي آمناً من الأعداء، بقعة يمكن لقبيلة حاقت بها الهزيمة أن تلجأ إليها وتختفي في كهوفها التي لا

عدّ لها ولا حصر «حتى يكون الطغيان قد زال» وهنا يمكن للنساء والأطفال أن يمكثوا مع ماشـيتهم آمنين مطمئنين، بينما يمضـي الرّجال في غزو أراضي الكنعانيين الخصبة في وادي العَرَبَة الفسيح.

يظهر تاريخ البتراء كله تغيّراً فريداً غريباً في رتابته. ذلك أن كل قوم كانت لهم عليها السّيادة إنما أتوا من بلاد العرب وأزاحوا عنها أصحابها، ثم احتلوها ردحاً من الزّمن، ثم ردّهم عنها آخرون من سكان الصّحراء الجدد، وأشد بأساً من سكانها في ذلك الحين. وتذكـر سـجلات التاريخ الأولـى أن القينييـن احتلوها ثم أعقبهـم الحوريون الذين لا يُعرف عنهم إلا القليل مما ورد في (سفر التثنية، 2: 21 و22)، »وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقييـن، فأهلكهم الرّب من بين أيديهم فطردوهم وأقاموا مكانهم. كمـا صنع لبني عيسـو المقيمين بسـعير إذ أهلـك الحوريين من بيـن أيديهم فطردوهم وأقامـوا بينهـم إلى اليوم». ولم يبق من الحوريين اليوم حتى الاسـم؛ بل وتحوّل اسـم جبل حور فصار جبل هارون. وبقدر ما يسعف الدّليل نقول لم يعد باقياً من الحوريين أثر، أو لا شيء يمكن نسبته إلى أولئك القوم، في وادي البتراء والتلال من حولها.



ضريح المسلّة

إن الحوريين في الوقت الحاضر شعب يكتنفه الغموض؛ فلقد ضاع حتى أصل الاسم. ولكن جاء ذكرهم في الفصل السّادس والثلاثين من سفر التكوين حيث يبين تاريخ سلالتهم أنهم سابقون على أبناء عيسو: «هؤلاء بنو سعير الحوري سكان الأرض لوطان وشوبال وصبعون وعانة... هؤلاء زعماء الحوريين بني سعير في أرض أدوم.. وهذان ابنا صبعون آية وعانة؛ ... وهذا ابن عانة ويشون. وبنت عانة أهليبامة» [سفر التكوين، 36: 20- 25]

وفي المقطع الثاني يقال إن إحدى زوجات عيسو الثلاث كانت «أهليبامة بنت عانه وصبعون». وهكذا يجري الاستنتاج بأنها بنت حفيد سعير الحوري، ويظهر أنه لا بدّ كانت هناك مصاهرة بين قبيلة عيسو والقبيلة المالكة حالما دخلوا الأرض. وهذا ما يشير إلى أن الغزو كان هادئاً، وهو حدثٌ مستغرب وقوعه مع قوم محاربين مثل الأدوميين.

تتعدد المعاني لكلمة حوري. فيذهب بعض الثقاة إلى أن الكلمة مشتقة من اسم جبل حور، واسمه الكامل «حور هَحور»، أي «جبل الجبل»؛ وإذا صح هذا الرّأي فإن الكلمة تعني «ساكن الجبل». ولكن ثمّة باحثين آخرين يذهبون إلى أن الكلمة اشتقاق من كلمة تعني «كهف» مما يعني أن الحوريين كانوا سكان كهوف، كذلك كثيراً ما يُشار إلى هؤلاء بعبارة سكان الكهوف. ولكن أيّاً من الاشتقاقين يصدق في وصف سكان منحدرات جبل سعير، ولا يضير في ذلك إن كان هؤلاء السّكان من هذه المنطقة أصلاً أم من الغزاة الذين خلفوهم في المنطقة، فجميعهم من الجبليين وسكان الكهوف.

ولقد ورد أول ذكر للحوريين في التاريخ في سفر التكوين حيث نعلم أن ملك عيلام كدرلاعومر غزا جزءاً كبيراً من سوريا وظل محكماً قبضته على البلاد التي غزاها طوال اثني عشر عاماً. ثم اجتمع ملوك وادي الأردن وأظهروا الثورة فسيّر إليهم كدرلاعومر وحلفاؤه حملة وتمكنوا من دحر القبائل في شرق الأردن قبل أن يتصدى لهم الحلف المعادي. وكان من بين من غلب عليهم: «والحوريين في جبلهم سعير إلى سهل فاران الذي عند البرية». [سفر التكوين، 6: 14]

وسـعير الذي يصور في صورة رجل والجـدّ الأعلى للحوريين إنما هو في الأرجح تشـخيص للبلد، على نحو ما يقال «عيسو أدوم» فما زالت سلسلة الجبال الكبرى التي تشمل البتراء وجبل هارون (وهو جبل حور المفترض) تُعرف باسم جبل الشّراة (شرا = سـعير) ومـن المحتمل جداً أنه الاسـم الأصلي لكل البلاد التـي غدت تعرف بعدئذ باسم أدوم.

وبعد الحوريين جاء الأدوميون، أبناء عيسو، ومن هنا يبدأ تاريخ متصل، لكنه تاريخ الأدوميين في تعاملهم مع بني إسرائيل، ولا تُذكر البتراء إلا باعتبارها جزءاً من المنطقة الأدومية، وينبغي أن يتذكر المرء أن أدوم كانت كقاعدة عدواً أكثر منها صديقاً لمملكة يهوذا (اليهوديّة). وبالتالي يُسرّ المؤرخون والأنبياء بتدوين أو التنبؤ بنزول شرّ مستطير بالمملكـة المعاديـة. كذلك من المثير للاهتمام أن نلحظ نهـج الكتاب الذين يتناولون أدوم والبتـراء في العصـر الحديث، وجلّهم يمتازون بالرّقي، ويمجّدون كل نبوءة شـرّ تتحقـق في أمر تلك البلاد التعسـة ويُعلـون من الحكمة في انتقام الـرّب. وإنه لحقٌّ أن الخاطـئ نـادراً ما كان يبدي سـماحاً، إن هو أظهره أصلاً، تجاه من أسـاء هو إليه. ففي مناسـبتين منفردتين استغل يعقوب أخاه التوأم أسوأ استغلال، ولـم يغفر الخلف لذلك الأخ وقوعـه فـي الخديعة إلى حدّ أنه صفح عمّن أسـاء إليه ونسـي الخديعة. فكان إذا سـنحت المناسـبة لم يتـردّد أحدٌ في التنديـد والتعريض بأدوم أو عيسـو ورميهما بكل سيئة.

واسـتمرّ هـذا الحال حتـى أيام النبي ملاخي، وهو متأخر، فنسـب إلـى الرّب قوله: «وقد أحببت يعقوب وأبغضت عيسـو» [نبوءة ملاخي، 1: 2– 3]، دونما سـبب معلن، ثـم يمضـي الرّب بإنزال اللعنة على أدوم بقوله، »إن قال أدوم قد انحطمنا لكن سـنعود ونبنـي الأخربـة، فهكذا قـال رب الجنود، هـم يبنون وأنا أهـدم ويدعون تخـم النفاق والشعب الذي غضب الرّب عليه إلى الأبد. [نبوءة ملاخي، 1: 4].

وكثيراً ما يرد ذكر الأدوميين في تواريخ الكتاب المقدّس، حيث يُنسَـبون إلى عيسو بن اسـحق. فيقول صاحب سفر التكوين: «عيسو هو أدوم» ثم يمضي فيورد معلومات

مختلفة حول أولئك القوم الذين يثيرون الاهتمام. ففي الأصحاح السّادس والثلاثين من سفر التكوين نطالع قائمة بملوك أدوم، حيث يعرض بوضوح أنه ليس هناك من ملك ورث المُلك عن أبيه وحسب بل ولقد كان كل واحد منهم أجنبياً، غريباً عن الأرض التي بات عليها ملكاً. وهذا عين ما يحدث عند القوم الذين لديهم الإرث محكومٌ بالتسلسل عن الأنثى وحيث الزّواج من الأباعد هو القاعدة. ولا بدّ أن يكون الملك الأدومي قد تولى العرش بحكم الزّواج، كما هي القاعدة في مصر؛ سوى أن الملكة تكون قد اتخذت زوجاً لها، على العكس من التقليد الجاري في مصر، من خارج قبيلتها. وفي هذه الناحية اختلف الأدوميون عن أقاربهم الإسرائيليين الذين كانوا متزمّتين في نهجهم بالزواج ضمن القبيلة. وقد وُضع هذا القانون حين كان يُنظر في قضية زلفهاد، ويومها أُعلن أمر الرّب لتظل الثروة ضمن القبيلة التي تملكها؛ وبعبارة أخرى كان ذلك إيذاناً باختصاص الذكر بالإرث.

وهناك نقطة أخرى تسترعي الاهتمام في الفصل ذاته من سفر التكوين في سجل «زعماء» أدوم الذي يلي سجل الملوك مباشرة، وهذا اللقب يمكن أن يُطلق على المرأة كما على الرّجل، على حدٍّ سواء. وجدير بالذكر أن خمسة من هذه الأسماء الثلاثة عشر – وهؤلاء يأتون في مقدمة اللائحة – أسماء مؤنثة. والأرجح أن هؤلاء كانوا زعماء محليين أو ما يطلق عليهم اليوم كلمة شيوخ، وكانوا أصلاً نساء. وهذا مُفاده أن سكان المنطقة في المرحلة السّابقة للأدوميين كما في ما بعدها كانوا يسيرون على التحدّر من الأم، على الأقل، بين الأسر الحاكمة.

وتشير زيجات عيسو أن هذا الترتيب كان تحالفاً سياسياً بين القبائل ولم يكن زواجاً بين أشخاص. فقد كانت له ثلاث زوجات: عادة بنت إيلون الحثي؛ وأهليبامة بنت عانة بنت صبعون الحوري (لاحظ سلسلة النسب إلى الإناث) وبسمة بنت إسماعيل، أخت بنايوت. فإذا كان عيسو تجسيداً لأدوم (عيسو هو أدوم) وكانت الزّيجات تحالفات قبلية، والزّواج ببسمة على درجة بالغة من الأهمية ويفضي إلى تعاون وثيق بين أدوم وبلاد العرب، ممّا يجعل العرب يعتبرون إسماعيل جدّهم بالمعنى المادي

الفعلـي للكلمـة على نحـو ما ينظر به اليهود إلى إسـحق. وتتجلى أهميـة التحالف في كون «الزّواج» قد سُـجّل مرتين. أما الزّيجتان فقد تم عقدهما مع أشـخاص مسـتقرّين منـذ عهد في البلاد، وأصبح أولاد عيسـو من زوجاته كافـة زعماء محليين أو أصحاب سيطرة في مقاطعات.



شارع الواجهات

أما القول بوجود تاريخ لأدوم مستقل كل الاستقلال عن تاريخ اليهود فحقّ مؤكد، سوى أنه لا يمكن معرفة هذا التاريخ ما لم يتم التنقيب والكشف عن المدن الأدومية. ولئن كان حقاً أن ذكر أدوم كثيراً ما يتردّد في الكتاب المقدّس فإن التاريخ أكثر انشغالاً بطبيعة الحال بالهزائم التي حاقت بالأدوميين من عنايته بانتصاراتهم. وليس هناك ما يشير إلى نمط حياتهم وحضارتهم. فالتنقيب وحده هو الكفيل بإلقاء الضوء على تاريخ أولئك القوم الذين يثيرون الاهتمام. ومع ذلك فثمّة ما يمكن أن نخلص إليه من دلالة لهذه المناسبات القليلة حين اتصل بهم العبرانيون. فالملاحظ أنهم لم يكونوا ليحملوا في نفوسهم احتقاراً لهم كما كانوا يحتقرون مؤاب؛ ولعلهم يكنّون لهم كراهية ويسألون الله أن يقول فيهم حكمه (كما يفعل العربي الحديث في لحظات ضيقه)، ولعلهم يتذكرون دوماً اللعنة التي نزلت بعيسو الذي أنكر إرثه، إلا أن أدوم تظل عدواً يحظى بالاحترام.

وبعد ضرب الصّخرة التي تذهب النظرة الحديثة إلى أنها عند عين موسى بالقرب من الجي، «وأنفذ موسى رسلاً من قادش على ملك أدوم» يطلب الإذن بمرور قواته في أدوم للهجوم على كنعان: «دعنا نمرّ في أرضك ونحن لا نميل إلى حقل ولا كرم ولا نشرب ماء بئر، لكنا نسير في الطريق السّلطاني لا نميل يمنة ولا يسرة إلى أن نجوز تخمك. فقال له أدوم لا تجُز في تخمي لئلا أخرج عليك بالسيف. فقال له بنو إسرائيل نصعد في السّكة وإن شربنا لك ماء نحن وماشيتنا دفعنا إليك ثمنه وليس إلا أن نجوز بأقدامنا. فقال لا تجُز وخرج أدوم عليهم بشعب عظيم ويد شديدة. وأبى أدوم أن يدع إسرائيل يجوزون في تخمه، فتحوّل إسرائيل عنه». [سفر العدد، 20: 14– 21]
وهكذا كان سلوك أدوم نفس السّلوك الذي اتبعته بلجيكا في بداية الحرب العظمى حين رفضت السّماح بالمرور بأراضيها لقوة غازية تريد الهجوم على دولة صديقة لها. وكانت قوة أدوم أعظم من أن تسمح بغزو، ولكن إسرائيل لم تنسَ حادثة الزّجر هذه، فما كان هناك من مناسبة إلا ويتمّ تذكر اللعنة التي أنزلت بأدوم وأصبحت واقعة لا تنسى.

«وارتحل بنو إسرائيل وساروا على تخوم أدوم»، على أطراف ما يعرف الآن بوادي العَرَبَة ووصلوا من ثمّ إلى جبل حور، وهو جبل هارون الآن. ويقول يوسيفوس في رواية خبر موت هارون إن «بني إسرائيليين بلغوا مكاناً يجلّه العرب باعتباره مدينتهم الكبرى، وكانت تُعرف في الماضي باسم الرّقيم لكنها الآن تدعى پترا، وفي هذا الموقع المطوّق بجبال عالية صعد هارون إلى واحد من هذه الجبال على مشهد من الجيش كله». وقام الإسرائيليون عندئذ بالتفاف طويل حول شرقي أدوم وشقوا دربهم بالقتال حتى بلغوا ضفاف الأردن عن طريق مؤاب.

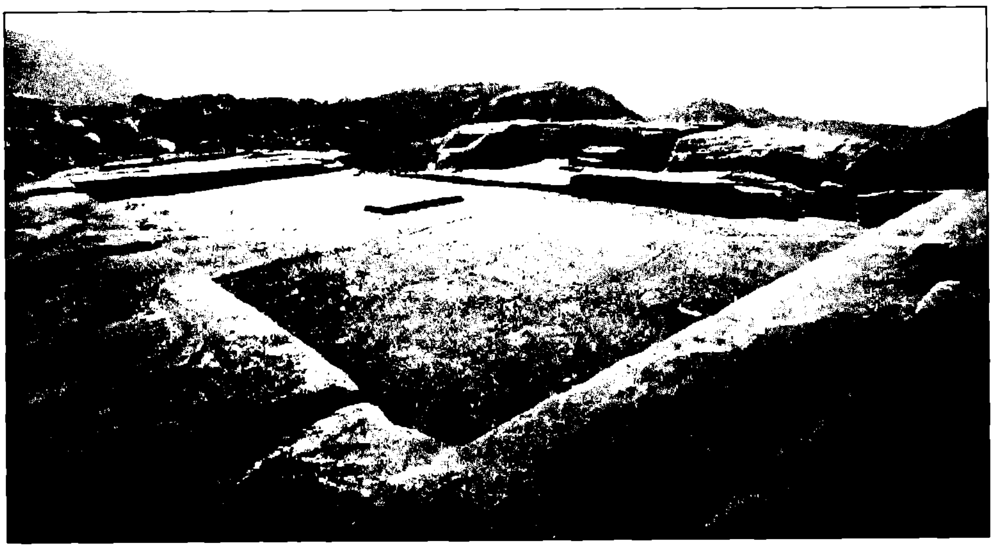
وفي تلك المذبحة الرّهيبة التي نزلت بالمدينيين تحقق للإسرائيليين النصر على يد فنحاس بن إليعازر الكاهن. «وملوك مدين قتلوهم مع قتلاهم وهم أوي وراقم وصور وحور و«رابع» خمسة ملوك مدين وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف». [سفر العدد، 31: 8] ويتوسع يوسيفوس (Josephus, Ant. Iv, 7, 7) في معلوماته لنا عن راقم «الذي كان يحمل اسم المدينة ذاته التي هي كبرى مدن بلاد العرب كلها وعاصمة كل العرب التي يسمونها الرّقيم، المشتق من اسم الملك الذي قام على بنائها، ولكن اليونانيين هم الذين أطلقوا عليها اسم «پترا» ».

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك سلم بين أدوم وإسرائيل، ولكن ليس لدينا تاريخ أدوم منذ وفاة راقم أيام موسى حتى عهد شاؤل حيث تم تسجيل مدى أذى شاؤل وقسوه الأدوميين في معاملة كهنة الرّب. فعندما لجأ داود إلى كاهن مدينة نوب أخيملك شاهده دواغ الأدومي فلحظ استقبال الرّاهب للرجل الذي يعتبره الملك خائناً. ولما عاد داود إلى بلده بعد أن مكث في مؤاب ومغارة عَدُلاّم بعض الوقت سأل شاؤل خدمه عنه، فلم ينبئه بأخباره سوى دواغ Doeg. ولمّا كان دواغ أدومياً. وبالتالي لم يكن يقيم تقديراً خاصاً لكاهن من ديانة غريبة عنه، وبإيعاز من سيده قام بقتل الكهنة جميعهم وهم وقوف في حضرة الملك، علماً بأن الخدم الإسرائيليين لم يجرؤوا على رفع يد ضدهم. ومن ثمّ مضى دواغ إلى نوب، مدينة الكهان، فعمل فيها قتلاً نال فيه الرّجل والمرأة والطفل والحيوانات على حدّ سواء [سفر صموئيل/ الملوك الأول، 22].

ويحسب من يطالع القصة أن الرّجل قام بأعمال القتل بيده، إنما الأرجح أنه كان قد اصطحب معه جماعة من الرّجال يضارعونه شراسة. والواقع أن الأدومي لم يكن ليقيم أيّ اعتبار عظيم للحياة الإنسانية. ولربما كان عذر دواغ في ما اقترفه من فظائع أنه «كان محتبساً أمام الرّب في مدينة نوب». ذلك أن هذه كانت مدينة الكهنة، والكتاب المقدّس حافل بروايات الفظائع التي يرتكبها هؤلاء الكهنة باسم الرّب، حتى صار لكلمة «احتباس» وقع بغيض. وفي المزمور 52 عرض لرأي داود في دواغ.

ويبدو أنه كان لشاؤل معارك عديدة مع الأقوام في شرقي الأردن، إلا أنه لم يتمكّن من القضاء على الأدوميين؛ فذلك كان عملاً مشهوداً تُرك لداود الذي دحرهم وأنزل بهم هزيمة تامة في وادي الملح، وأمكن له أن يقيم على المنطقة كلها حمايته بجنده «وصار كل الأدوميين خدماً لداود». ويبدو أنه لم يكن للأدوميين من خيار في الأمر، لأن مصيرهم كان في يد يؤاب، قائد جيش داود؛ «ومكث يؤاب هناك ستة شهور مع كل إسرائيل حتى أفنى كل ذكر في أدوم». وجليّ أن المزمور السّتين نشيد نصر داود احتفاء بهذا الانتصار؛ «لي جلعاد ولي منسّى وافرائيم حصن رأسي ويهوذا مشترعي. مؤاب قدر غسلي. على أدوم ألقي حذائي. على فلسطين هتاف نصرتي. من يبلغني إلى المدينة الحصينة. من يهديني إلى أدوم..... بالله نعمل ببأس وهو يطأ أعداءنا [المزمور 60: 9- 14].

والجليّ أن سليمان حكم بلداً خالياً من السّكان بيسر طوال الفترة الأولى من حكمه، ومع أنه لم يكن هناك إشارة محدّدة للتجارة عبر البتراء، فيمكن الاستخلاص من الواقعة أنه كان على خليج العقبة مرفأ يدعى عصيون جابر، وعن طريقه كانت البضائع تبلغ حتى القدس «وبنى الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب أيلة عند شاطئ بحر القلزم في أرض أدوم. فأرسل حيرام عبيده في السّفن مع عبيد سليمان قوماً ملاحين عارفين بالبحر». [سفر الملوك الأول، 9: 26- 27]



مكان تقديم القرابين

ويبدو أن سليمان قام بزيارة خاصة إلى المرفأ الأدومي. «ثم ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر في أرض أدوم». [سفر أخبار الأيام الثاني، 8: 17] وليس بمستبعد أن يكون سليمان قد سافر إلى هناك للقاء ملكة سبأ، لأن خبر الزّيارة يرد مباشرة قبل قصة وصولها إلى البلاد. ويحفظ القرآن [الكريم] قصة [في سورة النمل] تؤكد هذا الرّأي. وعندما أنهى الملك سليمان بناء المعبد في أورشليم ذهب حاجاً إلى مكة[1]. وثمّة قصة أخرى مفادها أنه طار على بساط سحري إلى اليَمَن وحطّ في صنعاء. وقد تدبّر عندئذ أن يبعث برسالة حملها طائر الهُدهُد إلى ملكة سبأ يطلب إليها موافاته، وهو أمر أطاعته دونما تلكؤ فجاءته محملة بالهدايا.

ولعلّ هذه الرّواية تقوم على حقيقة حيث يحتمل أن يكون سليمان قد سافر إلى العقبة ليستقبل الملكة؛ ولكن لمّا كانت الرّوايات اليهودية والإسلامية تعتبر سليمان أعظم الملوك الذين حكموا في الأرض، فإنه ما كان يعتبر موافقاً لكرامة ملك قوي عظيم أن يسير ولو خطوة واحدة ليستقبل حاكماً ولو كان غنياً قوياً؛ بل حسبه أن يصدر إليها الأمر، لتصدع وتحضر إليه. ولعل ثمّة إشارة إلى هذه الرّحلة في نشيد الأنشاد «من هذه الطالعة من القفر كعمود من بخور معطرة بالمرّ واللبان وبجميع أذرة التاجر؟». [نشيد الأنشاد، 3: 6]. وهناك مقطع آخر لعله يشير من جديد إلى هذه الزّيارة يصف فيها العطور والطيب تفوح من المرأة التي أحبها سليمان: «ناردين وزعفران قصب ودار صيني مع كل شجر اللبان مُرَّ وعود مع أفخر الأطايب». [نشيد الأنشاد، 4: 14]. ولا ريب أنها أتت حاملة معها الهدايا، »فدخلت أورشليم في موكب عظيم جداً ومعها جمال موقرة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. وأتت سليمان وكلّمته بجميع ما كان في خاطرها» [سفر الملوك الثالث، 10: 2].

وسواءٌ كانت التقت سليمان أم لم تلتق به في عصيون جابر، فإنها إن أتت عن طريق البحر فلا بدّ أن يمر طريقها بعصيون جابر على الطريق المعتاد من العقبة إلى أورشليم. ولا ريب بأنها عند مرورها بوادي أثنام اجتازت جزءاً من الهضبة الأدومية وتجاوزت

---

(1) هذه رواية شعبيّة ومثلها التي تليها حول البساط السّحري.

البتراء وقطعت وادي عَرَبَة إلى بئر سبع فالخليل فالقدس. ولا ريب بأنها ستبلغ العقبة ولو جاءت عن طريق البر، ثم تتبع الطريق التي تؤدّي بها إلى البتراء.

لا بدّ أن الكثير من ثروة سليمان قد تحقق له بفضل سيطرته على هذا المرفأ التجاري الهام الواقع على البحر الأحمر، بقدر ما كان يتحقق له بفضل التجارة مع الشرق ومصر. وكان سليمان قد فاق ملوك الأرض جميعهم بما اجتمع له من الثروات، وذلك لاتصاله بثروات الشرقين الأوسط والأقصى، وهي ثروات بكر ولكن لم يبق من هذه الثروات والأبّهة أي شيء، إلا أن أعمال المؤرخين المبهورين والمأخوذين لم تعرض لنا سوى الخطوط العامة لعهده وملؤوا الصّفحات بوصف عظمة الهيكل الذي أقامه وقصره الذي نعم به، لكنهم لم يخلفوا لنا إلا بعض الإشارات هنا وهناك عن نظام الضرائب، التي ما كان بوسعهم سوى استنتاجه من ثورة الجزء الأعظم من مملكته حين وجدوا خَلَفه يعتزم زيادة العبء عليهم، الذي لا يحتمل أصلاً.

ولقد فقد سليمان إلى حدّ ما سيطرته على عصيون جابر قبل نهاية عهده. وحين قام يؤاب بقتل كل ذكر أدومي فإن واحداً من «بذرة الملك في أدوم» هرب ولجأ إلى مصر، حيث أحسن الفرعون يومئذ استقباله وتزوج بإحدى بنات العائلة المالكة. وكان اسم هذا الهارب «هَدَد»[1]، وهو ليس بالاسم غير المألوف بين الوثنيين السّوريين، وإن كان مألوفاً أكثر إضافة عبارة ابن إلى اسم الله. فلمّا بلغت هَدَد أخبار وفاة كل من داود ويؤاب اللذين كان يرتعد لذكر اسميهما، عاد إلى أدوم حيث صار الآن الأولاد الذين ولدوا بعد المجزرة في سنّ تؤهلهم للقتال. وقام بتجميع عدد معين منهم وانتفض على ملك يهودا القوي. ويبدو أن تمرّده لم يكن محاولة لتحرير بلده من نير الحكم الأجنبي؛ بل يرجح أنه ارتضى لنفسه الاقتصار على مطاردة القوافل، وبذلك يتسبب بإفقار عدوه.

ومن المؤكد أن سياسة إفراغ البلد من السّكان، كانت السّبب الذي جعل سليمان لا يقوم باستعباد الأدوميين، كما فعل مع بقية رعاياه من غير اليهود، إذ لو فعل ذلك

(1) هذا هو الصّواب في لفظ الاسم بالآراميّة، وليس: حدد.

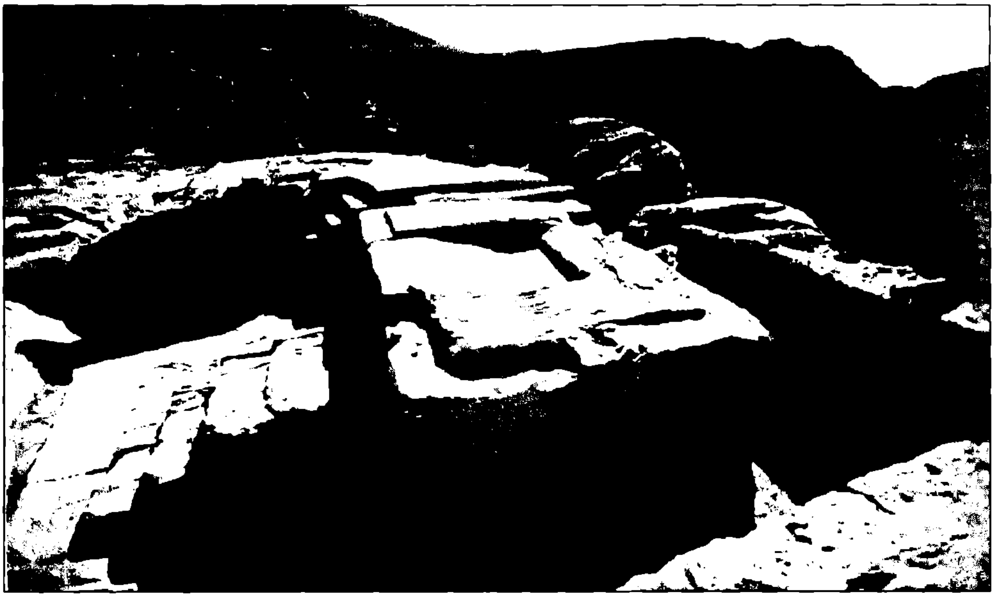
لانقطعت زراعة البلد، وهذه كارثة لا يمكن أن يقبل بها حتى أسوأ الملوك. كذلك فإن سليمان قد تزوج بأدوميات، ولعل نفوذهن لديه أتى بقدر من الرّحمة لقومهن.

ولقد بذلت أدوم محاولة يائسة لاستعادة حريتها في عهد يوشافاط (ملك يهوذا) بعقد حلف مع مؤاب وعمّون ضد الإسرائيليين، إلا أن التاريخ قصير وغامض، لا ينبئ بالكثير، ولكن الواضح أن مؤاب وعمّون، لأسباب غير معلنة هاجمتا أدوم، وأخذ الحلفاء يحاربون بعضهم بعضاً بشراسة وعنف مما جعل «جثث القتلى تتساقط على الأرض ولا يفلت من هذا المصير أحد». وسيطر يوشافاط على عصيون جابر، ومن هناك وجّه السّفن إلى ترشيش. وبعد الكارثة التي نزلت بأدوم صار الطريق إلى المرفأ أكثر أمناً مما كان أيام الإغارات التي دأب هَدَد على شنها.

وقام الأدوميون في عهد يورام بن يوشافاط بمحاولة جديدة لنيل الحرية، فكانت هذه المحاولة موفقة، مع أنّ يورام كان قد وجّه إليهم حملة تأديبية وصفها بأنها نصر عظيم. «وفي أيامه خرج الأدوميون من تحت أيدي يهوذا وأقاموا عليهم ملكاً. فعبر يورام إلى سعير مع رؤسائه وجميع مراكبه ونهض ليلاً وضرب الأدوميين المحيطين به ورؤساء المراكب. ولا يزال الأدوميون خارجين من تحت أيدي يهوذا إلى يومنا هذا». [سفر أخبار الأيام الثاني، 21: 8- 11].

ولئن كانت أدوم قد استعادت استقلالها، فقد كان عليها أن تكافح لتحفظ هذا الاستقلال، فاستعرت الحرب بين المملكتين بقوة وشراسة. وتضمّ اللمحة التالية، وبا لمأساويتها، التي بلغتنا عن أدوم بما فيها البتراء. فحين هزم أمصيا ملك يهوذا الأدوميين في معركة كبرى قام بمتابعتهم حتى آخر معقل لهم في وادي الصّخرة، واستولى على تلك القلعة الكئيبة أم البيارة التي لا يمكن الاستيلاء عليها إلا بعد صراع يائس أخير يبذله قوم مدحورون. وهنا عمد إلى الانتقام من عدو مدحور وهو أمر يليق بفنحاس أو يؤاب المتعطش للدماء، لكنه بارز بوضوح في تاريخ يهوذا الملطخ بالدماء. ويذكر التاريخ أنه قام بذبح عشرة آلاف. وحتى لو كانت الكلمة المستخدمة في الرّواية الرّسمية تعني «ألفاً» فإنني أفضّل عليها كلمة عائلة وهنا تغدو المذبحة تطال

عشرة آلاف عائلة، وحتى لو ترجمت الكلمة بـ «ألف» في الرّواية الرّسمية وآثرنا عليها كلمـة «عائلات» لظلت المأسـاة ضخمـة. فيذكر التاريخ أنه أنزل مذبحة بعشـرة آلاف مـن أبناء سـعير في وادي الملح. «وأسـر بنو يهوذا عشـرة آلاف أحيـاء وأتوا بهم رأس الصّخرة وطرحوهم من رأس الصّخرة فتحطموا بأجمعهم». [أخبار الأيام الثاني، 25: 12] ويجب أن تؤخذ عبارة «عائلات» بمعناها الحرفي بما يعني النساء والأطفال معاً.



المذبح مكان تقديم القرابين

والحق أن أمصيا لم يدع أمراً للمصادفة؛ فبالقضاء على كل أسرة على هذا النحو الدّقيق كفل ألا يبقى بعدئذ من يتابع هذا الصّراع الدّامي. فيمكن بعد مجزرة رهيبة مثل هذه وصف البتراء بأنها وادي البكاء. ومع ذلك فليس هناك ما يظهر تلاشي القبائل التي حاقت بها المأساة تماماً. وباستثناء هذا السّجل الزّاهي بالانتصار الذي سجله المنتصرون، ليس ثمّة في الوادي، ما يذكّر بتلك المجزرة الرّهيبة. إذ تقف أم البيارة في ضوء الصّباح، ذهبية متألقة، وكأنه لم يتردّد من فوقها صدى أيّة صرخة موت. فيطيب للمرء أن يعتقد أن المشجّع والمتعهّد لهذه المذبحة بلغ ما يعرف بلغة اليوم نهاية حرجة.

والأرجح، كما يبدو، أن أمصيا خاض هذه المعركة ليبقي طريق عصيون – جابر مفتوحاً ويحول بالتالي دون وقوع التجارة كلياً في أيدي الأدوميين. كذلك فإن ولده عزيا «بنى ايلت واستردّها إلى يهوذا». [أخبار الأيام الثاني، 26: 2]. ولكن السّهم كان قد انطلق، وفي حكم أحاز، حفيد عُزيا، جاء الأدوميون وأخضعوا يهوذا وحملوا معهم الأسرى». والأنكى من ذلك أن رصين ملك سوريا استردّ إيلات لسورية وردّ اليهود عنها، وجاء السّوريون إلى إيلات وحلّوا فيها إلى هذا اليوم». وتورد ترجمة التوراة السّبعينية عبارة «الأدوميين» عوضاً عن «السّوريين» والعبارة الأخيرة في ما يبدو هي الأدق. «في ذلك الزّمان استرد رصين الملك آرام أيلة للأدوميين وطرد اليهود من أيلة وجاء الأدوميون إلى أيلة وأقاموا هناك إلى هذا اليوم». [سفر الملوك الثاني، 16: 6].

ولمّا وجد آحاز نفسه محاصراً من الأعداء من كل جانب أرسل إلى تلغت فلاسر الرّابع، ملك الأشوريين (727 – 745 ق.م) يسأله العون. فجاء الملك الاشوري ومعه جيش وأحال أدوم إلى بلد تابع، ويبدو أنه وسّع من سلطته حتى رأس العقبة، وإن لم تأت تواريخ الملك على ذكر عصيون – جابر ولا ايلات. إلا أنه من المؤكد، مع ذلك، أن الموانئ الواقعة على خليج العقبة وتجارتها الغنية كانت السّبب الحقيقي وراء رغبة ملوك الآشوريين في إبقاء سيطرتهم على أدوم. ولم تكن أدوم ذاتها بالبلد التابع الغني، ولا كانت بالمكافأة المغرية كالمنطقة غرب نهر الأردن؛ ومع ذلك فقد دأب الملوك

الأشوريون على توجيه جيوشهم المرّة تلو المرة لإخضاع أدوم. إذ جاء سرجون الثاني قرابة العام 715 ق.م واجتاح جنوب أدوم ليطرد القبائل التي كانت تثير المتاعب في تلك المنطقة بتحريض من السّفراء المصريين. كذلك علمت مصر قيمة مرافئ العقبة ولم تكن في الأرجح لتأبى وضع يدها عليها.

ولقد قام بعد عشر سنوات من تلك الأحداث اتحاد آخر ضم حكاماً من فلسطين وشرق الأردن في محاولة للتخلص من نير الآشوريين، وهذا كبّد الملك سنحريب بعض العناء ليقمع محاولة أولئك الحكام وإخضاعهم وفرض الأتاوات عليهم. ولعل الأتاوة التي تتقاضاها آشور كانت على ما يبدو السّبب في استمرار الثورات في تلك المناطق، وربما كانت الضرائب المفروضة أقسى مما تحتملها تلك المناطق، ولكن من المحتمل أن تكون الضرائب متفاوتة بين هذه الدّولة وتلك. فيبدو أن ادوم كانت تدفع، في عهد الملك كوش - جابر ما يترتب عليها إلى أسرحدون (681 - 668 ق.م) دون أن تنبس ببنت شفة، ولكن ملكة مجاروة، هي الملكة تلحونو، قد حُملت إلى نينوى مع آلهتها كافة. ويبدو أن أدوم دفعت الأتاوة المترتبة عليها لآشور بشكل أحجار ثمينة وكانت سلعة يسهل الحصول عليها من تلك الأرض الصّخرية. وليس معلوماً بالضبط ما المقصود بالحجارة «الثمينة» أو»الغالية» في الممالك التابعة؛ فلعلها حجارة مثل العقيق الأحمر والتوپاز، أو ربما كانت أحجار بناء ذات ألوان زاهية مما يوجد في البتراء ونواحيها.

وكان آخر ما طالعنا من أخبار الأدوميين أنهم انضموا إلى اتحاد آخر - فأدوم لم تتعلم قطّ الدّرس، وهو أنها كانت دائماً أكثر نجاحاً حين تقف وحيدة منها وهي تتحالف وقوى أخرى. وقد انضمّت هذه المرة إلى مؤاب ويهوذا في الثورة على نبوخذ نصّر، وعانت من الكارثة التي عصفت بالاتحاد. ولقد حفل شرق الأردن بالرّجال المحطمين الذين صاروا يتطايرون وهم يريدون النجاة بحياتهم من قبضة نبوخذ نصّر. وكانت تلك الواقعة شاهداً على أعمال الغزاة الذين رغم انتقامهم من القادة، فقد أبدوا الرّحمة بذوي المراتب الدّنيا. ولذلك عاد الذين فرّوا وجميع اليهود الذين في مؤاب

وبيـن بنـي عمون، وفي أدوم والذين في كل الأراضي إذ سـمعوا أن ملك بابل قد جعل بقيـة ليهـوذا، رجع جميع اليهود من جميع المواضع التي دحـروا إليها وأتوا إلى أرض يهوذا... [نبوءة إرميا، 40: 12،11]».

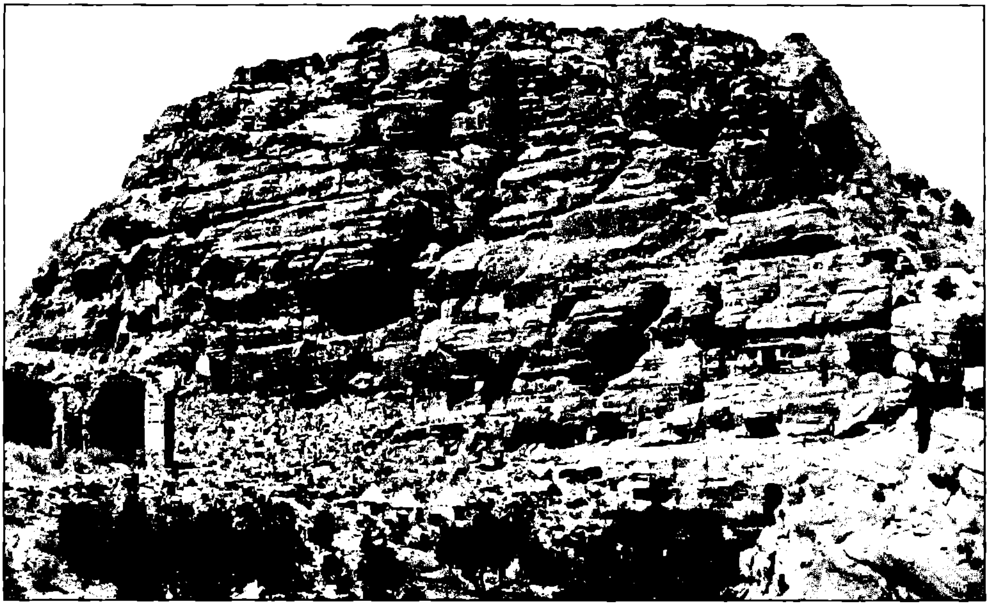
بيد أن الأدوميين كانوا قد حققوا نصرهم في تلك الأثناء وهم يرون عدوهم القديم يندحـر وكبـرى مدنـه، أورشـليم، تدمّر. ولكنـه أمرٌ محزن أن تتلاشـى أنشـودة النصر الأدومي؛ وجلّ ما نعرفه عنها ذكرها في المزمور المئة والسّابع والثلاثين: «اذكر يا رب بني أدوم في يوم أورشـليم القائلين: اقتلعوا فيها اقتلعوا حتى أساسها» [سفر المزامير، 137: 7]. ومـن الجديـر بالاهتمام أن يهوذا لم تتردّد قط فـي التغلب على المحن التي ابتلي بها أعداؤها، إنما كانت تنفر من صميم أعماقها من ردّ التحية حينما حلت الكارثة بيهوذا ذاتها.

كان إفراغ فلسـطين من السّـكان، نتيجة الحروب التي جرت وآشور والغزو الكامل لأراضيها على يد نبوخذ نصّر، الفرصة التي تنتظرها آدوم. فكما أن أبناء إسرائيل تدفقوا علـى بـلاد كنعان حين صـارت في وضع ضعيـف كذلك تدفق الأدوميـون على البلاد واسـتولوا على الأراضي الخالية من السّكان والخصبة في جنوب يهوذا، وهناك أقاموا دولة صغيرة ودعوها باسـمهم القديم إنما المعروف عند الإغريق باسـم أدومية. ويبدو أن السّـبب فـي هذه الحركـة الضخمة التي قام بهـا الأدوميون كان ناجمـاً عن الضغط الذي عمد إلى ممارسته الأنباط الشرقيون أما الأرض الخالية من الغرب فكانت إغراء ينبغي عدم إهماله.

ونظائـرـا كانت فلسـطين بلداً تعصف بـه الحروب الدّاخلية أو التي تأتي في شـكل غزوات من الخارج، فيتجدّد سـكانها من المسـتوطنين الذين يأتون من الخارج. وكان من بين أولئك الذين يسـتقرّون فيها، على سـبيل المثال، الهكسـوس والتيرا والحثيون والفلسـطينيون والإسـرائيليون، وفي هـذه الحالة الأخيـرة الأدوميـون. وصادف هذا الاستيطان الذي يعني الأدوميين بعد سقوط أورشليم في العام 586 ق.م.

كانت أدومية تتألف أساسـاً من ذلك الجزء من البلاد المعروف باسم سفيلاه، وهي

أرض قوامهـا تلال خفيضة ووديان فسـيحة تقع بين جبال اليهودية الصّخرية والسّـهل البحري المنبسـط. الذي كان، وما يزال، أحد أكثر البقاع خصوبة في فلسطين، ونقيضاً لأطـراف التلال الجرداء في أدوم الأصلية. وتم ضـم سلسـلة تـلال يهوذا حتى الخليل وبيـت جبرين شـمالاً إلى أدومية. ولكن الأدوميين، وإن اسـتقروا فـي ذلك الجزء من يهوذا، لم يكونوا يعتبرون أنفسـهم من أبناء إسـرائيل، بل وكان اليهود يعتبرونهم دائماً غرباء ومتطفلين. ويوضح يوسـيفوس الشـعور القائم بين القوميـن، وقد ذكر أن يوحنّا هركانـوس (135 - 105 ق.م) - وكان الكاهـن الأعظـم وقائـد الجيـش، معاً - شـنّ الحرب على الأدوميين وتم له دحرهم تماماً بحيث يستطيع أن يعرض عليهم إما النفي وإما الخضوع التام للشرائع والطقوس اليهودية.



أم البيارة، ويظهر الضريح غير المكتمل

ولمّا كان اليهود قد أقرّوا دائماً بروابط الدّم التي تجمع بينهم والأدوميين، حتى أنهم أقرّوا لهم بالعضوية التامة في الجيل الثالث (ولم يكن يسمح للأمم الأخرى بالانتساب حتى الجيل العاشر)، فسرعان ما تمّ احتواء الأدوميين سريعاً بين اليهود.

ملوك أدوم

التاريخ	
زمن موسى	راقم
قبل شاؤل	بالع بن بعور (بلعام ذاته؟)
	يوباب بن زارح
	حوشام من أرض التّيمانيين
	هَدَد بن بدد
	شمله بن مسريقة
	شاؤل من رحبة النهر
	بعل - حنان بن عكبور
	هدر من فاعو [سفر التكوين، 36: 32 - 43]
	أيام سليمان هَدَد
747 ق.م	كوش ملك (زمن تغلت - فلاسر الرّابع)
705 ق.م	ملكرام (في عهد سنحريب)
681 ق.م	كوش جابر (أيام أسرحدون)
668 ق.م	نطو (أيام آشوربنيبعل)

وربما يكون الأربعة الأخيرون من الملوك الأنباط.

* * *

الفصل الرّابع
الأنباط

يتزامـن تاريـخ غزو الأنباط لأدوم في الأرجح مع إفراغ فلسـطين من سـكّانها على يـد نبوخذ نصّر في بداية القرن السّـادس قبل الميلاد. وسـواء كان هذا غزواً سـلمياً أم أن الأدوميين طـردوا مـن تلك البلاد بالسـيف، فـإن عدداً كبيـراً من السّـكان لجأ إلى يهوذا ثم جرى غزو البلاد قطعة فقطعة كما كان حال فلسـطين في الأيام الأولى للغزو الإسـرائيلي. وكما تقضي طبيعة الأمور تبع ذلك اختلاط بين الشـعبين، وقيام تحالف بين بقايا المقهورين وقاهريهم. وهذا ما جرى، طبعاً، مع الإسرائيليين أيضاً، وكان سبباً دائماً لشكوى الأنبياء من قومهم.

فعندما كان بنو إسرائيل لا يزيدون على عشيرة صحراوية صغيرة كان يتبع الشكوى التي من هذا القبيل عقابٌ يفرضه الكاهن وهو عقاب شـديد، كما ورد في قصة زمري وزوجتـه المدينيـة (سـفر العـدد، 25: 7، 8). كما نال [النبي] موسـى ذاتـه من هارون ومريم تقريعاً شـديداً لزواجه بحبشـية وصار منتقدوه عرضة لانتقام الرّب حتى يعيدوا الأمور إلى نصابها (سفر العدد، أصحاح 12). ولكن يبدو أنه لم يكن لتعاليم الدّين إلا أقـل التأثيـر حين يتعلق الأمر بالزواج. ولا ريب بأن من بقي من الأدوميين أضاع هويته القومية وأصبح نبطياً. وقد يكون حبّ الحرية المضطرم الذي تميّز به الأنباط في عيون الكتّاب القدماء سمةً لهم حملوها مع دمائهم الأدومية.

كان الأدوميـون ينتمـون، مـع ذلـك، إلـى العنصر ذاتـه الـذي ينتمي إليـه الأنباط، فكلاهما يدّعيان أنهما من نسـل إسماعيل. فكانت إحدى زوجات عيسو الثلاث بسمة

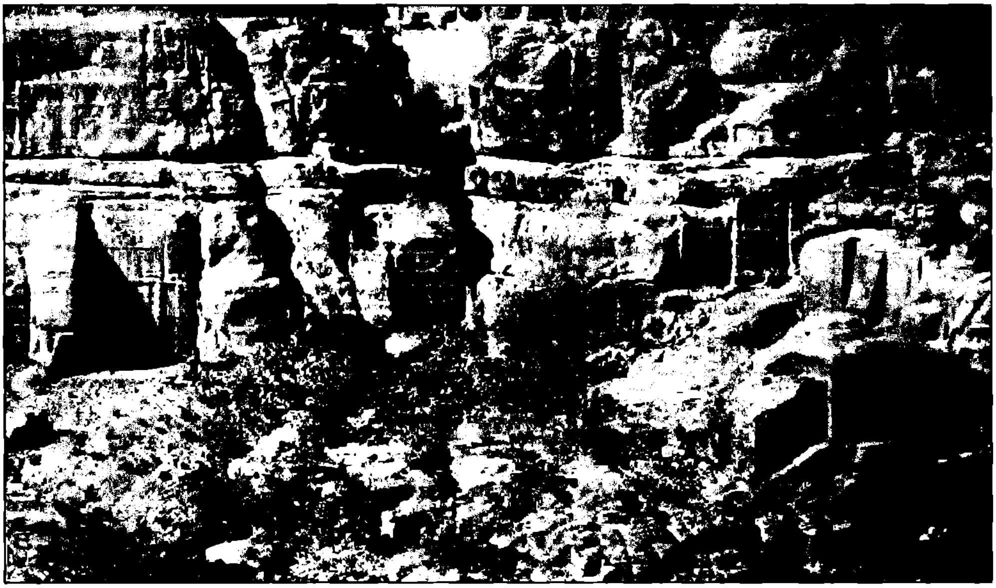
بنت إسماعيل وأخت نبايوت. وقد اعتُبر هذا الزّواج هاماً لأن ذكره يرد بالعبارات ذاتها مرتين. ولئن كان نبايوت يعتبر أخاً لبسمة فإن نهاية الاسم أنثوية قطعاً؛ ولكن لما لم يكن أمراً غير مألوف إلحاق نهاية أنثوية باسم جمع، مثل اسم عشيرة، فقد تعني هنا اسم عشيرة. ومن ناحية أخرى جرى العديد من القبائل العربية على الانتساب إلى إحدى الجدّات، وفي ذلك ما يفيد، كما أشار الكثير من الباحثين، بوجود جماعة تنتسب إلى الأم أصلاً.

ويعني التحدّر من إسماعيل أن عشيرة نبايوت من العرب، ومعروف أن الأنباط قدموا من وسط بلاد العرب أو ربما من جنوبها ثم شقوا طريقهم إلى الشمال. وكان هؤلاء يُعرفون بأنهم عشيرة من الرّعاة منذ أيام النبي اشعيا [نبوءة إشعيا، 60: 7]: «كل غنم قيدار تجتمع إليك وكباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبحي المرضي لديّ وأمجّد بيت جلالي». وهؤلاء قوم من البدو حتى أن ديودوروس [الصّقلي] (قرابة 60 ق.م) ذكر أنهم قوم من الرّعاة، لكن يُستفاد من شاهد آخر أن معلومات ديودوروس تعود إلى عهد أقدم، وهو يكتب عنهم وكأنما هم ينتمون إلى ماضٍ سحيق انقضى.

ولئن بدأ الأنباط حياتهم رُعاة فقد كانوا يتمتعون بعبقرية تجارية. كما كانوا يقودون الجمال ويرعون الماشية. ولعلهم بدؤوا حياتهم في التجارة ناقلين للسلع من مرافئ التجارة على خليج العقبة عبر الصّحراء إلى بئر السّبع أو دمشق. ولكن من الواضح أن هؤلاء لم يكونوا مجرّد رجال قوافل وحسب، بل إنهم في نهاية القرن الرّابع قبل الميلاد استحوذوا على البتراء، وبعد قرن واحد كانوا على قدر كاف من القوة يجعلهم يهاجمون السّفن القادمة من الشرق حاملة البضائع إلى المرافئ المصرية. وقد أرسل بطليموس الثاني (285 – 246 ق.م) إليهم حملة تأديبية وتمكن من منع قيام المزيد من هذه المحاولات. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبح بطليموس طرفاً في حرب مع السّلوقيين في سوريا، وسرعان ما تحولت طريق التجارة البحرية من الشرق إلى مرافئ العقبة وأصبحت كلها تقريباً بين أيدي الأنباط الدّهاة. ويقول پليني في العرب: «نصف هذه القبائل التي لا عدّ لها ولا حصر تقريباً يعيشون بالعمل في التجارة،

والنصـف الآخر على الغـزو: وهؤلاء علـى الجملة أغنى الأمم علـى الأرض، بفضل الثـروات الطائلة التـي تتدفق عليهم من الإمبراطوريتين الرّومانية والفارسـية؛ ومصدر هذا الثراء تجارتهم بما يأتي به البحر أو غاباتهم بينما هم لا يشترون شيئاً».

يبدأ تاريخ الأنباط مع السّـجلات الآشـورية، وحيث يُدعون نا - با - آي - تي (Na - ba - ai - ti)، ويقـال إنهـم عرب. ويدعى أقدم ملوكهـم ناتو (بالعبرية ناثان) الذي انضـم إلـى الاتحاد عقب المصير الفاجـع الذي آلت إليه أدوم وثار على آشـور بنيبعل (668 - 626 ق.م) وكانـت العاقبـة المألوفـة بعـد ذلك: دحر التحالـف تماماً وزحف آشـور بنيبـال على شـرق الأردن وأخضع البلد كلـه. أو على الأقل ادعـى أنه أخضعه، ولكـن الملوك القدماء كانـوا يجنحون إلى تصوير انتصاراتهم بألوان أكثر زهواً مما هو حال المؤرخ الصّارم في الأيام الحديثة. فليس ثمّة دليل على أنه سيطر على البلد لفترة ما. ويبدو أنه في الأرجح استولى على شمال سـوريا لأنه كان لهذا الجزء من المنطقة ضـرورة لمتابعـة حملاته، أما أنه قام بما هو أكثر من مجرّد غزو أدوم فأمرٌ ليس مؤكداً، بل ويعتوره شك أكبر إن كان قد بلغ البتراء.



الواجهات، أم البيارة

وأعقـب ذلك ثلاثة قرون من الصّمـت والأنباط يدعمون قوتهم ويسـتقرّون تجاراً وليـس بدواً. والأمـر الثاني في هذه المعلومات يصدر عن ديـودوروس الصّقلي الذي يتتبـع قصـة الهجومين على البتـراء اللذين وقعا في العـام 312 ق.م. ولكنه لا يقدّم في روايته إشارة تفيد بمصدر معلوماته، إنما يبدو أنها مستقاة من سجلات السّلوقيين، فقد ورد أنـه فـي عهد الملك أنتيغونس السّـلوقي خرجت بأمر الملك قـوة من أربعة آلاف جندي مشـاة وسـتمئة من الفرسـان بقيـادة أثنايوس فـي حملة لنهب الأنبـاط. وكانت البتراء اشـتهرت بأنها مستودع سـلع الأنباط وبضائعهم ممّا يدل على أنهم كانوا تجاراً أكثر منهم رعاة ماشية.

وقـد تحرّك أثنايوس للإغارة علـى المعقل، بعد أن تلقّى معلومـات تفيد بأن العدد الأكبر من الأنباط ذهبوا إلى معرض تجاري يقع على مسافة من المكان. فكانت البتراء بالتالي دون حراسـة. وبعد مسـيرة شـاقة تمكن أثنايوس من بلوغ البتراء وبدأ الهجوم عند منتصف الليل واجتاح المكان بقوة السّـلاح فسـقط في المعمعة أعداد من الحامية والسّكان، »فقُتل عددٌ منهم بينما أُسر بعضهم أحياء، أما الجرحى فتُركوا في مواضعهم، بينما قام الجنود بحمل الكثير من البخور والمرّ وخمسمئة طالن فضة ولم يطيلوا البقاء هناك فقفلوا عائدين سـريعاً». وكانت هذه إغارة كما نقول اليوم «محدّدة الأهداف» لا تستدعي البقاء بعد تحقيق الأهداف المتوخاة منها. وقد أسرع بعض رجال البتراء ممّن هربوا تحت سـتار الظلام واجتازوا الجبال إلى حيث كان المعرض وقاموا بإبلاغ أبناء عشـيرتهم بالخطر. فعاد هؤلاء إلى البتراء فوراً. «وهناك علموا من الجرحى بما حدث فهبوا لمطاردة اليونانيين على عجل».

ولـم يكـن أثنايوس وجيشـه يتوقعـون المطـاردة بمثل هـذه السّـرعة، إذ كانوا غير مدركيـن طبعـاً أن العدو، الذي ولد في الصّحراء لن يسـتهين برحلـة نالت من الجنود وأنهكتهم أشدّ الإنهاك، وهم الذين اعتادوا الأسفار الشاقة. وكانوا جميعهم مستغرقين فـي النـوم بعد تعب ومشـقّة، بل حتـى الحـراس، إن كان هناك من يقف منهـم خفيراً، كانوا يشـعرون بالنعاس من شدة الإنهاك. ولقد «هرب الأسرى دون أن يلحظهم أحد،

ومنهـم علم الأنباط بأحوال العدو فهاجموا المعسـكر في نوبة الخفارة الثالثة وأعملوا فـي الجنـود هنـاك قتلاً وذبحـاً، وكان عددهم لا يقل عـن ثمانيـة آلاف، ذبح معظمهم وهـم ما زالوا في الفراش بعد، ولكن اليقظين منهم هبّوا إلى السّـلاح ومضوا يقاتلون. وفي النهاية كان المشـاة قتلى، ولكن خمسين من الفرسـان تمكنوا من النجاة والفرار، ومعظمهم جرحى».

ولمـا كان الأنباط لا ينزعون إلى الحرب، لأن ثرواتهم كانت تعتمد على المحافظة علـى السّـلم مع جيرانهم، لذلك مضوا يرسـلون رسـائل الاعتذار إلـى أنتيغونِس. فردّ ذلك الملك المراوغ، وكانت تسـتبدّ به رغبة شـديدة بالسـيطرة علـى التجارة المربحة فـي أيـدي الأنباط، بقطع الوعود والعهـود وألقى اللوم على أثنايـوس في هذا الهجوم كلـه علـى البتراء، وأنه تصـرّف دون أوامر. وقدّم إليهم عروض الصّداقة وبدا مسـتعداً لأن يكون حليفاً قوياً ومخلصاً. وقد راودت الأنباط، كما هو معهود بالبدو، الشكوك، لكنهـم أظهـروا القبول بعروض الصّداقة، بيد أنهم وضعوا الحرّاس وأرسـلوا السّـبور إلى أعالي التلال التي يستطيعون منها مشاهدة كل جماعة يمكن أن تتقدم في بلادهم.

ولقد كانت شكوكهم مبرّرة تماماً، لأن أنتيغونِس، حين اعتقد أن الأنباط قد خُدعوا تماماً بما قال، وجّه حملة أضخم من سـابقتها وعلى رأسـها ولده ديمتريوس. وبدا أن الجيش السّـلوقي قد تحرّك تحت سـتار الليـل، وربما بوحي من الفكـرة بأنه لا يمكن رصدهم. ولكن الأنباط كانوا قد اتخذوا استعداداتهم لمواجهة هذه المناورة، «وراحت دوريات الاسـتطلاع والرّصد ترسـل إلى الأنباط بالمشاعل إشـارات متفق عليها». ثم قـام الأنبـاط بتوزيع ما هو ثمين لديهـم في ما بينهـم؛ فالبضائع القابلـة للنقل حملوها معهم ثم يمّموا شطر الصّحراء، ثم انتشروا في الهضبة كلها على نحو يستحيل معه على أحـد اللحاق بهـم. أمّا بقية البضائع فقد أودعوها في كهـوف البتراء حيث أقاموا عليها حراسـة قوية للدّفاع عن المواقع. فقام الغزاة بشن عدّة هجمات، ولكن المدافعين عن البتـراء كانـوا أقوى وكانت لهم الغلبة في صدّ تلك الهجمـات. وبعد قتال ضارٍ عرض المدافعون أن الاتفاق أجدى، فوافقهم الغزاة، بعد أن سـئموا القتال. «فأرسـل العرب

شـيوخهم فكـرّروا ما سـبق قوله، واقنعـوا ديمتريوس بـأن يقبل من الهدايـا ما هو غالٍ عندهم وثمين، ووضع نهاية لهذا الأمر».

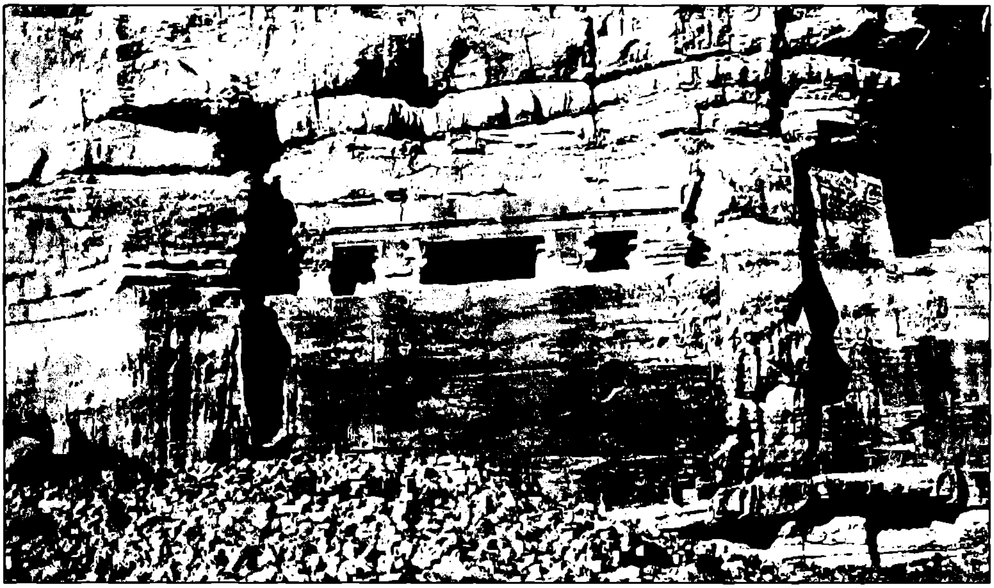
بيـد أنـه ما زالـت هناك ثغرة فـي تاريخ الأنباط إلـى أن يعودوا للظهـور في حروب المكابيين، ورواية يوسـيفوس بشـأن العلاقات باليهود والسّـوريين. فليس لدينا تاريخ متصـل، بل لا بدّ من الرّبط بين الشـذرات التي تـرد من كتّاب غير مختصين. ولـم تتوفر المعلومـات الأثرية ما خـلا القليل منها، حتى كانت التنقيبـات الأخيرة في البتراء التي قام بها السّـيد والسّـيدة هورسفيلد، وفيما بعد الفريق الذي أعمل من ضمنه في البتراء. إن التاريخ غير المدوّن الذي يكشـف عنـه التنقيب لا يمكن اعتباره بأيّ حال تاماً حتى يتـم التنقيب في عـدة مواقع كبيرة خاصـة بالحقبة النبطيّـة ويتولاها علمـاء آثار أكفياء وتنشر نتائجها للدراسة والمقارنة.

يـرد ذكـر الأنباط في حـروب المكابييـن (قرابة عـام 165 ق.م) بوصفهـم أصدقاء لليهـود، فبعـد أن أنـزل يهوذا المكابي بأعدائـه أكثر من مئة هزيمة منكـرة. «وأما يهوذا المكابي ويناتان أخوه فعبرا الأردن وسارا مسيرة ثلاثة أيام في البرية. فصادفا النباطيين فتلقّوهمـا بسـلام وقصّوا عليهما كل مـا أصاب إخوتهما في أرض جلعـاد»[1]. ويلوح أن الأنبـاط كانوا يُعتبرون قوماً جديرين بالثقـة، وعوناً كبيراً لأصحاب التجارة. وجليّ كذلـك أن بلـداً محايـداً لا بدّ أن يحقـق ربحاً كبيراً حيـن يكون منافسـوه مُنهمكين في الحـروب. ولقـد كان هذا بالتأكيد الحال الذي كان سـائداً في تلك الفترة، لأن القوتين التجاريتيـن فـي البحر الأبيض المتوسـط، مصر وسـوريا، كانتا في حـرب متصلة إبان القرنيـن السّـابقين لظهور الرّومـان. وهذا ما جعـل التجارة تتحول إلـى قنوات أخرى مأمونـة نسـبياً. ولا ريب بأنه لـم يكـن للأنباط يدٌ بما حدث، ولكـن لا يتفق مع الطبيعة البشرية الامتناع عن اغتنام فرصة تأتي بها السّماء.

وثمّـة واقعـة أخرى تبيّـن التقدير الـذي كان يحظى به الأنباط، حين عهد ألكسـندر بـالاس بولـده أنطيوخـوس إيبيفانِس إلى مالـك العربي (قرابة العـام 150 ق.م). ولعل

(1) سفر المكابيين الأول، 5: 24، 25.

مالكاً هذا كان ملك الأنباط. فيبدو أن القدر شاء أن يفيد الأنباط، لأنه بعد موت ألكسندر بالاس (146 ق.م) أصبح خصمه ديمتريوس مكروهاً جداً، حتى أن رجلاً يدعى تريفو Trypho أخذ يتآمر لطرد ديمتريوس من البلاد وتنصيب أنطيوخوس الفتى على العرش. وهذا قد يؤدي إلى قيام تحالف مع سوريا، ممّا يمكن أن يفيد منه الأنباط فائدة كبيرة. ولكن مالكاً كان يعارض المجازفة بربيبه الفتى في مشروع خطر مثل هذا، فاستغرق الأمر الكثير من الوقت والإقناع لقبوله به، ثم تحققت أسوأ مخاوفه؛ فقد عمد تريفو Trypho إلى اغتيال أنطيوخوس الفتى وحاول الاستيلاء على العرش. وحسب رواية يوسيفوس يبدو أن مالكاً كان رجلاً صادقاً، إلا أنه لم يكن على درجة كبيرة من الحكمة.



اللوحة 22: الضريح غير المكتمل

قرابـة العام 105 ق.م، بـدا أن الملك النبطي إيروتيمس (أريتـاس أو حارثة الأول) كأنما أضرّ بتجارة كل من مصر وسوريا، نتيجة هجومه على هذين البلدين، ويرجّح أن يكون السّبب في ذلك مضايقته لقوافلهما على نحـو يؤثر على تجارتهما، وهو ما كان الأنبـاط يودّون وقوعه نظراً لأن الحكومات المعنية يومذاك كانت منهمكة في الحرب فيما بينها، وما كان في استطاعتها أن تردّ على عدوّها المشترك الذي كانت إغاراته تكاد أن تبلغ حد الحرب فعلاً، وتعتبر كذلك في سجلات التاريخ.

وكان الملـك التالـي الـذي يتمتـع بمكان فـي سـجلات التاريخ حارثـة الثاني (98 ق.م). فهـو يبـرز فـي المناوشـات المتواصلة التي كانـت تجري بين الملـك اليهودي ألكسـندر ينّايـوس وبطليموس الثامن (لاثيـروس)، حيث يظهر حليفاً لبلـدة غزّة التي كان أنصـار بطليمـوس بقيـادة أپولودوتس يسـيطرون عليها. فقام اليهـود بحصار غزّة ولما بدا أنهم يتمتعون بموقع متفوق، أرسل أپولودوتس إلى حارثة على ما يبدو يطلب منه النجدة. «ولكن أولئك المقاتلين في غزّة أبدوا مقاومة شـديدة، وعمد ملك العرب وكان رجلاً بالغ الجلال، إلى حثهم على المثابرة بهمّة، ووعد بالحضور لمساعدتهم؛ ولكـن صـادف أن أپولودوتس قُتـل، قبل أن يتمكن من الحضور». وقـد قُتل هذا غدراً وقـام الخونة بتسـليم المدينـة للجيش اليهـودي. وأعقب المذبحة المعتـادة التي تنزل بالمدحورين دمار شـبه تام للمدينة وموقف حارثة واضح تماماً: كان لغزّة أهمية بالغة عنـده، باعتبارهـا نهايـة خط التجـارة النبطيّة الغربي، ومن شـأنه لذلـك أن يبذل جهده بطبيعة الحال لانقاذها، ولكن ما إن نزل بها الخراب حتى كان الرّجل على مسافة بعيدة حداً سواء لاستعادتها أو إعادة بنائها من جديد.

لقد أمضى ألكسـندر ينّايوس سـنوات حكمه كلها في القتال، مقاتلاً شـعبه أحياناً، والعدو الأجنبي أحياناً أخرى. كذلك أراد ينّايوس اختبار قوته مع الأنباط، وقد أصاب بعـض النجـاح فـي بداية الأمر، إذ اسـتطاع دحـر جلعاد ومـؤاب، ولكـن حينما واجه جيـش الأنباط وقائـده الملك عُبادة الأول بشـخصه، مُني ينّايـوس بالهزيمة. (عام 90 ق.م تقريباً). فوقع في كمين أُعدّ له في مناطق عسـيرة يصعب السّـير في دروبها، فكان

أن سقط في واد سحيق، بسبب كثرة الإبل في جدارا، إحدى قرى جلعاد، ونجا من الموت بشق النفس». كما أصبح ألكسندر مضطراً الآن بفعل الثورة التي اندلعت بين أبناء قومه لاستدعاء قوات أجنبية وعقد سلم مُهين مع عُبادة. «ولقد حطّوا من قدره إلى درجة اضطرّ معها لإعادة مؤاب وجلعاد التي كان قد أخضعها لسلطانه إلى ملك بلاد العرب، ومعها أماكن كانت جزءاً من تلك المناطق، وذلك كي لا يشارك في الحرب ضده».

وتولى حارثة الثالث الحكم في الأعوام ما بين 85 و 60 ق.م. ولمّا كان سلطان الرّومان آخذاً الآن بالانتشار في ربوع الشرق الأدنى، فقد أصبحت التواريخ أقل تبعثراً ممّا كانت عليه في الفترات السّابقة. ولكن معرفتنا بالأنباط ظلت ضئيلة إلى حد يدعو للإشفاق حتى حين تتوفر مساعدة كتّاب العصور الكلاسيكية. وإبّان الحروب المتصلة التي كان يشنها السّلوقيون ومؤامراتهم المستمرة للاستيلاء على العرش المضطرب المهتز، كان ثمّة فرصة إلى أن نلمح الأنباط بوصفهم أعداء أو أصدقاء.

وبعد موت ألكسندر ينّايوس صعدت أسرة هيرود (الأدوميّة) أولاً لتحتلّ المكانة المرموقة. فأصبح أحد ولدي ألكسندر، وهو هِركانوس، كاهنا أكبر نظراً لضعف شخصيته وانصرافه كلياً عن الشؤون العامة، بينما نُصّب شقيقه الأصغر الذي يتسم بالهمة، أرسطوبولُس، ملكاً. ولقد كان من شأن هذا الترتيب أن ينجح لولا «صديق معيّن لِهركانوس، وهو أدومي يدعى أنتيپاتر[1] Antipater، وكان على ثراء فاحش، ورجلاً نشيطاً يجنح للتمرّد بطبيعته؛ وعلى عداء مع أرسطوبولُس». وكان أنتيپاتر أثناء حكم ألكسندر ينّايوس قد عقد صداقة وحلفاً مع أولئك العرب وأهالي غزّة وعسقلان الذين كسبهم إلى صفه بإغداق الكثير من الهدايا الفخمة عليهم وسرعان ما غدوا أصدقاء له». وجدير بالملاحظة كيف كسب أنتيپاتر ، بما تميّزت به عائلة هيرود دائماً

(1) الاسم يوناني ويلفظ بها: أنتيپاتروس Ἀντίπατρος. لكن ينبغي التمييز بين أنتيپاتر الأدومي (توفي 43 ق.م) وأنتيپاتر القائد المقدوني (319 – 397 ق.م) أحد معاوي الملك فيليب الثاني المقدوني وابنه الإسكندر الأكبر.

من الحنكة، إلى صفه الأقوام الأساسية التي تسكن نهايات طريق التجارة، وجعل من نفسه الوسيط بينهم. فأصبح العرب (أي الأنباط) وأهالي غزّة وعسقلان، مهيئين لمبادلته الصّداقة ليكفلوا لتجارتهم الأمن على الطرق.

ولقد لاحت لأنتيپاتر الطموح فرصة ليزداد جاهاً ولم يعد يهدأ له بال حتى أقنع هِركانوس ذا الإرادة الواهنة بأن يسعى إلى إزاحة شقيقه عن موقعه. ولتحقيق هذه الغاية كان الملك النبطي القوي حليفاً لا يُستغنى عنه. ويقدم يوسيفوس رواية عن هذه العملية. فيقول: «أشار عليه وأقنعه بان يسعى إلى حارثة ملك العرب وتعهد بمساعدته، إن عمل بنصيحته. وبعد حين اصطحب هِركانوس وتسلل خفية من المدينة [أورشليم] تحت ستار الليل، ومضى في رحلة طويلة، أوصلته إلى المدينة التي تدعى البتراء حيث قصر حارثة. وبفضل صداقته الحميمة للملك، استطاع إقناعه بإعادة هِركانوس إلى يهوذا؛ ودأب على تكرار هذا الرّأي كل يوم بلا انقطاع. كذلك اقترح تقديم هدايا إليه إن تم الأمر. وتمكن في نهاية المطاف من إقناع حارثة بقبول عرضه.

ووعده هِركانوس، أنه حين يعود إلى بلده ويستلم مملكته، سوف يعيد المدن الاثنتي عشرة [مادبا، نبلو، لبياس، ترابسا، أغالا، أثونة، زعر، أرونة، مريسة، رده، لوسه، اوربه] التي أخذها والده ألكسندر من العرب. وبعد هذه الوعود التي قطعها هِركانوس، قام حارثة بشن حملة على أرسطوبولُس بجيش يبلغ تعداده خمسين ألف فارس وجندي مشاة، وفي المعركة التي نشبت تمكن من الغلبة عليه. وبعد هذا النصر انتقل العديد من الجنود إلى هِركانوس فلما وجد أرسطوبولُس جنده يفرون من صفوف جيشه شعر بالإحباط والخذلان فهرب إلى أورشليم؛ وعندئذٍ حشد ملك بلاد العرب جيشه وأغار على المعبد وقام بمحاصرة أرسطوبولُس في داخله، والقوم مازالوا يؤيدون هِركانوس ويساعدونه في الحصار، بينما لم يعد لدى أرسطوبولُس سوى الكهنة يساعدونه على الصّمود، فقام حارثة بتوحيد قوات العرب واليهود وراح يشدّد الحصار على نحو أقوى على من في الدّاخل».

وقبل أن يحدث أي أمر حاسم حضر إلى يهوذا أحد كبار القادة الرّومان في جيش

پومپيوس، ويدعى سقاورس، فبعث إليه أرسطوبولُس وهِركانوس السّفراء لتقديم الرّشا له، فأخذ الرّوماني الحذر يقلّب الأمر على جوانبه ويمعن النظر فيه فلما وجد الرّشا التي عرضت عليه متساوية قرّر أن ينحاز إلى أرسطوبولس «لأنه غني ويتمتع بروح عظيمة، وينزع دائماً إلى الاعتدال؛ بينما سمة الآخر أنه فقير وعنيد، كما أنه قطع على نفسه وعوداً خرقاء بأمل أن يحسّن من وضعه»؛ فأخذ سقاورس «أمواله، ورفع الحصار وأمر حارثة بمغادرة المنطقة وإلا اعُتبر عدواً للرّومان».

وفي العام 63 ق.م قدم القائد پومپيوس إلى دمشق ومعه جيش للقيام بشن الحرب على الأنباط، وبعث المطالبان الاثنان بالعرش اليهودي سفيرين حاملين معهما الرّشا. فكان أنتيپاتر يمثل هِركانوس، ولعل براعة أنتيپاتر في الحديث كانت السّبب في التعنيف الذي لقيه أرسطوبولُس من پومپيوس. «ثم تحدث إليهما بلباقة وردهما على أعقابهما؛ وقال لهما إنه عند عودته ثانية إلى بلدهما سوف يسوّي الأمور بينهما، بعد أن يكون قد اطلع على أحوال الأنباط اطلاعاً مباشراً». ولكن أرسطوبولُس وجّه قواته، والغضب يعتمل في نفسه من الإهانة بسبب التعنيف الذي ناله، ودخل يهوذا يريد الاستيلاء عليها. «فغضب پومپيوس لتصرّفه هذا؛ فسار إليه على رأس ذلك الجيش الذي كان يريد به كسر شوكة الأنباط، والقوات الرّديفة التي قدمت من دمشق والمناطق الأخرى من سوريا، والفرق الرّومانية الأخرى التي رافقته، وشكّل بذلك حملة ضد أرسطوبولُس، وتابع پومپيوس عمله بالاستيلاء على فلسطين كلها، فلما استقرّ أمرها على ما يرضاه التفت إلى الأنباط».

أمّا سقاورس فوجه آنذاك حملة على البترا، في بلاد العرب وأضرم النار في كافة المناطق من حولها، لصعوبة دخولها؛ ولما أصاب جيشه الجوع، أخذ أنتيپاتر يرسل إليه الذرة من يهوذا، وكل ما كان يطلبه بأمر من هِركانوس؛ فلما أوفد سقاورس أنتيپاتر في سفارة إلى حارثة، لأنه كان رفيقه في ما مضى، أقنع حارثة بأن يعطي سقاورس مبلغاً من المال ليمتنع عن حرق بلده؛ وتعهّد بأن يضمن له ثلاثمئة طالن. وهكذا توقف سقاورس عن متابعة الحرب بناء على هذه الشروط؛ وهذا تمّ برغبة من سقاورس كما

من الحارثة». وكان واضحاً أن سقاورس يعاني من قسوة الصّحراء ويسرّ بالمصالحة، سوى أن الرّومان لم يتمكنوا من قهر الأنباط. ولكن كان لخلفه في قيادة القوات الرّومانية، غابينيوس، جولة أخرى مع الأنباط ثم ادّعى لنفسه نصراً.



الكولومباريوم أو أعشاش الحمام

ولئن كان ذكر الأنباط خافتاً في رواية يوسيفوس في السّنوات التالية فإن الشواهد تدلّ على أنهم ما زالوا حتى ذلك العهد قوّة يعتد بها، خاصة في غزّة التي تجدّد بناؤها بأوامر من غابينيوس، بما يبيّن أن التجارة قد تم إحياؤها من جديد وصارت تجري على قدم وساق. وقد كتب مارك أنطونيو، الذي اتخذ لقب «الحاكم الأعلى»، مخاطباً كافة الحكام ممن لهم صلة بإقرار السّلم مع يهوذا وفيما بين بعضهم بعضاً. «نرى الآن وقد نال هؤلاء [أي أتباع كاسيوس] عقابهم أننا سوف نتمتع بالسلام في الفترة القادمة، وتنال آسيا الرّاحة من الحرب. لذلك احرصوا على أن يشيع السّلم الذي منحنا الله إياه ويبلغ شركاءنا أيضاً، بقدر ما تكون آسيا أبلّت من اضطراب أحوالها بفضل انتصارنا... ووجه أنطونيو مثل هذا الكتاب إلى أهالي صيدا ومثله إلى أهالي أنطاكية والعرب».

وفي العام 40 ق.م اضطر هيرود الكبير ابن أنتيپاتر، وكان يومئذ (تتراخاً) أي حاكماً للجزء الرّابع من ولاية في الامبراطورية الرّومانية، إلى الهرب للنجاة بحياته من البارثيين ولجأ إلى البتراء. فمضى إلى ملك بلاد العرب مالك (الأول) الذي كان شديد التلطف به، لكي ينال منه المقابل للجميل، الذي هو الآن شديد الحاجة إليه، ويرغب أن يحصل منه على بعض المال، سواء على سبيل القرض أو الهبة، رداً للجمائل التي قدمها له... ولكن مالكاً أرسل له موفدين قابلوه وطلبوا منه المغادرة بسبب مطالبة البارثيين لمالك بألا يستضيف هيرود لديه. وكان هذا مجرّد ادعاء تذرع به لئلا يضطر لردّ جميل يدين له به؛ وزاد في الحجة؛ أن بعض البارزين من العرب حملوه على هذا أملاً بأن يحرّفوا في المبالغ التي قدمها لهم أنتيپاتر لضمان إخلاصهم. فردّ هيرود أنه لا يريد أن يكون مصدر إزعاج لهم بلجوئه إلى هذا المكان... وعليه قرّر قراره على المغادرة، ونفّذ هذا القرار وهو يلتمس الحذر على درب سفره إلى مصر.

.. وما هو إلا حين حتى ندم مالك على فعلته، فهرع في أثر هيرود ولكن دون جدوى، إذ كان قد قطع مسافة بعيدة جداً. ويبدو جلياً أن مالكاً كان قد رمى بحظه إلى جانب البارثيين الذين صار حليفاً لهم، فلما اندحروا على يد جيوش الرّومان اضطرّ لدفع الغرامات لروما. وبعد حين منح أنطونيو ملكة مصر كليوپاترا قسماً من

بـلاد العرب ومنها المملكة النبطيّة فصارت الغرامة تدفـع إلى الملكة المصرية. ولعل مالكاً اعتقد أن هذا ينمّ عن ضعف الرّومان، فصار «شـديد البخل ويتباطأ في تسديد ما عليه من مدفوعات، ويبدي ممانعة في دفع بعض ذلك المال، وحتى حين يدفع يجري على مدفوعاته حسـومات. وهنا تهيأ هيرود لمواجهة ملك بلاد العرب، بسـبب نكرانه ما أسداه له من صنيع، فضلاً عن تعنته وممانعته في تقديم النجدة وهي حق له».

وكان هيرود قد أنشأ جيشاً عرض أن يستخدمه أنطونيو في معركته ضد أوكتاڤيوس، »ولكـن أنطونيـو ردّ بأنه لا يريد منه مسـاعدة، إنما أوعز إليـه بعقاب ملك بلاد العرب، إذ بلغـه، من هيـرود وكليوپاترا، مدى ولوغه في الغدر؛ ولأن هـذه رغبة كليوپاترا التي وجدت أن من المفيد لها أن ينزل الملكان ببعضهما أشد العقاب». ولكن إذا كان مالك صاحب غدر فإن كليوپاترا أشـد منه غدراً. ولقد سـار هيرود بجيشه مع جنود كليوپاترا لمهاجمـة الأنبـاط وحقق نصراً كبيـراً؛ ولكن القائد الذي أرسـلته كليوپاترا كانت لديه أوامـر بـأن «يهدأ ويخلد إلى السّكون فـي حال أتى العرب بأي أمر يتسـم بالشـجاعة وحقق نجاحاً؛ أما إذا انهزموا، كما حدث فعلاً، فإن عليه أن يهاجم اليهود بتلك القوات الخاصة به إلى جانب تلك القوات التي خصته بها بلده».

فهاجـم المنتصرين المنهكين ولا بـدّ أن النتائج التي حققتها تلـك القوات كانت تطابق توقعات كليوپاترا لأن هيرود مني حينذاك بهزيمة تامة حتى أنه «لم يعد بوسـعه أن يتصرف إلا كقاطـع طريق، ويقوم بجولات في بقاع عديدة من بلاد العرب والتنغيص عليها بغارات يشـنّها فجأة». وفي العام التالي 31 ق.م عانت يهوذا من هزة أرضية فاعتقد الأنباط أن هذه فرصة سانحة، ينبغي ألا تفوّت لتدمير العدو في بلده ذاته. وكان الموفدون اليهود قد مضوا إليهم لعقد سلام، إن أمكن، ولكن الأنباط الشرسين قاموا بإعدام السّفراء ومضوا يقصدون يهـوذا. وفي هـذه المرة لم يكن هنـاك مصريون خونة فـكان نصر هيرود تامـاً ناجزاً بحيث تمكن من الاستيلاء على أرض واسعة من المنطقة النبطيّة.

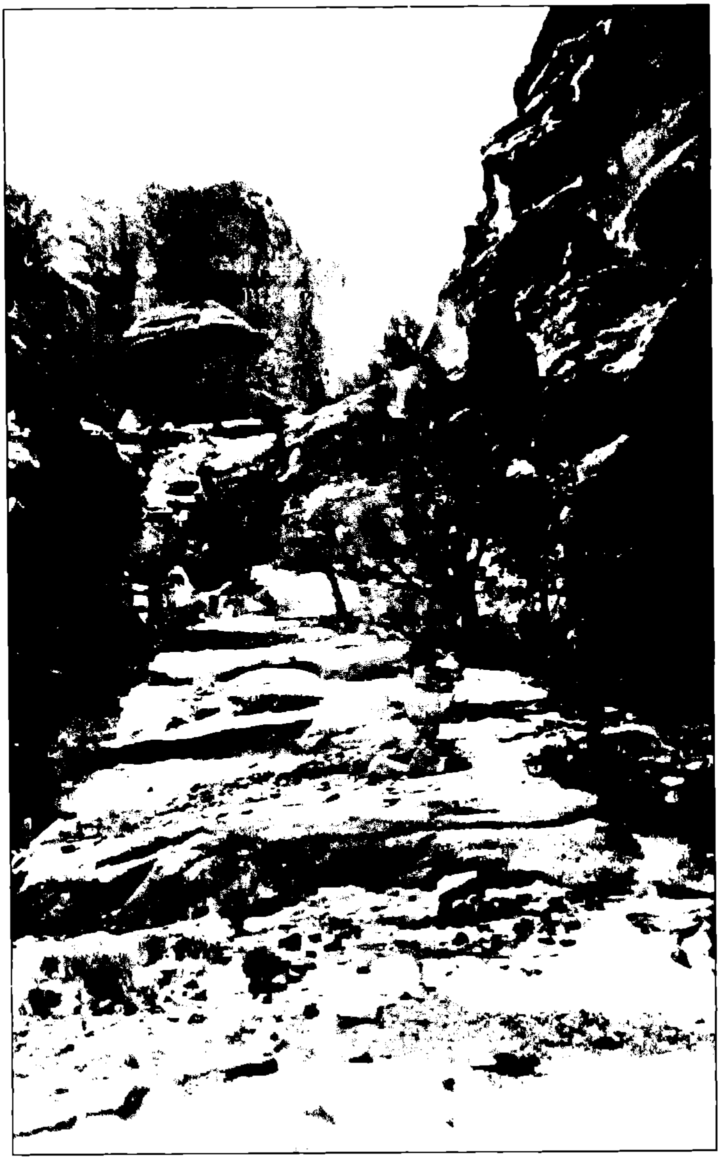
أمـا الملك التالي الذي حظـي بالذكر فكان عُبادة الثاني الذي اسـتمرّ حكمه ما بين 28 حتى 9 ق.م. «كان ثمّة ملك على بلاد العرب اسـمه عُبادة وكان رجلاً بليداً كسـولاً

بطبعه؛ ولكن سـلي (سـيلاوس) وزيره كان يتولى تصريف معظم شـؤونه». وكان هذا أحد الخبثاء وأشد العرب مكراً ودهاءً، وبوسعه أن يضلّل الأوروپيين دوماً. فلما رغب أوغسـطس بتهيئة حملة على بلاد العرب عرض سـلي تقديم ألف من الجنود والأدلاء الأنباط لإرشـاد القوات الرّومانية على طرق الصّحراء. ويصف سترابو الوضع الفاجع بعبارات تنمّ عن الهلع مما أقدم عليه سـلي من الخداع وأفعال الشر. «لقد أكّد أنه ليس هناك من طريق برّية ليسلكها الجيش ليبلغ ليوقِه قومِه[1] Leuke Kome، أي الحوراء، التـي يأتي إليهـا ويذهب منها تجار الجمال من أهالي البتراء بسـلام ويسـر، ومثل هذا الحشد من الرّجال والجمال لا يختلفون عن الجيش بأي حال من الأحوال».

ولقد سـار سلي دليلاً مرشـداً للجنود الرّومان في أكثر مناطق الصّحراء جفافاً حتى مات منهم عددٌ عظيم عطشـاً، ثم بعد أن دار بهم رجع إلى البحر من جديد. وجلي أنه كان لسـلي غرضٌ محدّد جعله يسـلك هذا المسـلك؛ ولعله لم يكن يعتزم في الأرجح أن يدلّ الغرباء على طريق القوافل، وخاصة الذين قد يسـتخدمون معرفتهم في مطاردة القوافل والاسـتيلاء على التجارة. وقد كان سـلي رجلاً طموحاً، وبلغنا بعدئذ أنه وقع في هوى سـالومي أخت هيـرود الكبير وطلب الزّواج بها. وكان هيرود على اسـتعداد للاسـتجابة لطلبه إنما شـرط أن يتخلّى سـلي عن ديانته ويتحول إلى اليهودية، وهذا ما أبـاه. ويبـدو أنه نقم على هيرود لهذا السّـبب، لأنه ترك عصابـات اللصوص تغير على اليهودية، حين غادر هيرود لزيارة روما. وكانت هذه العصابات قد عانت التشتيت على يـد قادة جيش هيرود فالتجؤوا إلى حمى ملك الأنباط. وكان هؤلاء «قد انسـحبوا إلى عمـق بـلاد العـرب، وصار سـلي يرعاهم بعد أن فاتـه الزّواج بسـالومي فمنحهم مكاناً منيعاً يلجؤون إليه. وهكذا باتوا لا يهاجمون اليهودية وحسب بل صارت منطقة سوريا كلها في متناولهم وجعلوا منها فريسـة بينما منحهم سلي أماكن يلجؤون إليها للحماية والهدوء في حياتهم الشريرة».

---

(1) تعرف اليوم بأملج واسمها القديم الحوراء، وكانت ميناءً نبطياً على البحر الأحمر، وموقعها اليوم إلى جنوبي ينبُع، وتبعد عن تبوك بحوالي 400 كم إلى الجنوب.



الطريق المعبد إلى الدّير

ولقد طلب هيرود عقب عودته تسليمه اللصوص وتسديد الدّيون المترتبة على عُبادة وكان هذا قد اقترضها بوساطة سلي. وكان حكام سوريا الرّومان قد نظروا في الدّعوى، وأمروا سلي بتسديد الدّيون وتسليم اللصوص. فوعد سلي الدّاهية بتنفيذ المطلوب ثم أبحر مسافراً إلى روما حيث عقد صداقة مع القيصر. فأخذ هيرود بزمام القانون بيديه ووجّه حملة ضد اللصوص، فدارت عندئذ معركة قتل فيها القائد النبطي وبعض الجنود من الجانبين، وكان هيرود يتمتع عندئذ بالتفوّق ممّا مكنه من إقامة حاميات في المملكة النبطيّة يبلغ تعداد أفرادها ثلاثة آلاف. ولما بلغت سلي الأخبار راح يسمع القيصر شكواه، فأبدى له كل عطف، حتى نال هيرود من سيده ومولاه أشد تقريع.

وكان عُبادة في تلك الأثناء قد مات، وتولى الحكم من بعده إينياس، وكان هذا حارثة الرّابع؛ والمفترض أنه الوريث التالي، وهو ابن عُبادة أو حفيده، سوى أنه ليس هناك دليل على هذا، إلا أن سلي حاول على ما يبدو الإطاحة به للاستيلاء على التاج.

كانت الجهود التي بذلها سلي وحارثة كلاهما للفوز بسماع قيصر موشحة بالكثير من الافتراءات والرّشا والاتهامات المضادة. فقد بعث حارثة إلى قيصر تاجاً يزن عدة طالنات من الذهب، ورسالة يتهم فيها سلي بقتل عبادة بالسم والعديد من الجنح غير ذلك». ومع ذلك فإن قيصر لم يصغِ لهذه الاتهامات وإنما رد السّفراء من حيث أتوا دون أن يستلم الهدايا التي يحملونها.

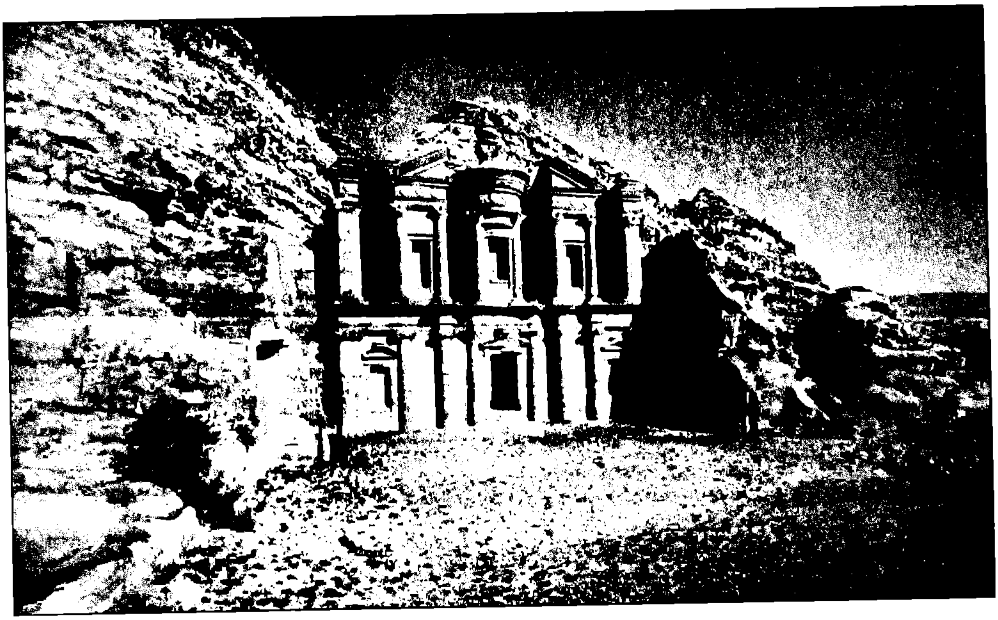
وفي النهاية، تمكن هيرود كالعادة من استمالة قيصر ثانية بالإثبات للإمبراطور أن الخطأ كله من جانب سلي، أمّا أن الأدلة صحيحة أو غير صحيحة في هذا الاتهام فلا يمكن الجزم في هذا الأمر. ولكن تبقى الحقيقة وهي أن قيصر قد أخذ بها و»أبعد سلي رداً على دعوى هيرود، وأن يقوم بتسديد الدّين المترتب عليه، وبعدئذ ينزل به العقاب (الموت)... وقد استقبل القيصر رُسل حارثة؛ وبعدما ندّد به قيصر لرعونته، لعدم تمهله حتى يتلقى منه المملكة، قَبِل منه هداياه وأقرّه في حكمه».

ويعود الملك النبطي فيظهر على نحو مفاجئ في العهد الجديد (الرسالة الثانية إلى أهل كورنثة؛ 11: 32، 33)، فيرد ذكر حارثة حين كان بولس الرّسول يسرد مغامراته:

«كان الحاكـم بدمشـق تحت إمـرة آريتاس الملـك (حارثة) يحرس مدينة الدّمشـقيين ليقبـض علـيّ؛ فدُليت من كـوة في زنبيل من السّـور ونجوت من يديـه». وكان لبولس اتصال آخر باسم آريتاس = حارثة، ذلك أنه نزل في رحلته من مالطة إلى روما على متن سـفينته كاسـتور وپولكس *Castor & Pollux* في پُتيولي Puteoli حيث وجد نقشـان باسم آريتاس الرّابع – حارثة الرّابع.

ولقـد دبّ بيـن هيرود أنتيپـاس ابن هيرود الكبيـر وحارثة الرّابع نفور بسـبب قضية عائليـة. ذلك أن هيرود كان قـد تزوج ببنت حارثة «وعاش وإياهـا فترة حافلة»؛ ولكنه وقـع في هـوى هيروديـاس أثناء زيارته رومـا ذات يوم، وقد وافقت علـى الزّواج به إن هـو طلّق ابنـة حارثة. وكان هيرود جاهلاً بطرائق النسـاء فاعتقـد أن زوجته غير مطّلعة على نواياه، ولما سألته الإذن بزيارة مخايرس (مقاور) الواقعة على حدود منطقة أبيها، أذن لها بالسـفر. وكانـت المرأة قد تهيّأت للأمر وأحكمـت التدبير ولـم تكن مخايرس سوى محطة على الطريق قبل أن تحط الرّحال عند أبيها في البتراء. وكانت الإهانة التي لحقـت بابنتـه بالإضافة إلـى عجرفة هيرود عنـد تناوله بعض الخلافـات الحدودية قد أثارت حارثة وتهيأ للمعركة. ولقد دُمِّر جيش هيرود بفعل الخيانة».

واعتقـد بعـض اليهـود الآن أن دمـار جيـش هيـرود جـاء من اللـه وعقاباً لمـا أقدم عليه في حق يوحنا المسـمى المعمـدان. «فانتصر الرّومان لهيرود، واسـتعد فتليوس، ومعـه فيلقان، لشـن الحرب علـى حارثة؛ كذلك حمـل معه عدداً من المشـاة الخفيفة والفرسان الذين يدعمونهم، وأسرعوا إلى البتراء». ولكن فتليوس لـم يقيض له أن يبلغ البتراء، بسـبب وفـاة طيباريوس، »ولـم يكن لديه تلك الصّلاحيـات التي كان يتمتع بها من قبل». ولعل فتليوس قد سـمع في الأغلب بأن حارثة استشـار العرافين لديه فتنبؤوا بـأن فتليـوس لن يدخل البتراء قط، لأنه سـوف يموت إما الحاكـم (الإمبراطور) الذي أمر بشـنّ الحرب أو قائد القوات الرّومانية التي كانت تقترب. وقد تحققت النبوءة في طيباريوس، واعتقد فتليوس أن الحذر من الشـجاعة فانسـحب إلى أنطاكية، وهي آمن مسافة من البتراء وسحرتها.



الدّير

ويبدو أن حارثة الرّابع تمتع بعهد من الرّخاء لم يتخلله شيء من اضطراب الأحوال. وشـأن العـديـد مـن الملـوك فـي تلك الفتـرة ألحق باسـمه لقباً هو «رحيـم عَمهو» *Rahem-ammeh*، أي «محبّ شـعبه». ويفسـر سـلوكه ما أصابه مـن الرّخاء والنجاح حتـى آخر عهده الطويـل. وقد كانت وفاته في العام 40 ميلادية، وبعد حكم دام تسـعة وأربعين عاماً.

وخلف حارثة أبياس [مالك الثاني] أو كان هذا على الأقل الملك التالي ممن بلغنا شيء عن تاريخهم عند الأنباط. وقرابة العام 46 ميلادية سُمَّي أبياس من أهالي أديابين، وهـي مقاطعة آشـورية شـرق أعلـى نهر دجلة، لمسـاعدتهم فـي ثورتهم علـى العائلة المالكـة التـي كانت قد تحوّلت سـراً إلى اليهودية. فقد كتب نبـلاء أديابين إلى «أبياس ملـك العـرب ووعـدوه بتقديم مبالـغ طائلة من الأموال إن سـار بحملة علـى ملكهم؛ وزادوا بأنهم سوف يتخلون عن ملكهم حال وصول قوّاته؛ ولكن المؤامرة فشلت وتم لملك أديابين دحر أبياس الذي انتحر حين وجد نفسه مطوقاً من كل جانب». ولعل ما حمـل أبياس على خوض هذه المغامرة رغبته في إرسـاء سـلطان الأنباط على الطرف الآخر من نهر الفرات.

وفي عهد نيرون (67 ميلادية) قامت بين اليهود اضطرابات لم يُعهد لها مثيل من قبل، فأرسـل تيطوس وڤسـپازيان[1] لقمع الثـورات هناك. ولمّا اتخـذت تلك الاضطرابات أبعـاد حـرب حقيقية، زجّ القائـدان بجيش لجب فـي الميدان؛ وكان هنـاك إلى جانب هـذا الجيـش الكبير عـددٌ لا بأس به مـن القوات الإضافيـة للدعم جاءت مـن الملوك أنطيوخوس، وأغريپا، وسـوهيمس، حيث زجّ كل واحد منهم بألف من الرّماة الرّاجلة وألـف من الفرسـان. كذلك وجه ملك بلاد العرب مالك للمشـاركة فـي الحملة ألف فارس فضلاً عن خمسـة آلاف من المشاة، والقسـم الأعظم منهم رماة؛ فاجتمع تحت إمرة ڤسـپازيان وتيطوس سـتون ألفاً من الفرسان والمشاة وقوات الدّعم والمؤازرة من الأجانب.

---

(1) وتيطوس بالمناسبة ابن ڤسپازيان.

ونصادف من جديد صفحة بيضاء في تاريخ الأنباط، ثم يحكم البتراء ملك يدعى ربّ إيل. وقد دام حكمه ما بين 71 و 106 م. وليس لدينا شيء عنه سوى ما بلغنا من بضعة نقود ضُرب عليها اسم أمّه فضلاً عن اسمه. ولعل هذا يشير إلى أنه كان صغيراً، أو أن ملكة البتراء كانت تشارك الملك حكمه.

وبعد ربّ إيل أصبحت البلد مقاطعة رومانية وجرى تقسيمها في القرن الرّابع في ثلاثة أقسام الجنوبي منها فلسطين الثالثة وعاصمتها البتراء.

وفي ظل سلام الرّومان زالت الحاجة لحماية القوافل، ولما أصبحت مرافئ البحر الأبيض المتوسط حرّة جميعها لم تعد تقتصر التجارة الآن على غزّة وحدها. ولقد تنامت تَدمُر لتنافس البتراء، وكان أن أفل ذكر البتراء بعدئذ ومن ظلمتها التي غرقت فيها لم تطُل إلا الآن. وبالرغم من أنها كانت مركزاً لمطرانية وما زال في الوادي بضعة آثار مسيحية، فقد بلغ تاريخ البتراء مآله وخبا مركزها وصارت إلى نهايتها عملياً وما عادت عاصمة لمملكة وأصبحت مجرّد بلدة على تخوم إمبراطورية. ويبدو أنها فقدت موقعها في المعرفة الأوروبية عبر القرون، وأخذت تستعيد الآن وظيفتها القديمة ملجأ للقبائل التي بوسعها أن تطلب الأمان في حمى صخورها وكهوفها الكئيبة.

سجلّ ملوك الأنباط

(ملاحظة: التواريخ مستقاة من ذكر الملوك عند الكتّاب اليهود أو الكتاب الكلاسيكيين. أما تواريخ صعود الملوك أو وفياتهم فغير متوفرة، وكل ما يمكن عرضه التواريخ المعروفة التي تشير إلى حكمهم. وقد اتّبعتُ في هذا قائمة غوتشميد Gutschmid المتعلقة بالأسماء والتواريخ. أما الملاحظات الواردة بين قوسين فهي تخصّني، ولا تعود لغوتشميد).

قبل الميلاد

312 أول ذكر للأنباط في حربهم ضد أنتيغونس

217 زبد إبيلوس Zabdibelos قائد المرتزقة العرب (الأنباط) في جيش أنطيوخس الكبير (لعله يكون الملك).

169 أريتاس [حارثة] الأول. يلجأ إليه كبير كهنة اورشليم ياسون، حين يطرد من بلده.

146 زبد إيل (أو زابيلوس) يقتل ألكسندر بالاس ويبعث برأسه إلى بطليموس.

145 إيمالكو [مالك] (أو مالكوس أو إيمبليخوس). قام بتربية أنطيوخس ثيوس.

؟ مالكوس [مالك] الأول عرف عن طريق قطعة نقد وحسب (وحتى هذا موضع شك).

97 أريتاس [حارثة] الثاني. عرض المساعدة على غزّة المحاصرة.

93 عُبادة الأول. هزم ألكسندروس ينّايوس.

87 ربّ إيل الأول. يحارب انطيوخس ديونيسيوس.

85 أريتاس [حارثة] الثالث. الفيلهليني. ابن عُبادة الأول. استولى على دمشق. قطع نقد لعامه الثاني والثلاثين.

47 مالك الثاني. قدّم للرومان قوات الفرسان لمؤازرتهم في الحرب الإسكندرانية.

25 عُبادة الثاني. توفي عام 9 ق.م (تم تأليهه).

8 أريتاس [حارثة] الرّابع. فيلوديموس. تزوجت ابنته هيرود انتيباس الذي طلقها ليتزوج هيروديا‌س. توفي حارثة عام 39 م. الملكات: (1) خلدو، (2) شقيلت.

67 مالك الثالث بعث قوات مؤازرة للرومان في حرب اليهود. أعلن في العام 77م ملكاً للأنباط. تظهر النقود صورته وزوجته - أخته شقيلت[1].

---

(1) تدعى الملكة لدى الأنباط أخت الملك زوجها. ولعل ذلك عرف جرى على نسق تلقيب الوزير بأخي الملك، ولا يعني صلة قربى كما لدى المصريين. انظر ص 62 إحسان عباس، تاريخ دولة

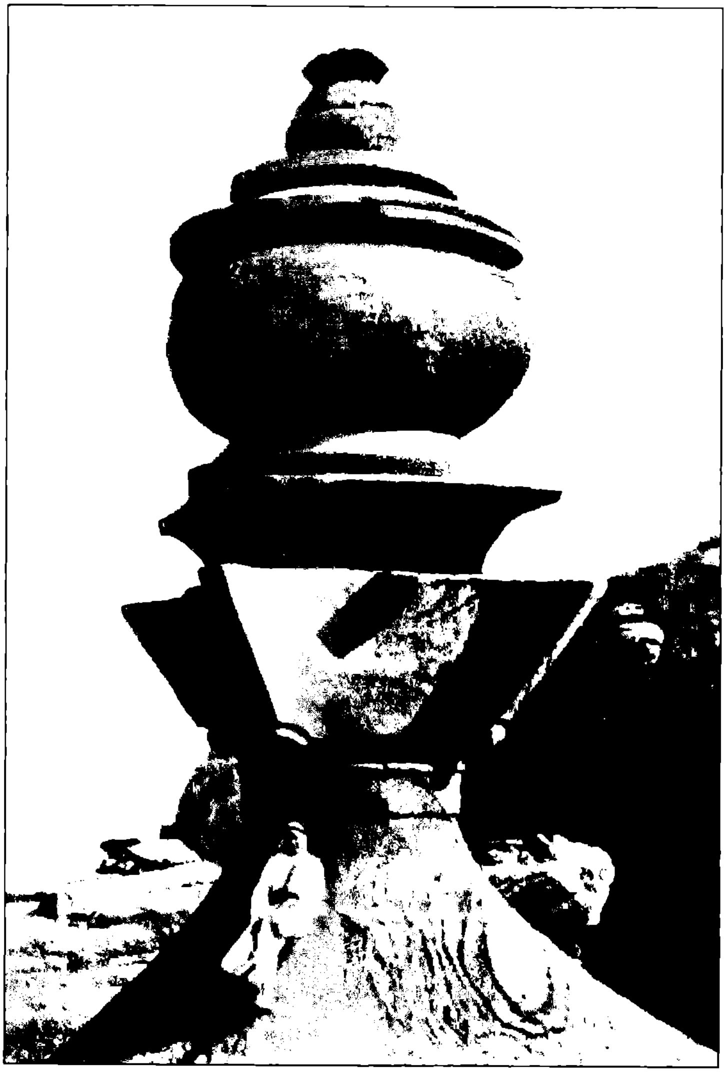
بعد الميلاد

؟ إيواس يقال إنه وضع كتاباً في علم النبات وقدمه لطيباريوس (لعله منحول).

71 – 95 (تقريباً) ربّ إيـل الثاني. يبدو قاصراً حين صار ملكاً لأن النقود المسـكوكة باسمه تظهره أولاً ووالدته شقيلت؛ وفيما بعد مع زوجته جميلت.

106 نهاية مملكة الأنباط. تتحول البتراء العربية إلى مقاطعة رومانية.

الأنباط، دار الشروق، عمّان، الأردن 1987.



الجرّة فوق الدّير

الفصل الخامس

تجارة البتراء

تعود أهمية البتراء إلى حد بعيد لموقعها الجغرافي. فهي تقع في منتصف الطريق تقريباً بين مرفأ عصيون – جابر (العقبة) على البحر الأحمر وميناء غزّة الواقع على البحر الأبيض المتوسط. وكان الطريق عبرها مباشر إلى أبعد حدّ كما أنه عملي لسير الجمال؛ وقبل كل شيء آخر كان هذا المكان يتمتّع بوفرة بالغة من الماء. ولا يبعد إلا أميالاً قليلة عن الطريق الرّئيسة – الطريق الملكي العام – المؤدية إلى دمشق وسوريا الشمالية، بحيث أنه حين تأسّست في البتراء الأسواق لتجارة غزّة وجد تجار الشمال في هذا الموقع تيسيراً لهم، إذ لا يحتاجون عندئذ سوى الالتفاف قليلاً ثم الانشغال بتدبير أعمالهم هناك.

والمؤكد أن جزءاً كبيراً من التجارة كان يمر في فترة مبكرة بأدوم، وربما بالبتراء، والشاهد يدلّ على أن سليمان أدرك ما ينطوي عليه الاحتفاظ بالمرفأين، العقبة وغزّة، من أهمية، نظراً لمرور الحركة التجارية بهما، ويحتمل أن يكون مردّ استمرار القلاقل بين أدوم ويهوذا إلى رغبة كل منهما في الحصول على ما تأتي به التجارة مع الشرق من ثروات والسّيطرة عليها، بعدئذ.

هناك بضعة إشارات وردت في الكتاب المقدّس تومئ إلى حضارة أدوم قبل مجيء بني إسرائيل، فقد كان القينيون صنّاع معادن قبل إبراهيم. بينما ظل بنو إسرائيل، بعد عهد طويل من دخولهم أرض الميعاد، لا يستطيعون أن يُصنعوا أو يشحذوا عدتهم وأسلحتهم. وكنتُ قد ذكرت في الفصل الثالث أعمال صياغة الذهب التي اشتغل بها

الأدوميون. ويبيّن عدد الأفران التي تستخدم في صهر النحاس في وادي عربة القريبة من رأس خليج العقبة أنه تمّ الحصول على المعدن من مواقع قريبة من السّاحل. أما مواقع الأفران هذه فليس هناك ما يدلّل بعد على أنها كانت ترجع إلى عهد أبكر من الفترة التي تسبق وجود بني إسرائيل في أدوم، إنما يرجّح أن النحاس المستخدم محلياً كان يُستخرج من هناك، ولعله كان يصدّر إلى الخارج، من بداية عصر المعادن.

وفي عصر سليمان صارت معرفتنا بتجارة أدوم محدّدة قاطعة. وكان داود قد مهّد الطريق ثم تبعه سليمان؛ إذ قهر داود الأدوميين واسترقّهم، واستحوذ سليمان على البلاد وأهلها، وقام من بداية عهده ببناء ميناء عصيون - جابر عند رأس خليج العقبة وجعله واسعاً بما يكفي لاستيعاب عدة سفن. و«الأذى» الذي ألحقه هَدَد الآدومي بسليمان كان في الأرجح نهب القوافل المتجهة إلى والخارجة من عصيون - جابر.

ويمكن تقدير حجم التجارة التي كانت تمرّ بأدوم من النص التالي: «وكان وزن الذهب الذي ورد على سليمان في عام واحد ستمئة وستة وستين قنطار ذهب. غير الوارد من المكّاسين ومن تجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض (سفر الملوك الأول، 10: 14، 15) ويلوح أن أسطول ترشيش قد جرت عمارته في عصيون - جابر لخدمة تجارة الشرق، فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنين حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقردة وطواويس (سفر الملوك الأول، 10 : 22) أي كل البضائع التي تأتي من الشرق. ولكن لا بدّ أن النقل البري كان ينطوي على كثير من الأخطار شأنه في ذلك شأن البحري، وخاصة حينما كان هَدَد يجول في البلاد. وعلى أي حال لا بدّ أن اللصوص وقطّاع الطرق كانوا دوماً متأهبين لمهاجمة أي قافلة تفتقر للقوة الكافية للدفاع عن نفسها.

ويلوح أن مجمل التجارة التي كانت ترد إلى أدوم من البحر الأحمر، تقتصر على السّلع الكمالية إن كان ما جاء في الكتاب المقدّس دقيقاً. وهكذا حملت ملكة سبأ معها الذهب والتوابل والأحجار الكريمة؛ وكانت سفن الملك حيرام تحمل الذهب والأحجار الكريمة وخشب الصّندل؛ وكانت سفن ترشيش أيضاً تحمل الذهب

والفضة والعاج والقردة والطواويس، ويتحدث النبي إرميا بعد زمن طويل عن «قصب حلو المذاق من بلد بعيد». ويبدو أن المقصود قصب السّكر. ولكن هذه اللوائح خالية من ذكر الصّادرات التي كان يجري تبادلها وهذه البضائع الثمينة. ذلك أن فلسطين والبلدان في شرق الأردن كانت قليلة الإنتاج بالقياس بما تحتاجه البلدان الأخرى، ومعظم ذلك مواد غذائية لا تحتمل طول المسافات لتبلغ مقصدها.

وثمّة إشارة إلى صادرات محتملة يحملها النبي عاموس حين ينعي على النحو المألوف عند أنبياء [العهدين القديم والجديد] جميعهم شرور الناس في عصره. وبعض إدانته موجه إلى غزّة، النهاية الغربية لطريق التجارة، لكونها تتعلق بتجارة الرّقيق «هكذا قال الرّب إني لأجل معاصي غزّة الثلاثة والأربع لا أردها لأنهم أجلوهم عن آخرهم ليسلموهم إلى أدوم... هكذا قال الرّب إني لأجل معاصي صور الثلاث والأربع لا أردها لأنهم سلموهم مجلين عن آخرهم إلى آدوم ولم يذكروا عهد الأخوة». (نبوءة عاموس، 1: 6، 9).

وإذا كان الاتجار بالرقيق يمثل الصّادرات الرّئيسة من فلسطين وشرق الأردن فسوف يبرز السّؤال عندئذ بشأن مصدر الرّقيق أصلاً. وأول مصدر للرقيق، طبعاً، أسرى الحرب، ومزيّتهم الأولى تكمن في أنهم شبان أقوياء يجعلون التجار ينالون ثمناً جيداً في سوق النخاسة، ولكن الحروب لم تكن بالكثرة، حتى في تلك الأزمنة المضطربة، بما يسمح بتوفير العروض الموافقة للطلب. ومن جديد يلمّح لنا (عاموس، 2 : 6) كيف كان يتوفر العرض: «هكذا قال الرّب إني لأجل هذه المعاصي الثلاث والأربع لا أرده لأنهم باعوا الصَديق بالفضه والمسكَين بنعلين».

وكان اليهود مشهورين بامتلاك الرّقيق والاتجار بهم. وإحدى أخبارهم الموثقة في هذا المجال بيع أشقاء يوسف أخاهم رقاً. «فلما جاء يوسف إخوته وأخذوه وطرحوه في البئر... ونظروا وإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محملة نكعة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون لينزلوا إلى مصر. فقال يهوذا لأخوته... تعالوا نبيعه للإسماعيليين... فمر قوم مدينيون تجار فجذبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه

للإسماعيليين بعشرين من الفضة (سفر التكوين، 38: 23 – 28). ويبدو القول أنه يمكنهم شراء أحد العبيد على قارعة الطريق كان أمراً مألوفاً ولا يدعو للاستغراب. وهذا يعني أنه ليس في هذه الواقعة ما هو غريب، بل ويمكن بسهولة التخلص من أي فرد غير مرغوب به من أفراد الأسرة.

وقد قام اليهود منذ حلولهم في أرض الميعاد باسترقاق سكان البلاد «... فمن الأمم الذين حواليكم تقتنون العبيد والإماء. وأيضاً من أبناء الغرباء.... ومن عشائرهم الذين عندكم.... هم يكونون لكم ملكاً وتورثونهم لبنيكم من بعدكم إرث ملك وتستخدمونهم أبداً...» (سفر الأخبار، 25: 44 – 46). ومن هؤلاء كانوا يزودون أسواق الرّقيق في الشرقين الأوسط والأقصى، لكن من المشكوك به أن تستمرّ هذه التجارة مع الشرق بدون وجود إمداد منتظم يلبي الطلب.

وجدير بالملاحظة أن هادريان باع السّجناء لديه في سوق النخاسة حين أراد قمع ثورة اليهود في العام 119 م، وكانت غزّة المكان المختار لسوق الرّقيق. فيبدو أن غزّة لوقوعها عند نهاية طريق التجارة من الشرق كانت المكان الطبيعي لمشروع هادريان.

وكان هناك تصدير للنحاس على ما يبدو، إلى جانب تجارة الرّقيق. فقد كشفت التنقيبات الأثرية الأخيرة في وادي عَرَبة بالقرب من شاطئ خليج العقبة عن موقع يزعم المنقبون أنه فعلاً عصيون – جابر. وتفسّر المسافة الفاصلة عن البحر بانحسار البحر منذ أيام سليمان، ولكن يبدو أنه ليس ثمّة آثار لمرفأ أو قوارب. ومع ذلك فثمّة دليل على أعمال صهر للمعادن في الموقع، وفي ذلك ما يشير إلى الموقع باعتباره مكاناً يجري فيه استخراج فلزات المعادن المنقولة من المناجم المجاورة. وتشير الفخَاريات التي تعود إلى العصر الحديدي، إلى التاريخ الذي ينتمي إلى زمن سليمان. ثم إن قرب الموقع من البحر يضفي عليه أهمية من حيث أنه يقلل من حجم العمّال ومخاطر النقل. ويبين هذا الموقع على الأقل أحد الأسباب التي تجعل أعداء الأدوميين يرغبون في حيازة أرض هناك، وإن كانت فقيرة الإمكانات من ناحية الزّراعة وتدعو للعزوف عنها بسبب أرضها الصّخرية وجفافها، لكنها غنية بالمعادن لأولئك الذين يتمتعون بالمعرفة

للعمل بالمعادن. وليس يستبعد أن يكون صهر المعادن صناعة محلية مما يفسر الرّأي القائل إن القينيين، مجسدين في شخص توبال - قايين كانوا يعملون في المعادن.

لقد ظلت عصيون - جابر بعد عهد سليمان في أيدي ملوك يهوذا حتى بعد أن تخلصت أدوم من نير العبودية التي كانت ترزح تحتها. وجاء عزيا بن أمصيا صاحب الذكرى الرّهيبة «وهو الذي بنى إيلت واستردها ليهوذا...» (سفر أخبار الأيام الثاني، 26 : 2) وكان هذا جهداً بلا طائل من يهوذا لتبقي قبضتها على التجارة مع الشرق، لأنه في عهد أحاز، وهو حفيد عزيا، برز رصين، ملك سوريا (أي أدوم) مع ملك إسرائيل لقتاله؛ ورغم أنهما لم يفلحا في الاستيلاء على أورشليم فقد أفلحا في أن ينتزعا من يهوذا المناطق المحيطة بما في ذلك إيلات وهذا آخر ذكر يرد لإيلات في الكتاب المقدّس. ولعل حال الاضطراب في البلد ووجود عصابات قطاع طرق يجوبون المنطقة جعلا التجارة تنحسر حتى أرسى الأنباط سلطانهم وأعادوا الأمن إلى الطرق من جديد. ويبدو أن اسم إيلانا الذي أُطلق على مرفأ العقبة في العصور الرّومانية تحريف لكلمة إيلات، ولعل بناءه كان على الموقع ذاته أيضاً.

ومن المؤكد، على أيّ حال، أن التجارة لا بدّ استمرت، مع أنها ربما تقلصت بعدئذ؛ فالواقع أنها أشد أهمية من أن تُترك لتتوقف. والسّبب الأرجح لسقوط المرفأ في أيدي الأنباط أن كافة السّفن التي تبحر في البحر الأحمر إلى الشرق أو ترد منه لا بدّ لها من أن تمر بجزء ما من السّاحل الغربي. وقد كان الأنباط العرب سريعين في تبيّن الفائدة التي سوف يجنونها متى تم تفريغها في مرفأ عربي بدلاً من ميناء مصري. وكانت المحاولة الأولى لتوجيه التجارة إلى خليج العقبة كارثة على الأنباط، لأن المصريين عمدوا عندئذ إلى توجيه حملة تأديبية أنزلت بهم هزيمة تامة. ثم نال الأنباط مبتغاهم، فيما بعد، وحين بدأت القوة المصرية تضعف أخذوا يوجهون السّفن التجارية إلى المرفأ القديم عند رأس خليج العقبة. وهكذا صاروا يتابعون التجارة عبر منطقتهم إلى البتراء حيث يمكن للتجار من الشمال والغرب تبادل السّلع مع تجار الشرق.

وفي ذلك الوادي المنعزل، وادي البتراء، الذي تسهل حمايته وحيث المياه غزيرة

يمكن تأسيس الأسواق فيها كما يستطيع التجار القدوم إليها والذهاب منها بأمان. وقد وفّرت الكهوف الطبيعية مستودعات مناسبة لتخزين البضائع، بينما تصبح الكهوف الأخرى بقليل من التحسين مرابع للبشر، وثروات الشرق والغرب تتدفق عبر الوادي كما المياه الجارية في أراضيها. ولقد أدرك الأنباط مثل التجار كلهم قيمة الانتقال الآمن، فهم يعلمون أنه إذا لم تكن السّلامة مكفولة فإن التجارة سوف تتحوّل عندئذ إلى قنوات أخرى مما يؤدي إلى فقدان البلد الذي تغادره ثروته. وعلى ذلك نصب هؤلاء القوم أنفسهم حُماة لكل طرق التجارة في المنطقة.

ولقد سيطر الأنباط على الصّحراء الشرقية التي ضمّت كل الأراضي الواردة في الكتاب المقدّس من أدوم ومؤاب وعمّون، وجعلوا دمشق ذات يوم عاصمة مملكتهم الشمالية. وجديرٌ بالملاحظة أن هضبة شرقي الأردن كلها تحفل ببقايا الأنباط؛ ففوق كل تل ثمّة حصن أو حامية نبطيّة. وبذلك كانت المنطقة كلها حسنة الحراسة والحماية. فقد كان التجار من بلاد العرب أو العقبة يأتون إليها بقوافلهم من الجمال وهم مطمئنون أنهم متى دخلوا الحدود النبطيّة وسدّدوا ما يترتب عليهم من رسوم صاروا يتحركون في منطقة الأمان. ولا ريب بأنهم قد دفعوا ثمناً غالياً لقاء هذا الأمان، إنما كان هذا يستحق الثمن، كما أنه جعل الأنباط يزدادون ثراء وقوة.

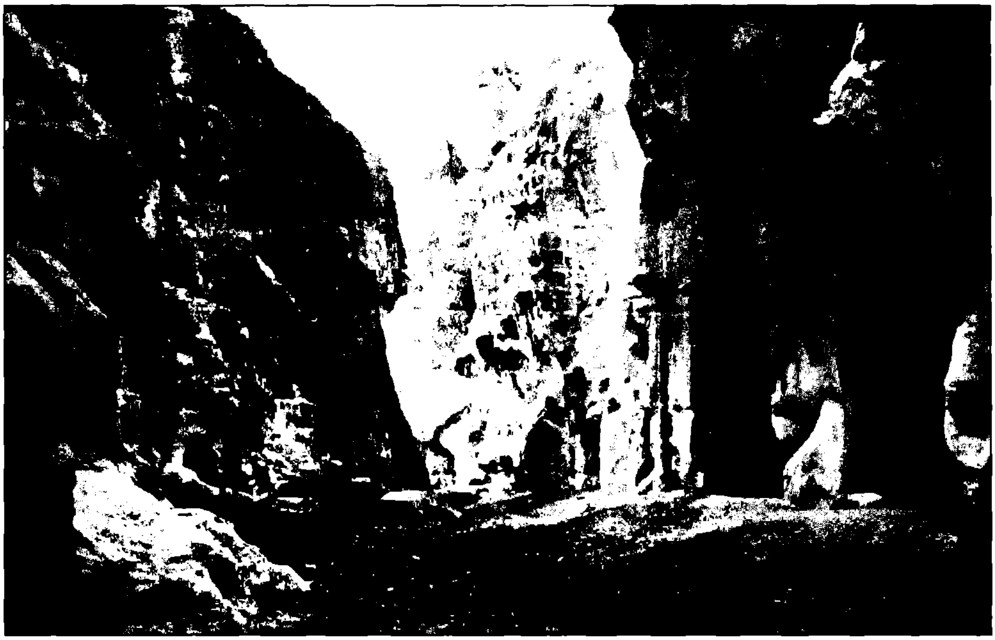
امتدت الفترة التي بلغت فيها قوة الأنباط حدّها الأعظم من القرن الرّابع قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي. ولقد تأثر ديودوروس الصّقلي بما سمع عنهم وخاصة ما عرف عن نهجهم في مراوغة الأعداء في منطقة تبدو عطشى لا ماء فيها. ونطالعه يقول: «لديهم آبار محفورة في مواضع مناسبة لا تدري بها القبائل الأخرى، فيلجؤون إلى هذه المنطقة لا يطالهم فيها أحد، بينما يجهلها مطاردوهم الذين يقضي عليهم العطش»؛ ويتابع فيقول: «ولذلك لم يتمكن الآشوريون أو الميديون أو الفُرس، فضلاً عن ملوك المقدونيين من إخضاعهم». وليس من المستبعد أن ديودوروس الذي كان من الجليّ أنه ينقل ما كان قد سمعه بالإضافة إلى معرفة غير كافية لم يدرك أن الأنباط قد قطعوا منذ عهد بعيد قبل زمانه مرحلة الرّعي وأصبحوا قوة تجارية عظمى. ولا

ريـب بـأن آبار المـاء المخفية في الهضبة كانـت ذات قيمة عظمى للقوافـل التي يكون الأنباط أجازوا لها المرور «على الطريق الملكي العام».

ترسّخت العلاقات التجارية في شرقي الأردن بقوة، منذ العام 312 ق. م حين وجه أنتيغونِـس حملتـه إلى البتـراء، وكانت رغبته في تسـيير أعمال التجارة هـي التي دفعته إلـى محاولة مفاجأة البلدة والاسـتيلاء عليها. ولم تكن البضائع والسّـلع محفوظة في المخازن وحسب، بل وكان العدد الأكبر من الرّجال يحضرون أحد الأسواق التجارية كذلـك بحكم العمل. وغني عن القول أن القائد السّـلوقي قـد ترقّب فرصته وهو يعلم أن التجار سـوف يغيبون لحضور المعرض التجاري والمخـازن مليئة وليس هناك من يحرسها.

ويتحدث سترابو، وهو مصدر أفضل من سابقه في شأن البتراء لأنه يستقي معلوماته مباشـرة، مـن أحد سـكان المنطقـة، فيخبرنا عـن جزيـرة تدعى فوكاي (وهي سـيلس وتعرف اليوم باسـم شـدوان) قريباً من أقصى شبه جزيرة سـيناء، وغير بعيدة عن لسان رأس محمّد. ويمتد هذا اللسان «باتجاه البتراء، فيطلق عليه العرب اسم النبطي، ونحو بـرّ فلسـطين... إلى هـذه الجزيرة المينـاي والجرهـاي... وكافة الشـعوب المجاورة تصلـح أحمالها من العطور... ويلي ذلك اللسـان الخليـج الإيلاني (العقبة) والنبطي، وهـي بلاد مسـكونة وتمتلئ بقطعان الماشـية». ويمضي سـترابو يصف البتـراء، ولئن كان هذا الوصف يفتقر للدقة فإنه مع ذلك خالٍ من الأخطاء الفادحة التي تفسـد رواية ديودوروس.

وأمـا روايـة پلينيـوس فدقيقـة في الجملـة. فيقـول: «للأنبـاط مدينة تسـمّى البتراء وموضعها واد عميق دون الميلين عرضاً وتطوقها جبال شاهقة صعبة المسالك ويجري بينها نهر متدفق. وهذا موضع يبعد ستمئة ميل عن غزّة، ومئة وخمسة وثلاثين ميلاً عن الخليـج العربي. وفي هذا المـكان يلتقي طريقان، أحدهما يمتدّ من سـوريا إلى تَدمُر، والثاني من غزّة».



منازل في سيق البارد

لقد أخطأ پلينيوس في تقدير المسافات؛ فالمسافة من غزّة إلى البتراء تبلغ مئة وعشرين ميلاً رومانياً، وربما كان مردّ الخطأ في الأرجح تبديل مواضع الأعداد المتعلقة بتحديد المسافات فحلّ أحدها محل الآخر.

كانت طريق القوافل التجارية مربحة على الدّوام، فكان من الطبيعي أن تزداد ثروات الأنباط. بيد أن تفاصيل التجارة لا تعرف. فالتنقيبات الأثرية لم تكشف عن كثير من الأشياء، ذات الصّنعة أو الأصل الأجنبي. لذلك كان أقرب إلى الصّواب القول إن التأثير الأجنبي لا الأشياء الأجنبية ما يمكن أن يصادفه المرء في البتراء. ولا ريب في أن الفن الهيليني المتأخر قد أثّر في العمارة؛ وكانت الأنماط الفنية يونانية أكثر منها رومانية، حتى بعد الغزو الرّوماني الأول. ومهما كانت اللغة الأساسية للأنباط فإنهم على ما يبدو قد اعتمدوا الآرامية في نقوشهم، وفي لغتهم في الحديث أيضاً. ولكن لا بدّ أنه كان لديهم مترجمون لمساعدة التجار الشرقيين الذين لا تشبه لغتهم اللغات السّامية كالعربية والآرامية.

وهناك مقدار لا بأس به من الشواهد الأدبية والتاريخية لدى الجانب الصّيني في ما يتعلق بالتجارة بين الصّين والشرق الأدنى، عن طريق البحر الأحمر. إذ تكشف الوثائق التي تعود إلى نهاية القرن الأول الميلادي، وقبل إخضاع الأنباط على يد روما، أن التجارة ليست جديدة، وإنما استمرّت بعض الوقت، وربما قرناً أو يزيد. حيث يرد في بعض الرّوايات اسم موقع كان الصّينيون يتاجرون فيه، وهو «لي - كان» فيذهب بعض الثقات إلى أن هذا الاسم هو المعادل الصّيني لـ«رقيم»، الذي يعده يوسيفوس وكتاب قدماء سواه الاسم الذي عُرفت به البتراء أصلاً. فإذا كان هذا الرّأي صائباً فإنه جدير بالاهتمام على وجه الخصوص من حيث أنه يظهر رقيم اسماً شائعاً، وهذا يعني أن البتراء اسمٌ يوناني محض ولا يستخدمه الأنباط[1] ولا زبائنهم الشرقيون، أو أن

(1) وهل في ذلك ريب؟ ذكرت في المقدمة أن تسمية Petra لا تدلّ على الاسم الحقيقي لهذه المدينة، وما هو إلا ترجمة يونانية لاسمها النّبطي: سلع الذي يعني الصخرة أيضاً.

التجارة الصّينية بدأت قبل أن يتصل اليونان بالأنباط. ولا يبدو أن كلمة سلع العبريّة[1] التي تعتبر على العموم معادلة لعبارة البتراء كانت معروفة عند الصّينين.

كانت كلمة «لي - كان» معروفة منذ زمن تشانغ تشيين، نحو العام 120 ميلادية. ويلوح أن الصّينيين صاروا يطلقون فيما بعد على هذا البلد اسم (تا - چين (Ta -Ch'in، ولكن هذا الاسم لم يصبح متداولاً حتى ورد في الكتابين «هاو هان شو» و»وي ليو» اللذين وضعا في القرنين الثالث والخامس، لكنهما يشيران إلى أحداث وقعت في القرنين الأول والثاني. أما الدّلالة الجغرافية للاسم تا - چين فما زالت موضع نقاش؛ ولكن الكلمة تعني في الواقع «الصّين العظمى»، ومع ذلك فإنها في الأرجح نمط من الكتابة الصّينية لاسم غريب لم يُعرف، بعد، معناه. إلا أن الشاهد يشير على العموم إلى شبه الجزيرة العربية، على أنها «تا - چين». وإذا كان الاسم لي - كان المتقدّم يعادل في الواقع رقيم أو البتراء، ومؤدّى ذلك أن تجارة الصّين بلغت شمال غرب شبه الجزيرة. وفي هذه الحالة لا بدّ أن تكون إيلانا (العقبة) المرفأ.

لكن لا يمكن الجزم بشأن الطريق، وهذه ناحية يكون فيها علم الآثار ذا فائدة عظيمة. ففي الفترة النّبطيّة كان الطريق الأسرع بين الشرق والبحر الأبيض المتوسط البحر الأحمر وعبر الشريط السّاحلي الضيق نسبياً، إما إلى غزّة أو نهر النيل. وهذا من شأنه أن يلغي النقل البري الطويل على الطريق الممتدّ من رأس الخليج العربي إلى انطاكية والمرافئ السّورية الشمالية. فإذا اتّبع طريق البحر الأحمر كان للتاجر الخيار بين بيع بضائعه إما لمصر أو لجزيرة العرب. ولكن لما كانت جزيرة العرب تفتقر لمنفذ إلى بحر الغرب [الأبيض المتوسط] ولا تملك تسهيلات التجارة في حد ذاتها، ومصر منشغلة في ذلك الوقت بالحروب، فيبدو من المرجح أن تذهب التجارة إلى خليج العقبة وأيدي الأنباط. فإذا كان الصّينيون قد أبدلوا الاسم «لي - كان» فجعلوه، كما يبين شاهد التاريخ، »تا - چين» بعد ضعف البتراء فهناك بعض المبرّر لاعتبار لي - كان مساوياً لرقيم.

---

(1) ليست التسمية عبريّة، بل نبطيّة قحّة، والنبطيّة كما تذكر المؤلفة مشتقة من اللغة الآراميّة.

وهنـاك طريـق برية أخرى من الصّيـن إلى رأس الخليج العربي، ثم يُسـتخدم البحر حيـث تلازم السّـفن السّـواحل وهي تدور حول شـبه الجزيـرة العربيـة. فيقول هيرث Hirth في كتابه الصّين والشـرق الرّوماني *China and the Roman Orient* يبدو أنه يمكننـا القـول إن الطريق البحرية من الخليـج [العربي] إلى رقيم كانت القناة الرّئيسـة لتجارة الحرير حتى أيام الحرب الپارثية (162 – 165 م)، بينما مجمل المواد الشـرقية التي ليسـت بحاجة لمزيد من المعالجة (مثـل الصّبغ، التطريز، إعادة الحياكة) في بلاد الفينيقيين، تذهب إلى الإسكندرية لإعادة توزيعها على مجمل الإمبراطورية الرّومانية.

ويلوح أنه بعد اندلاع هذه الحرب، ونظراً لتفشـي الطاعون بصورة مرعبة في بابل، بـدأ اسـتخدام الطريق البحريـة الطويلة عبر سـيلان. فيقول هاو هان شـو: «ومنذ ذلك الوقت، كانت بداية التعامل مع هذا البلد». وإن طريق التجارة البرّية بين أوروپا والصّين معروفة جداً، ولكني لست معنية بتناولها هنا نظراً لأنها لـم تقترب من البتراء قط.

ومع أنه ليس ثمّة قائمة جرد بالسّلع المستوردة للبتراء من الصّين، فيبدو أن بعض هذه القائمة على الأقل كان يتألف من الحرير إما بشكل خيوط أو منسوجات. أما الصّادرات إلى الصّين فكانت المنسـوجات الدّمشـقية والبروكار، ويظهر أن أشكالاً معينة خاصة مـن المنسـوجات الحريريـة التي تُحاك – وربما تُصبغ وتطرز – في فلسـطين وسـوريا كانـت مجهولـة في الصّيـن. وإن كان مزج الخيوط المعدنيـة، أي الذهب والفضة، مع خيوط الحرير في النسـج وطريقة النسج المعروفة باسم دامسكو ما تزال تمارس اليوم كما كانت في أيام الرّومان. وما زالت دمشق تحتفظ بموقعها مركزاً للنسيج الحريري، وكذلـك غزّة والمجدل (وهي قرية صغيرة تقع على مسـافة أميال قليلة عن غزّة) وتقع جميعهـا عند نهاية طريق التجارة من البحـر الأحمر عبر بلاد الأنباط؛ وجميعها ما زال يعمل بمواد الحرير الممزوج بالخيوط المعدنية.

تشـمل صـادرات لـي – كان، وتـا – چيـن إلـى الصّيـن، فضـلاً عـن صادراتها من نسـيج البروكار، والحنّة، والميعة (مادة صمغية يابسـة) والبخور، والحرير الصّخري، والشـاش؛ والزّجـاج، واللؤلؤ، والمرجـان، وكبريتور الزّرنيخ الأصفـر، ورهج الغار،

والمطـرزات، والسّـجاد، والذهب، والفضة، ويبدو أنه كان للزجـاج قيمة رفيعة، على نحو خاص، عند الصّينيين إلى أن تعلموا صناعته. ولعلهم كانوا يسـتخدمونه في صنع الحلي شـأنه شـأن الأحجار الكريمة التي تصدّر إلى الصّين. وهناك أسماء معينة تطلق علـى نوعيـن مـن الزّجاج؛ ومن ذلك پو – لـي *po-li* ويعني الزّجاج الشـفاف، و ليو – لـي *liu-li*، وهـو الزّجاج المعتم غير الشـفاف. ولقد أدّت أعمال التنقيـب التي قام بها الدّكتور غلوك Glueck في موقع التلة إلى نتائج ربما يكون لها أثر في موضوع تصدير الزّجاج. فيقول: «عُثر على نماذج من الزّجاج النبطي الخشن وشديد الصّقل، بأشكال وأطراف تماثل الفخاريات. وليس هناك شك بأن الأنباط كانوا يصنعون الزّجاج أيضاً.

Bulletin of the American Schools of Oriented Research, 1934, p. 6

ولم يتم تحديد الأحجار التي يطلق عليها وصف الكريمة. فإلي جانب اللؤلؤ الذي سبق القول بأنه بين الصّـادرات، كانت المنطقة المحيطة بالعقبـة تنتج العقيق الأحمر وبعض الأحجار شبه الكريمة، بينما كان الحدّ المصري من البحر الأحمر ينتج الزّمرّد الأخضـر. وبالرغم من قوة الشـاهد مـن المدوّنات والتواريخ علـى التجارة مع الصّين فلـم يُعثـر في البتراء علـى قطع من أعمال الصّين، ولا في أي موقـع نبطي، على حدّ ما أعلم. وهذا يعني أن كل المسـتوردات كانت من النوع السّـريع العطب والقابل للزوال مثل الحرير الذي لم يبق منه أثر في ذلك الجو الرّطب.

كذلـك، لا يمكـن معرفة حجـم المراكـب التي حملت تجـارة البحـر الأحمر، إلا علـى سـبيل التقدير. فلا بدّ أنها كانت سـفناً صغيـرة تحمل بضائع وتصلح للرّسـو في الشـواطئ، وتكاد ألا تغادر مشهد اليابسة. وعلى الطريق البحرية الطويلة كانت سيلان إحدى الموانئ التي ترسو فيها بين الصّين والبحر الأحمر، وهناك رأي يقول إن البضائع الصّينية كانت تُنقل من القوارب الصّينية لتحملها السّفن العربية.

ويـورد پلينيـوس فـي كتابـه «التاريـخ الطبيعـي» عـدداً من المـواد المسـتوردة من الإمبراطوريـة الرّومانيـة مـن الهند وبـلاد العـرب، ومعظمها مـرّ عبر البتـراء أو أيدي الأنباط. وفي مقدّمة هذه المواد الزّنجبيل والبهار، ثم يأتي مرهم يسمى ليسيون، وكان

يـرد من الهند في عبوات جلدية. وكان السّكر يرد في كتـل، وهو مصنوع على ما يبدو من قصب السّكر، ولا يستخدم إلا لأغراض طبية. ومع أن پلينيوس كان يعرف القطن، إلا أنـه مبهم قليلاً في إفادته إن كان يرد في شـكل غزول أم أقشـمة. والعطور والتوابل عديـدة وتكون على أنواع: المقل (وهو صمغ راتنجي شـبيه بالمِرّ)، ومرهم الناردين، والهيل، وفي المقدمة البخور.

ويقـدم پلينيـوس قـدراً كبيـراً مـن المعلومـات تتصـل بالتجـارة، وإن كان تقديـره للمسـافات يختلف عما أورده في سـياق آخـر: «لا يُصدّر البخـور إلا عبر بلاد جبعان Gebanitae؛ ولذلـك لا بـدّ مـن دفع ضريبة معينـة لملكها. وتبعد عاصمـة البلاد تُمنا Thomna أربعـة آلاف وسـتة وثلاثيـن ميـلاً عـن غزّة، وتقسّـم المسـافة على خمسـة وستين يوماً مدة الرّحلة على ظهر الجمل. وهناك مقادير معيّنة من البخور تُقدّم للكهنة ووزراء الملـك، والقائمين على حفظ هذا البخور والجنود الذين يحرسـونه، وحرّاس بوابـة المدينة، ولمختلف الموظفين الآخرين نصيبهـم أيضاً. وهناك، بعد، على امتداد الطريـق مكان محدّد يدفـع فيه ثمن الماء، وفي موضع آخر يُدفـع ثمن علف الحيوان، والمبيت في محطات الاسـتراحة وسـوى ذلك من مختلف الرّسـوم وحقوق الإقامة؛ ويترتـب علـى ذلك نفقـات عن كل جمـل قبل وصوله إلى سـاحل البحر تبلغ سـتمئة وثمانيـة وثمانين دينار؛ وبعد هذا كله هنـاك مدفوعات معينة تُدفع للمزارعين من عائد إمبراطوريتنا».

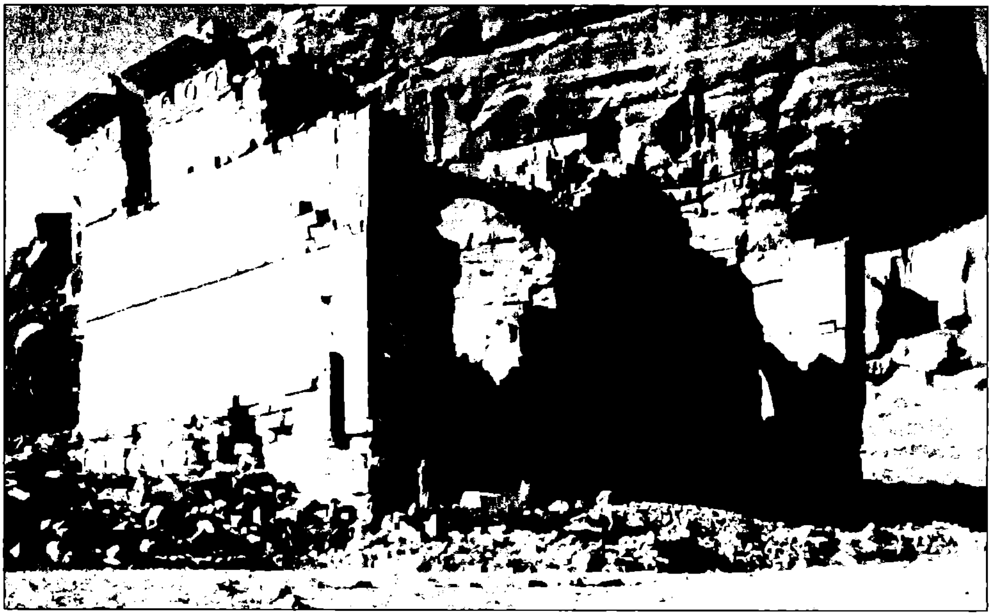
ولما كانت قلّة من الأسـر تملك أشـجار البخور ويُطلب من أفرادها مراعاة قوانين معينة بالغة الصّرامة عند جمع مادة الصّمغ فإن ذلك كله، على حدّ قول پلينيوس "يزيد من سعر المادة زيادة كبيرة".

لقـد مضت فترة الرّخاء التي عاشـتها البتراء وبلغت نهايتها ببـطء بعد غزو الرّومان لهـا بقيادة هادريان في العام 106 ميلادية. حيث تـم تعيين حاكم روماني على المنطقة وأصبحـت مملكـة الأنباط مقاطعة صغيرة من الإمبراطوريـة الرّومانية. ثم ضُمّت هذه المقاطعة في القرن الرّابع إلى الطرف الجنوبي من فلسطين كجزء من مقاطعة فلسطين

الثالثة، وبذلك فقدت المنطقة هويتها وانتهت، إلا في عيون التجار الصّينيين الذين دأبوا على إرسال بضائعهم إلى تا - چين ولي - كان.

وصارت تَدمُر تحت ظل الرّومان منافساً تجارياً قوياً للبتراء التي غدت تدريجياً مهجورة. فقد أخذ التجار يتبعون طبعاً التجارة إلى مركزها الجديد، وصارت البتراء مهجورة. وتبيّن التنقيبات الأثرية هناك أنه لم يتبع ذلك التحول أية كارثة كبيرة مثل نهب البلد بعد غزوه أو تعرضه لهزة أرضية عظيمة أو حريق. فيبدو أن السّكان قد تركوا البلد بإرادتهم وهم يحملون معهم كل ثمين. وكل ما في الأمر أنهم هاجروا إلى مركز التجارة الجديد، وغرقت البتراء في عزلتها الأصلية، نظراً لخلوها من الأسباب التي تجذب المستوطنين.

* * *



قصر بنت الفرعون

الفصل السّادس

ديانة البتـراء

تطالعنا ديانة الأدوميين بإشـكالية إلى حدّ ما. فهـي تقترب من تلك الدّيانة الخاصة ببني إسـرائيل القدماء، بحيث إن الأدوميين لا يعدّون وثنيين. وهنالك مجموعة كبيرة من الأدلة التي تبين أن يهوه، وهو إله بني إسرائيل، نشأ في أدوم. وأقدم ذكر في الكتاب المقدّس يشير إلى هذا المعتقد مفاده أنه بعدما كان موسى في سيناء، »في جبل الرّب»، وعاد إلى مصر، تجلى له الرّب [سـفر الخروج، 8: 1]، وأطلق على نفسـه اسـم يهوه. ولـم يكن هذا هو الاسم الذي سبق لموسى أن أطلقه على معبوده.

ثم في مقدمة بركة موسى (سفر التثنية، 33: 2)، التي وإن كانت متأخرة فمن المؤكد أنهـا تقليديـة، ومطلع القصيدة: «أقبل الرّب من سـيناء وأشـرق لهم من سـعير وتجلى من جبل فاران ومعه عشـرة آلاف قدّيس». ويتضمن نشـيد انتصـار دبوراه الأصل ذاته الممنوح ليهوه: «حين خرجت يا رب من سـعير، حين برزت من صحراء أدوم رجفت الأرض، قطرت السّـماء ونضحت الغمائم ماء، سـالت الأطواد من وجه الرّب وسيناء أمام الرّب إله إسرائيل». [سفر القضاة، 5: 4، 5]. وفي الوصف الرّائع ليهوه بأنه معبود قوي ورهيب، يكتب النبي حبقوق بطريقة خطابية: «الربّ جاء من تيمان والقدّوس من فاران». [نبؤة حبقوق، 3: 3].

وظل يهوه معبوداً نبوئياً في جبل هارون الذي فر إليه إيليا هرباً من انتقام إيزابل بعد مذبحـة كهنة البعل. ويبدو أنه ذهب ليس لمجرّد السّـلامة فحسـب، بل وليتشـاور مع وسـيطه الرّوحي أيضاً. فتلقى النصيحة العملية بإثارة الملوك المجاورين على آحاب،

وهي نصيحة عمل بها محققاً نجاحاً واضحاً.

وإذا كان يهـوه، فـي ذلـك الحين، هـو الإله الأصـل لأدوم، تبرز المسـألة المتعلقة بالصلة التي تربطه بالإله أدوم الذي منح هذه البلاد اسمه[1]، وهناك مسألة أخرى تتصل بالجدّ الأعلى للأدوميين الذي كان يدعى سعير. وإن أبناء سعير وأبناء أدوم هما اسمان يعرف بهما أهل هذه البلاد، وكما أن سـعير كان الجد الأعلى لأبناء سـعير كذلك كان عيسـو الجـد الأعلى لأبناء عيسـو الذين - وفقاً لسـفر التثنيـة، 2: 12 - قاموا بغزوهم وإبعادهم، لبعض الوقت على الأقل، بالرغم من أنهم فيما يبدو قد عادوا.

ومن المرجح أن المكانة التي احتلها سـعير كانت مشـابهة لتلك التي تبوأها عيسو، من حيث كون كل منهما سـلفاً قدسـياً عظيماً. ويؤكد سـفر التكوين حقيقة أن «عيسـو هـو أدوم»، ولمـا كان من المؤكد بأن أدوم كان معبوداً، وبناء على ذلك فإن عيسـو كان إله سـكان تلك الأرض. وإذا كان عيسـو السّلف القدسي، فمن المحتمل أن سعير كان معدوداً كذلك أيضاً، وأن عيسـو كان الإله القديم ذاته تحت مسـمّى آخر. ولكن حينما اسـتولى الأنباط على البلاد أضحى إلههم يعرف باسـم مغاير لمسماه القديم، ألا وهو دوسـاريس [ذو الشَّـرى]، إله سـعير. ولذلك يبدو من المرجح أن الإله القديم قد بقي حياً بعد كل ما أسفرت عنه الحرب من تحولات وما ابتليت به بلاده من تبدل سكّاني، وأن عبادته تواصلت على هذا النحو أو سـواه دون تغيير على مر القرون. ولكن حينما انتقل إله جبل سـعير إلى بلد آخر وبدّل اسمه ليصبح يهوه، فإن صفاته وطقوس عبادته قد تغيّرا أيضاً.

بيد أنه يجب التذكر بأن الإله المسمّى أدوم كان بلا ريب في وقت من الأوقات إلهة أنثـى. ولعل تبديـل الجنس هذا قد حدث حينما انقضى نظام الأمومة مفسـحاً المجال أمـام نظام الأبوّة، وأن التشـديد على التعبير «عيسـو هو أدوم» كان إيذانـاً بالتحوّل من الإلهـة إلـى الإله. واسـتناداً إلى مـا توافر من الأدلة، يبـدو من المرجّح أن التسـمية قد تحولت فحسب، وأنّ عبادة الإلهة تلك استمرّت تحت مسمّى آخر، لعله العُزّى.

---

(1) ينبغي الإشارة إلى أن تسمية أدوم في الكنعانيّة والعبريّة تعني: أحمر.

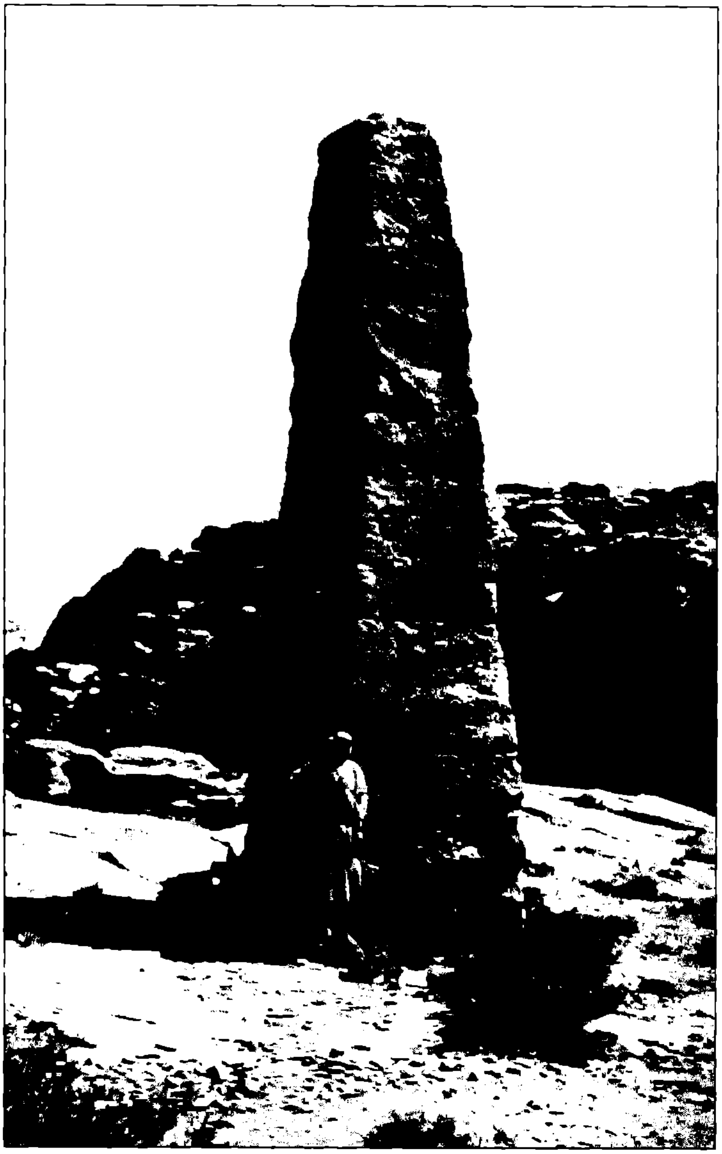
وتوحـي الحوادث في تاريخ الكتاب المقدّس بـأن إله أدوم كان يُعدّ مماثلاً لمعبود يهوذا وإسـرائيل. وحينما كان ياهو في طريقه الى السّـامرة لإفناء عائلة آحاب عن بكرة أبيها التقى يوناداب بن ريكاب، فخاطبه قائلاً: «هلمّ معي، وانظُر غيرتي للرّب». [سفر الملـوك الرّابع، 10: 16]. وهكذا ذهب يوناداب بصحبته وشـهد، ما لم يكن عوناً في، مذبحـة العائلة المالكة في السّـامرة وعبدة البعل الذيـن كان ياهو قد غدر بهم في معبد بعل. ويلوح أن السّـبب وراء دعوة ياهو يوناداب أن ثانيهما كان من القينيين («القينيون هـم المتحدرون من حمّة، والد بيت الرّيكابييـن»)، وإذن فقد كان من أتباع ديانة يهوه. وتبيّـن روايـة إرميا عـن الرّيكابييـن أنهم كانـوا لا يشـربون النبيذ ولا يزرعـون نباتات الكرمة، ممّا يدل على أنهم كانوا من عبدة الإله شـيع القوم. وكان هذا معبوداً يقال عنه إنه، على النقيض من ذي الشَّـرى تحديداً، لا يشـرب النبيذ. وإن كان من المحتمل أنه وجه آخر من يهوه، فيبدو أنه كان في الأسـاس إله البدو الذين لم يتعلموا معاقرة النبيذ أو زراعة الكروم.

وفي وقت لاحق لياهو، قام أمصيا من يهوذا بنقل آلهة الأدوميين بعد الهزيمة الرّهيبة التي نزلت بمتعبديهم على يديه (سفر أخبار الأيام الثاني، 25). وبوصفها قاعدة عامة، فمـا من غاز يكون لديه تقدير عال لآلهـة البلدان التي قهرها، إذ إنها أثبتت عدم قدرتها على الوقوف في وجه ما يتعبّده من الأرباب. ولكن إذا ما كانت آلهة الأدوميين تختلف بعـض الشـيء عن إله اليهود بحيث أنه بالكاد يمكـن التمييز بينهم، فإن ما صنعه أمصيا مفهـوم تماماً. إذ يروي الكتاب المقـدّس «وكان بعد أن رجع أمصيا من قتل الأدوميين أنـه جاء بآلهة بني سـعير وأقامها إلهة له وسـجد أمامهـا وقتر لها». (سـفر أخبار الأيام الثانـي، 25: 14). وبطبيعـة الحـال فإن هذا الأمر قد أسـاء إسـاءة عظيمـة لأنبياء يهوه وكهنته، الذين استاؤوا من إدخال إله عدوّ لهم إلى معبدهم.

وفـي الوصايا التي أُعلنت من سـيناء فـإن الأمر الذي يتراءى للأذهـان العصرية أنه الأقـل أهمية إنما هو ذلـك الذي يحرّم الأشـكال المنحوتة. وخلافـاً للمصريين، كان بنو إسـرائيل القدمـاء وربما الأدوميون يفتقرون إلى البراعة الفنية في تجسـيد الشـكل

الإنســاني أو الحيــوان أو حتــى الأشــجار أو الزّهــور. ولذلك فإن تلــك الأوثان كانت بالنسبة لهم أجنبية، أي ذات منشأ وثني، وبالتالي فهي من المحرّمات لدى إلههم.

ولقد جسّــد الأنبــاط - مقتفين أثــر الأدوميين، ولعلهــم ورثوا عنهــم إلههم وميوله الفنية - معبودهم بشكل كتلة من الحجر، متخذاً أحياناً شكل كتلة غير محدّدة المعالم ولكنه عادة ما يكون على هيئة كتلة مربعة الشــكل. ولـم يكن مثل هذا مجســماً يجســد شــيئاً في السّــموات العلــى، أو الأرض تحتها، أو المياه في جــوف الأرض؛ ومع ذلك فبالإمكان إقامته وعبادته بوصفه يقوم مقام الإله، الذي كان يُعدّ كامناً في الحجر. وإذا كان مــن المؤكد أن ثمّة تشــابهاً كبيــراً بين طقوس الأدوميين وبني إســرائيل، فإن حجر ذي الشَّرى كان مماثلاً لحجر يعقوب الموسوم بيت إيل، الذي يدلّ اسمه على أنه كان يُعدّ بيت الله فعلاً.



المسلّة الشرقية

وإن الاعتقاد بأن الحجر والإله هما الشـيء ذاته موغل في القدم. إذ إن الإله يسكن فـي الحجـر، الذي يصبح عندئذ بمثابـة خزانة للمعبود، وهو ما يطلق عليه روبرتسـون سـميث تسـمية «صنـدوق الإله»[1]. وممـا لا ريب فيـه أن الأنباط كانـون يدينون بهذه الفكـرة. أمـا أنهـم ورثوها عـن الأدوميين أو أنها كانـت جزءاً مـن التراث المشـترك للسّاميين فلا يمكن فصل القول فيه الآن، لكن من المؤكد أن الأدوميين وبني إسرائيل على حدّ سواء كانوا يعتنقون المعتقد ذاته. ولم يكن بنو إسرائيل والأدوميون يتحدّرون مـن السّـلالة ذاتها فحسـب («لا تكره الأدومي لأنه أخوك»، سـفر التثنيـة، 23: 7)، بل ومتحالفين ثقافياً أيضاً. ويلوح أنهم كانوا يتعبّدون الإله ذاته وإن ربما تحت مسـميات مختلفة، إذ إن إله بني إسـرائيل يدعى يهوه، وإله الأدوميين ربما يدعى عيسـو أو أدوم، أو حتى ربّ سـعير، أي ذو الشَّـرى. ولذلك فإن الأمر الجدير بالعناء هو دراسة الدّيانة اليهودية التي يتضمّنها الكتاب المقدّس نظراً لما قد تلقيه من ضوء على هذا الموضوع.

وفـي الأزمنـة الأولـى لا بدّ أن الحجـر كان عبارة عـن صخر غير منحـوت أو قطع مـن الحجـارة المتناثـرة؛ وفي وقت لاحـق أضحى منحوتـاً لكن دون أن يتخذ شـكلاً يحمـل صفات إنسـانية. وكانت قطع الحجـارة المتناثرة قابلة للحمـل ومن المحتمل أنهـا «الصخـرة الرّوحية التي كانت تتبعهم» [رسـالة القديس بولـس الأولى إلى أهالي كورنثـوس، 10: 4]، وهي التسـمية التـي أطلقها عليها القديس بولـس. وفي حالة بني إسرائيل لا بدّ أنها كانت ألواح الوصايا الإلهية، التي هي على جانب عظيم من القدسية بحيـث أنـه حينما يتوافر مـكان مستقر للحفاظ عليها كانـت توضع في تابـوت العهد المقدّس.

أما بالنسـبة للتماهي الفعلـي للصخرة مع الإله، فيطالعنا الكتـاب المقدّس بالعديد من الإشـارات إلى ذلك. ففي نشـيد موسى، على نحو ما ورد في (سفر التثنية، 32) من الجلـيّ أن هذه الفكرة كانت ماثلة في أذهان واضعيها: «باسـم الرّب ادعوا هبّوا عظمة لإلهنـا... الصّخـر الكامـل الصّنيـع... الصّخر الذي ولـدك تركته والإله الذي أنشـأك

(1) أو يمكن ترجمة العبارة: تابوت الرّبّ.

نسـيته... كيف يطارد الواحد ألفاً، ويهزم الاثنان ربـوة لولا أن صخرهم باعهم والرّب أسـلمهم... لأن صخرتنا ليسـت كصخرتهـم فبذلك أعداؤنا يحكمـون... ويقول أين آلهتهم الصّخر الذي اتكلوا عليه».

وفي نشـيد انتصار داود (سـفر المزامير؛ المزمور 18: 3) تطالعنا العبارات: «الرّب هـو ثباتي (صخرتي) وملجئي ومخلصي... إلهي عونى وعليه أتكل... عاضدي وقرن خلاصـي وناصـري». ومن جديد نجـده يعلن بقوة في (سـفر المزاميـر؛ المزمور 19: 15): «ولتكن أقوال في وهذيذ قلبي مرضية لديك أيها الرّب صخرتي وفادي». وعندما يأتـي أشـعيا (نبـؤة أشـعيا، 26: 4؛ 44: 8) على ذكـر الصّخرة فمن الواضـح أنه يقصد بذلك صخرة حقيقية ولا يستخدم تعبيراً مجازياً. ويتجلّى هذا في المقطع الثاني، حيث تطالعنا الإشارة إلى الصّخرة الضخمة في أعلى جبل موريا، التي تحتوي عليها منطقة المعبـد، ومـا زال يُنظر إليها بكثير من التبجيل، ذلك أن قبّة الصّخرة هي ثالث الحرمين التـي يقصدهـا كافة الحجيج من المسـلمين الأتقياء. «إن الرّب هو صخـرة الدّهور... يسـير على صوت المزمار آتياً إلى جبل الرّب إلى صخر إسـرائيل... هل من إله غيري أو من صخر لا علم لي به».

وإن النبـي حبقـوق (1: 12) واثق بالقدر ذاته: «ألسـت أنت منـذ الأزل يا ربّ إلهي قدّوسـي لا نموت يا رب للحكم جعلتها ويا صخر للتأديب أسّسـتها». وحتى في عهد متأخر، في زمن القديس بولس يظهر استخدامه التوكيدي للصفة «الرّوحية» («الصخرة الرّوحية التي كانت تتبعهم») أن الاعتقاد بالإله – الصّخرة كان جزءاً من ديانة فلسطين. ولما كان القديس بولس معاصراً للأنباط فإن كلماته قد تنطبق عليهم أيضاً.

وتعـرض قصة يعقوب التي يتضمنها سـفر التكوين (أصحـاح 28: 18، 22) لطقس عبادة الحجر لدى بني إسرائيل الأوائل: «وبكّر يعقوب في الصّباح واخذ الحجر الذي وضعـه تحت رأسـه وأقامه عموداً وصبّ زيتاً على رأسـه... وهـذا الحجر الذي أقمته عمـوداً يكـون بيـت الله وكل ما تعطيني فإني أعشّـره لك تعشـيراً». إن مسـح الأشـياء والعطايـا بالزيـت، والمفتـرض أنهـا من أجـل تقديم القرابيـن، تماثل تلـك التي تقدّم

للأوثان في المعابد المصرية القديمة. وكانت هناك، بعد، طقوس لتقديم القرابين تقام أمام الحجارة المقدّسة.

وأول ذكر لهذا الطقس الدّيني وقفنا عليه مرة أخرى في حكاية يعقوب، حينما فر من لابان، بعدما قام بالتدليس على خاله والد زوجته بشأن قطعان الأغنام مخافة أن يفتضح أمره، وكان أن تمّ إدراكه في جبل جلعاد، ولكن لابان كان رجلاً رحيماً فاقترح عليه اتفاقاً: «فأخذ يعقوب حجراً وأوقفه عموداً؛ وقال يعقوب لإخوته التقطوا حجارة فأخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرّجمة». [سفر التكوين، 31: 45-46]. وفي وقت لاحق، مضى يعقوب إلي بيت إيل من جديد: «وأقام هناك مذبحاً ودعاه بيت إيل، (إله بيت إيل)». [سفر التكوين، 7: 35]... «فنصب يعقوب عموداً في المكان الذي فيه تكلم معه عموداً من حجر وسكب عليه سكيباً وصب عليه زيتاً». [سفر التكوين، 35: 14].

كان ثمّة مناسبة أخرى تقدم فيها القرابين أمام الحجارة عندما قام أدونيا، وهو أكبر أبناء داود الباقين على قيد الحياة، بمحاولة للاستيلاء على العرش فيما كان الملك العجوز يرقد محتضراً. وقد جمع أتباعه: «فذبح أدونيا غنماً وبقراً ومعلوفات عند حجر الزّاحفة الذي بجانب عين روجل ودعا جميع أخوته بني الملك وجميع رجال يهوذا عبيد الملك». [سفر الملوك الثاني، 1: 9]. وممّا لا ريب فيه أن ذلك كان حجراً حدودياً، بل ويجب التذكر أنه كان في كثير من البلدان آلهة للحدود ممثلة في الحجارة ومن المحتمل أنها كانت تعد كامنة في تلك الحجارة.

وهناك شكل اخر من التكريم المتصل بحجر مقدّس كان معروفاً زمن محمّد[1] حين كانت عبادة الأوثان العادية في المنازل تقوم على لمسها باليد عندما يدخل المرء أو يخرج من بيته. وهذا يعني أن مقام الوثن يقع عند مدخل البيت. ويمكن مقارنة هذا الطقس بما كان الكنعانيون يمارسونه من تقبيل الإله بعل الذي يرجّح بانه كان تمثالاً من حجر. وما زالت طقوس التقبيل تمارس في كافة الأماكن التي يقصدها الحجاج

(1) رسول الله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المسيحيون في الأراضي المقدّسة في يومنا هذا؛ ولا بدّ أن هذا الطقس من رواسب تلك الأيام الماضية، نظراً لأن الكثير من تلك المواقع كان يعدّ مقدّساً قبل المسيحية، وظل كذلك أيام المسيحية وما تلاها. وهناك طقس يسترعي الانتباه ويتصل بالأعمدة، وقد عمّت شهرته الشرق الأدنى؛ إذ لم يكن بالأمر غير المألوف أن يصعد الرّجال إلى القمة ويظلوا هناك أياماً عدة. وكان الغرض من هذا أن يزيدهم ذلك اتصالاً بربّ العمود، إما بسبب الإله الكامن في العمود أو ليزداد المؤمن اقتراباً من ملكوت ربه.

وإن أكثر الحجارة قدسية في فلسطين وأقلها ذكراً هي الصّخرة الموجودة في فناء الهيكل بالقدس، والتي أقيمت عليها قبة الصّخرة. وتلكم هي أعلى نقطة في جبل موريا، حيث تلقى إبراهيم الأمر بأن يقدّم إسحق قرباناً[1]. وكانت هذه الصّخرة غير المنحوتة مقدّسة منذ الأزمنة الأولى، وظلت على جانب كبير من القداسة بحيث أنها تُركت دون أن تمسّ بسوء على يد سليمان وجميع من تعاقب من بُناة الهيكل، وأحيطت بالرعاية والعناية والاهتمام بوصفها البقعة الأكثر قدسيّة في القدس من جانب الفاتحين المسلمين.

وكان سليمان أيضاً أحد المكرّمين للأعمدة، إذا ما كان للمرء أن يحكم على ذلك بالأهمية المعلقة على العمودين اللذين أقامهما في رواق الهيكل. وممّا لا ريب فيه أن هذين العمودين كانا يرمزان لإله الهيكل، ويحملان اسمين يرمزان له[2]. وتمّت إقامتهما في المدخل لتكرّمهما الجماهير، الذين لم يكن يسمح للكثيرين منهم بدخول الأقسام الأكثر قدسية من الصّرح المقدّس. وإذا كانت عادة يهوه تسمح، في ذلك الحين، بتقديس العمود المقدّس مع كل ما يصاحب ذلك من طقوس، فإنه ليس من المستغرب أن نجد عبادة مماثلة بين سكان صحارى شرقي الأردن. وكان العمود المزدوج المقام عند بوابة أو باب أحد المعابد معروفاً في صور وفقاً لهيرودوتوس، الذي يقول إن أحد العمودين كان من الذهب فيما الآخر من الزّمرد، «وكلاهما يتألق للغاية ليلاً».

---

(1) المقبول لدينا في عقيدتنا الإسلاميّة أن ابن سيّدنا إبراهيم المعدّ للتضحية كان إسماعيل.
(2) الاسمان هما: بوعز وياكين.

علـى الرّغـم من عـدم وجود آثـار يمكن تبيّنهـا لديانـة الأدوميين أو أسـلافهم، ألا وهـم الحوريون، يمكـن للمرء أن يحدس بأنـه كان هناك دوماً طقـس للأماكن العالية [المعليـات]. فقـد كانت قمـم الجبال على الدّوام مقدّسـة في نظر شـعوب فلسـطين وشـرقي الأردن. إذ تكلم إلههم من جبل سيناء، وعلى قمم الجبال لقي كلّ من هارون وموسـى وإيليا حتفه. وما زال جبل حور، ألا وهو جبل هارون، مقدّسـاً إلى يومنا هذا، ومـا تـزال القرابين تقدّم هناك كمـا كانت عليه الحال في الأزمـان الغابرة. ويبيّن مصير هارون أن القرابين المقدّمة كانت أصلاً من الكائنات البشرية.

ومع هذا السّجل للديانة السّامية البدائية باعتباره دليلاً، هناك إمكانية إلى حدّ ما لتتبع الخطـوط الرّئيسـة للعبادة في أدوم عندمـا وقعت في أيدي الأنبـاط. ولمّا كان الأنباط مـن أصل عربي، تجدر الإشـارة إلى البقايـا القليلة لديانة العرب فـي العصر الجاهلي التي بالإمكان الوقوف عليها في القرآن الكريم وسواه من الكتب. ففي الأزمان الغابرة كان عـدد الآلهة والإلهات في شـبه الجزيرة العربية هائـلاً بحيث إنه من الجلي أنه كان لكل قبيلة ومستوطنة كبيرة معبودها الخاص بها، وكانت هذه الأرباب مجسّدة بالطراز السّـامي الفعلـي، ألا وهو الحجر. وكانـت مكّة المكرمـة، بوصفها المدينة المقدّسـة الرّئيسـة والمحجّة في شـبه الجزيـرة العربية، تحتـوي على تماثيل – مـن الحجارة أو الأعمدة – لأرباب العرب كافة تقريباً.

وهكـذا، لمـا دخل محمّـد[1] مكّـة ظافراً، كانـت الكعبـة محاطة بثلاثمائة وسـتين صنمـاً. فضرب بها بعصا كان يحملها بيده، مردّداً بقوة: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾. [سـورة الإسـراء:81]. إلـى أن حطمهـا كلهـا. لقد ندّد محمّـد[2] بشـدّة بالأصنـام قدر ما كان أنبياء اليهـود قد ندّدوا بها، ولكـن من الجليّ أنه كان ذا تأثير أكبر على مسـتمعيه. ففي سـورة يونس نبوءة بما سـيحل بالمشـركين إذا ما أوغلـوا في شـرورهم: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ

(1) رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأصحابه أجمعين.
(2) صلّى الله عليه وسلّم.

وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾. [سورة يونس: 28]. وهو ما نطالعه من جديد في سورة إبراهيم: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾. [سورة إبراهيم: 30]. ويشير سايل Sale إلى اعتقاد المسلمين بأن الله سيجعل الأوثان تتكلم يوم القيامة وتوبّخ متعبّديها بدلاً من أن تتشفّع لهم كما كانوا يأملون.

ومن المسلّم به عموماً من جانب دارسي الدّيانات الأولى أن أقدم شكل للإله كان يعد أنثوياً. وعندما تم تقديم الإله الذكوري يبدو أولاً على أنه ابن الإلهة، وفي هذه الحالة فهو طفل رضيع يستمد أهميته وحسب من الصّلة القائمة بينه وبين الأم القدسية. وفي وقت لاحق، يصبح زوج الإلهة أو عشيقها؛ وفي آخر الأمر تنقلب وظيفة الإلهة، فتصبح ابنة الإله، كما هي حال اللات في مكّة. وإنها لنقطة مثيرة للاهتمام، وإن لم يتم إثباتها بعد بشكل كامل، أن القربان البشري لم يكن معروفاً إلى أن تم إدخال فكرة الإله الذكوري، وأنّ العطايا المقدّمة لإلهة بدائية لم تكن تنطوي على عمل دموي؛ على الرّغم من أن العبادة قد تبدّلت لاحقاً وباتت أقرب إلى طقوس المعبود الذكري.

ومما لا ريب فيه أن اليهود كانوا يتعبّدون ملكة السّماء، وأن العرب في العصر الجاهلي كانت لديهم اللات. لكن غالباً ما كانت تتم عبادة الإلهة تحت نعوت مختلفة، وبمرور الزّمن أضحى النعت معبوداً جديداً. ففي حالة اللاّت، التي يبدو أنها تعني «الإلهة» فحسب، كان لقبها «العُزّى»، أي «عزيزة الجانب»؛ وبالتدريج بطل استخدام تسمية «اللاّت» وأضحت الإلهة معروفة باسم «العُزّى» فحسب. وفي البتراء يلوح أن التسمية الأخيرة كانت المستخدمة، بينما بقيت التسمية القديمة في مكّة. ويبدو أنه كان يتم التوسل باللاّت على وجه الخصوص لتصبّ لعنتها أو لتكون عوناً في مواجهة العدو. ويظهر نقشان من حوران هذا الجانب من الإلهة. «أيتها اللاّت، أصيبي بالعمى من يمحو هذه الكتابة». و«أيتها اللاّت، قدّمي له عدوه بين يديه».

كان الأنباط ما يزالون في المرحلة الأولى لعبادة الإله – والإلهة، وإن كانوا يحثّون خطاهم للانتقال إلى المرحلة الثانية، فيما كان الإله في بعض النواحي قد بدأ يبز

الإلهـة. وكان ذلـك الإله هو ذو الشَّرى (وتسـميته بالهيلينية دوسـاريس Dusares)؛ وهذه التسمية عبارة عن نعت يعني «ربّ الشَّراة». والشراة هو اسم سلسلة جبال البتراء وتهجئة مختلفة لسـعير؛ وبعبـارة أخرى، فقد كان «ربّ أرض سـعير». وكانت الإلهة، كما سبق وذكرت أعلاه، تعرف باسم العُزّى، على الرّغم من أنه من الممكن أنها كانت تدعى بين الأدوميين اللاّت فحسب، أي «الإلهة».

كان كل مـن العُـزّى وذو الشَّـرى، أيّ الأم وولدهـا، الإلهين الرّئيسـين فـي البتراء، ولكن كان إلى جانبهما عدد من الأرباب الآخرين. وأبرزها إلهة تدعى مَناة، وأما الآلهة الثلاثة فهم كيشا أو كوش وهُبَل وشيع القوم، وكان هذا الأخير الحارس للقوافل. ولا نعلم سوى القليل عن هذه الآلهة الغامضة باستثناء مسمّياتها.

أمـا العُزّى، كما سـبق لي القول، فهي الشـكل البترائي للإلهـة - الأم العذراء الذي نجـده فـي ديانـات العالـم القديـم كافـة. وتطالعنـا الأسـطورة المعتادة لـولادة طفلها المعجـزة مصحوباً بجميـع العلامات والعجائب التي تلازم ميـلاد أحد الآلهة. بيد أنه مع اكتسـاب الإله لدى الأنباط أهمية أكبر من الإلهة، فإن عبادة ذي الشَّـرى قد أثارت إعجـاب الإغريق على نحو فاق عبادة العُزّى. فبالنسـبة للإغريـق كان الإله النبطي هو ذاته ديونيسـوس الخاص بهم، ربما بسـبب من الطقوس الدّينية المتسـمة بالعربدة في عبادتـه، ولكـن على الأرجح لأنـه كان إله الخصب، وعلى وجـه الخصوص إله النبيذ والكرمة. وفي هذا السّياق تجدر الإشارة إلى أن الأواني الرّائعة المصنوعة من الخزف الملوّن التي تتناثر قطع منها بكثرة بالقرب من كل مكان عال أو مذبح [معلاة]، عادة ما تكون مزينة برسوم لأوراق نباتات اللبلاب والكرمة وعناقيد العنب، وترمز كلها لعبادة ديونيسوس.

وتبيّـن النقـوش التي كنا ذكرناها فـي الفصل الثاني أن واحداً علـى الأقل من ملوك البتراء كان مؤلهاً. وذلكم هو عُبادة الذي يتهمه يوسـيفوس بالتراخي الشـديد في إدارة شـؤون مملكته عاهداً بها كلها إلى وزيره سـيلاوس [سـلي]. بيد أنـه على الأرجح أن ذلك لم يكن بالضرورة تراخياً من جانب الملك؛ فالملك الذي هو إله أيضاً لا يفترض

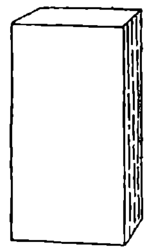
بـه فعلاً أن يحكم البلاد، إذ إنه يحميها بسـلطانه الإلهي، فيمـا تُترك الحكومة بين يدي أحـد الـوزراء. ولا بدّ أن واقـع الأحوال كان مماثـلاً لما كانت عليه حـال اليابان حتى السّنوات الأخيرة.

وبوصفه إله الخصب في بلاد قاحلة، فلا بدّ أن الماء كان مقدّسـاً لدى ذي الشَّـرى، وهنـاك حكاية مثيرة للاهتمـام وصلتنا عن أحد المؤلفين العـرب تبيّن أن تقديس أحد الينابيع المكرّسـة لذي الشَّـرى كان معروفاً حتى وقت متأخر من صدر الإسـلام. «ثم أتتني صاحبتي، فقلت لها: إليك عني فلستُ منك، ولستِ مني. قالت: ولمَ بأبي أنت؟ قلتُ: فرّق بيني وبينك الإسلام، إني أسلمتُ وتبعتُ دين محمّد. قالت: فدِيني دينُك. قلتُ: فاذهبي الى حسي ذي الشَّرى فتطهّري منه. وكان ذو الشَّرى صنم دَوْس والحسي حمـى له يحمونه، وبه وشـل من ماء يهبط من الجبل. فقالـت: بأبي أنت، أتخاف على الصّبية من ذي الشَّرى شيئاً؟ قلتُ: لا، أنا ضامنٌ لما أصابك. قال: فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت».

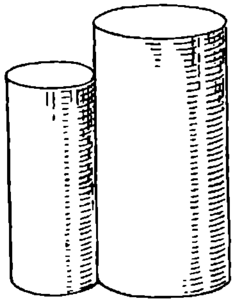
ويبـدو أن هذا الينبوع كان شـلّال ماء يتسـاقط على صخـرة أو جُرف. ولئن لم يكن موضع المكان القدسي في هذه الحكاية في البتراء، فإنه يبدو من غير المستبعد أن شلال وادي الصّيـاغ Wadey as Siyagh كان مكرّسـاً لـه فـي ذلك المعقـل العظيم لعبادته. ولكن إلى أن يتمّ التنقيب في البتراء على نحو صحيح، فإن ذلك الشـلال والبركة تحته هما مكانان جميلان يقصدهما السّياح. وإذا كان الشلّال بالفعل أحد الأماكن المقدّسة لذي الشَّرى، يمكن للمرء أن يتوقع العثور على نذور على مقربة من الصّخور وحولها وحتى في ما يحمله المجرى المائي من الحصى.

ويُمثّل ذو الشَّـرى في البتراء في هيئة كتلة من الحجارة. أما الشـكل الأكثر شـيوعاً فهو عبارة عن كتلة مكعبة مستطيلة الأوجه منصوبة على أحد أوجهها، وكثيراً ما تُحفظ في كوة في الحائط أو المزار. ويعرض سـويداس Suidas وصفاً للحجر الرّئيس لذي الشَّـرى: «إن الوثن القدسـي هو حجر أسـود، له أربعة جوانب لكنها غير منحوتة، يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمان وسماكته قدم واحد، ويرتكز على قاعدة من الذهب

المطروق؛ وهم يقدّمون له القرابين ويهرقون دماء قرابينهم أمامه، وذلكم هو أسلوبهم في تكريم الإله. ويزين المزار بأكمله بالذهب والعديد من العطايا». وتكتسب الأبعاد 4x2x1 أهميتها من كونها الأنموذج المقدّس لتشكيل تلك الأحجار.



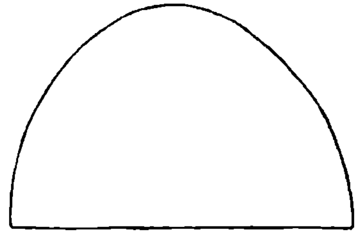
الشكل 2



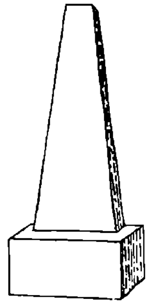
الشكل 3

ونصادف في كل بقعة من بقاع البتراء نماذج من هذا الحجر (الشكل 2) إما محفورة في نقوش أو مجرّد خدوش على الصّخور أو جدران القبور. وأحياناً قد يأخذ الوثن شكلاً مخروطياً أو عموداً دائرياً قصيراً (الشكل 3). والنقطة الهامّة الجديرة بالملاحظة هي أن الحجر لا يمثل على الإطلاق أي شكل طبيعي، وإذاً لا يمكن أن يطلق عليه أبداً صنم أو وثن. كما أنه ليس «مصنوعاً من الذهب أو الفضة»، وغالباً ما لا يكون «من صنع البشر». ويبدو أنه في بعض الأماكن كان الحجر شيئاً منفصلاً موضوعاً في تجويف؛ ولقد اختفى ذلك الآن، ولم يبق سوى التجويف، كما هو على المذبح.

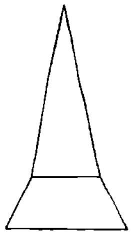
وعندما يكون الحجر على شكل عمود دائري غالباً ما يكون مردوجاً، وأحدهما أضخم من الآخر (الشكل 3). ومن المفترض أن هذين الحجرين يمثلان ذا الشَّرى وأمّه، ألا وهي العُزّى. وثمّة شكل آخر لهذا الحجر على هيئة خليّة النحل، وعادة ما كان يدعى أومفالوس omphalos (الشكل 4). وأخيراً، قد يتخذ الحجر شكل عمود مخروطي (الشكلان 5، 6 واللوحتان 29، 32) أطلق عليه دالمان Dalman تسمية العمود المستدق *Spitzpfeiler*، الذي للأسف أخطأ دوماشيفسكي Domaszewski في تسميته فدعاه مسلّة، رغم أنه لا يشابه مسلّة المصريين.



الشكل 4



الشكل 5



الشكل 6

وفـي البتـراء كما هي الحـال عليه في الدّيانـات الأخرى يبدو جليـاً أن الحجر كان يقوم بوظيفة مزدوجة بوصفه مذبحاً ومعبوداً (اللوحة 32). وكانت الألوهية تكمن في الحجـر، الـذي كان يُلطخ أو يُرشّ بدماء القربان، بحيث يصبح الإله مشـاركاً متعبديه، فـي تنـاول القربان. وعلى النحو ذاته هبط يهوه على كرسـي الرّحمة، وفي يوم الغفران لطخ كرسي الرّحمة ورش بدماء العجل وكبش الفداء المقدمين قرباناً. وتظهر الأماكن العاليـة فـي البتـراء [المعليات]، دون اسـتثناء، البالوعـة المعدة لإخـراج دم القرابين، وأحـواض المـاء لإزالة آثـار الدّماء. وإذا ما أخذنـا بعين الاعتبار كمية الدّم المسـفوح في معابد فلسـطين وشرق الأردن القديمة، فمن غير المستغرب أن نجد أن أحد الآلهة الكنعانية كان بعل زَبوب، ومعنى اسمه إله الذباب.

وقـام سـايل Sale، في ترجمتـه للقرآن الكريم، بإضافة حاشـية على سـورة الحج: «يذهب المفسّـرون إلى القـول إن العرب تعودوا أن يدهنوا أوثـان آلهتهم بمركب ذي رائحـة مميـزة ممزوج بالعسـل كان يلتهمـه الذباب. وقـد زعم اليهود بـأن الهيكل في القـدس، والقرابيـن المقدّمة هناك إلى الإله الحقيقي، لم يكـن يزعجها الذباب مطلقاً؛ بينما كانت أسرابٌ منها تجتاح المعابد الوثنية، يجذبها إليها بخار القرابين». وكان قسم من الشـعائر اليهودية يشـتمل على حرق جزء من القربان على المذبح، «تذكارها على المذبح وقود رائحة سرور للرّب». [سفر الأخبار، 2 : 2]. وما من أثر لهذا الطقس في البتراء، ولا تظهر المذابح أي أثر لإيقاد النار فيها، وتخلو حجارة الأماكن المقدّسة من أي دليل على ما ينطوي عليه ذلك الأسلوب من حرارة قوية ومتواصلة.

لقد أثارت «المسلّات» (اللوحة 29) نظريات كثيرة. وممّا لا ريب فيه أن الشكل المستدق هو ذاك الذي كانت عيه المجسّمات المنحوتة على الصّخور في أنحاء مختلفة من وادي البتراء والأودية المجاورة له. ومن موقع التماثيل تلك لا يمكن أن يكون ثمّة شك في أنها كانت معدودة قدسيّة. ولما كانت الأعمدة المستدقّة المقامة على تلة المذبح عبارة عن كتل من الصّخر تركت منتصبة فيما انخفض السّطح، وبالتالي فإن ارتفاعها يعادل ارتفاع المستوى الأصلي، فقد ذكر بأنها كانت مجرّد علامات مقلع الحجارة حيث بمقدور العمال حساب مقدار ما أنجزوه من عمل. وذلكم هو بالكاد تفسير مرجح، إذ إن أسلوب الدّفع للعاملين بالقطعة لم يكن سائداً في تلك الفترة المبكرة حيث كانت معظم الأعمال تؤدى بالسّخرة.

حتى وإن كان العمال من الكادحين الأحرار فإن طريقة قياس العمل، حتى وقت متأخر نسبياً، كانت بالأيام، وليس بالقطعة؛ وكان اليوم يمتدّ من شروق الشمس الى غروبها، ويتوقف المبلغ الذي يحصل عليه العمال على طاقة أحدهم وقوة ذراعه. وأما ترك المقياس منتصباً على قطعة من الأرض تمّت تسويتها فهي فكرة جدّ حديثة. والسّبب الوحيد الذي من الممكن تصوره وراء ترك هذه الحجارة الضخمة بشكل أعمدة قائمة في تلك الفترة المبكرة يجب أن يكون دينياً. إذ إن النُّصب التذكارية كانت تمثل فكرة دينية ما، ولمّا كان يُرمز للإله بكتلة من الحجر المنحوت أو غير المنحوت، يبدو جلياً تماماً أن العمودين المستدقين كانا رمزين للإله الذي كُرّس له هذا التل. ويبدو من المؤكد أن الهضبة بأكملها التي جرت تسويتها بالأرض كانت تشكّل منطقة مقدّسة، وذلكم هو من جديد برهانٌ على قدسية الحجارة الضخمة التي على شكل أعمدة، وأنها لم تكن لتترك تسد المكان المقدّس لو أريد بها القياس فحسب.

ولئن كان «راعي فرعون» أحد المسميات التي أطلقها السّكان المحليون عليها، فإنه لا بدّ أن نتذكر أن اسم التلة بأكملها هو [...] العطوف[1]، أي «القضيب العطوف». وممّا هو شائع جداً أن الحجارة الضخمة التي على شكل أعمدة تعدّ تجسيداً للقضيب،

(1) في التسمية عبارة فاحشة بأولها، لذا تم تغييرها في البتراء إلى: جبل العطوف.

وإذن، لأصل الوجود. وما يوصف بالطقوس «المتسمة بالعربدة» للديانات القديمة إنما هي مجرّد شكل من أشكال العبادة التي يفترض بها أن تكون مستساغة عند الآلهة، وعلى وجه الخصوص عند أي معبود يمكن للإغريق أن يجعلوه كيفما اتفق مساوياً للإله ديونيسيوس الخاص بهم. ويلوح أن التسمية الحالية للتل المقدّس تحتفظ بإيمان الأنباط بأربابهم الرّئيسين؛ وإنه من الممكن أيضا أن هذا المكان المرتفع [المعلاة] كان مكرساً للخالق قبل عهود ازدهار الأنباط بزمن بعيد.

وأغلب الظن أن الأمكنة المرتفعة [المعليات] في بلاد الكنعانيين وكذلك في أدوم كانت تخصّ الخالق المعبود، سواء كان يُعبد بوصفه ذكراً أو أنثى، وهناك إشارات عدّة حتى في مدوّنات الكتاب المقدّس إلى أن الطقوس الخاصة بالقضيب أو البظر كانت تمارس في الهيكل النقّال[1] ومعبد يهوه، على الرّغم من التحذيرات التي أطلقها الأنبياء من مغبّة الممارسات الشريرة لوثنيي بعل بعور، والأساليب المروعة التي يستخدمها الكثير من المتعبدين المرسمين ليهوه لاجتثاث شأفة الأرباب المحليين وطقوسهم، لكي يبقى يهوه المتفرّد والأسمى. ومن المؤكد أن هذه الممارسات كانت في وقت مبكر من طقوس الدّيانة الموسوية، ذلك لأنه عندما أمر موسى بإفناء المدينيين، رجالاً ونساء وأطفالاً، وحدهن الفتيات الصّغيرات تم انقاذهن. ولقد جرى توزيعهن على القبائل مع بقيّة الغنائم، وأصاب الرّب نصيبه من الثيران والأغنام والحمير والفتيات. وإذن فإن مصير أولئك الفتيات اللواتي جرى تسليمهن إلى الرّب، ربما لم يكن أسوأ أو أفضل مما لو تم وهبهن لأحد المعابد الخاصة بهم.

وغالباً ما يظهر العمود المسمّى بالمسلّة أن الرّمز والمذبح قد اتحدا معاً ليشكلا موضوعاً كاملاً للعبادة. ونطالع شكلاً مبكراً للمسلّة في العمودين القائمين بجوار المذبح. ولقد تأثر أكبرهما بالأحوال الجوية مما أتلف جزأه العلوي؛ بينما ما يزال أصغرهما كاملاً ويُظهر بمزيد من الوضوح خصائص شكل العمود المستدق. ويبلغ ارتفاع أكبرهما قرابة ثلاثة وعشرين قدماً، وأبعاده نحواً من سبعة أقدام في ستة أقدام

(1) أو كما تسمّى: الظلّة (بالعبريّة: سوكّاه)، وهي خيمة اتخذها اليهود معبداً مؤقتاً.

عند القاعدة؛ بينما يبلغ ارتفاع أصغرهما نحو إحدى وعشرين قدماً، وأبعاده قرابة سبعة أقدام في ستة أقدام عند القاعدة. وهما ينتصبان شرق وغرب بعضهما، وتبلغ المسافة بينهما زهاء مئة قدم. وتم نحتهما في الصّخر الصّلب؛ وبعبارة أخرى، فقد تمّت تسوية الأرض حولهما، وتُركا منتصبين. ويبدأ الشكل المستدق من الصّخور دون قاعدة من أي نوع كان (اللوحتان 29، 32).

ونصادف نماذج للأعمدة هذه في بقاع مختلفة من البتراء، حيث يبدو على الدّوام أن لها معنى دينياً. وتُعرض إما بقاعدة أو بدونها، بيد أن شكلها هو ذاته دوماً، ويكون عريضاً عند القاعدة ويأخذ بالميلان نحو الأعلى إلى أن يبلغ نقطة غير حادة. وأفضل مثال على ذلك هو الضريح في السِّيق الخارجي، حيث نُحتت أربعة من هذه الأعمدة على قواعد (اللوحة 16). وفي كثير من الكهوف يتم نقر العلامة على الحائط، وأحياناً ما تكون مصحوبة بنقش (اللوحة 30)، مما يدلّ على أنه يعد رمزاً للمعبود. ومن المحتمل أن الأنموذج المزوّد بقاعدة هو لاحق لذلك العمود الأشد بساطة الذي يرتفع مباشرة من الأرض دون أن يعترضه العرش [المذبح].

وفي الأزمنة المتأخرة، عندما تأثر الأنباط بالأوروبيين عن طريق اتصالهم بالإغريق والرّومان، تخلّوا عن الكثير من أفكارهم الأكثر بدائية؛ فعُدّ حجر ذي الشَّرى المربع بمثابة قاعدة لتمثال على هيئة إنسان؛ وكان العمود المستدق المقام على قاعدة يمثل المرحلة المتوسطة بين الكتلة الرّمز والتمثال. بيد أن أهمية المذبح أو »العرش» تدلّ عليها النقوش التي تضع أحد القبور تحت حماية «ذي الشَّرى وعرشه، والآلهة جمعاً». و ذلكم هو نقش يبيّن أن الإله وعرشه [مذبحه] ما يزالان يعدّان الشيء ذاته.



مسلّة على قاعدة مع نقش

ويلوح أن أكثر مهرجانات ذي الشَّرى أهمية كان يتم إحياؤه في الخامس والعشرين من ديسمبر، وذلك بالتزامن مع الاحتفالات المقامة في كل من إلوسا والإسكندرية. ويوصف احتفال الإسكندرية مثلاً: «يبقون طوال الليل متيقظين، يترنّمون لوثنهم بالأغاني والمزامير. وينتهي الطقس الدّيني الليلي مع صياح الدّيك، فينزل حملة المشاعل إلى غرفة تحت الأرض ويجلبون تمثالاً ذهبياً، يجلس عارياً فوق مهاد، يعلو جبهته وسمٌ ذهبي بشكل صليب، وعلى يديه وسمان مماثلان، وآخران على ركبتيه؛ وقيل إن مجموع ما عليه من وسمات ذهبية يبلغ الخمس. ويدورون حاملين التمثال عينه سبع مرات حول الجزء المركزي من المعبد وهم يعزفون بالمزامير ويضربون الدّفوف الصّغيرة وينشدون التراتيم. وبعدما يسيرون في موكب يعيدونه من جديد إلى مسكنه تحت الأرض. وإذا ما سئلوا عمّا يقصدونه بغموضهم هذا، يجيبون بالقول: «في مثل هذه السّاعة وهذا اليوم أنجبت «كورى» (أي العذراء) إيون».

ويذهب إيبفانيوس Epiphanius، حينما يصف الشكل العربي لهذا الاحتفال في البتراء، إلى القول إن الأم العذراء كان تدعى كعمو Kaamou بالعربية. مما يوحي بأنها تصحيف لكلمة كعبو. وكلمة كعمو لا معنى لها، بينما ترتبط كعبو مباشرة بكلمتين عربيتين، ألا وهما: كعب وكاعب أي «العذراء الصّالحة للزواج». وأياً كان المعنى المأخوذ، فثمّة صلة قائمة بين ذي الشّرى وأمه العذراء. وأما «العذراء الصّالحة للزواج» فهي السّن التقليدية للأمهات العذراوات[1]. كما أنّ الطفل المزيّن بالصليب مدعاة لاهتمام كبير، إذ يمكن أن تكون الصّلبان رمزاً للنجوم، أي الكواكب الخمسة، فيُرمز الطفل عندئذ للشمس والأم للقمر. ويوحي موعد الميلاد الإلهي بأن هذا المهرجان كان مُدرجاً في التقويم، وإيذاناً بنهاية العام، ومتماشياً مع ما ينطوي عليه ذو الشَّرى من مظهر بوصفه إله الخصب نظراً لوقوعه في بداية موسم الحرث.

ولئن كان من المعتاد الإقرار بأن ذا الشَّرى كان المعبود الأكبر في البتراء، استناداً

(1) قمت هنا بحذف فقرة فيها تداعيات تمسّ معتقدات دينيّة لا يجوز تأويلها على نحو ما فعلت المؤلفة.

إلـى الكتّـاب المتقدميـن والكثير من النقـوش النبطيّـة، فإنه قد يكون من المستحسـن الأخذ بعين الاعتبار أن هذه النقوش كانت في كثير من الأحيان تُطلق على ذي الشَّـرى تسمية «ربّ سيدنا»، ويقصدون به إله الملك. ممّا يظهر أنه كان بالتأكيد الإله الملكي، ولكنـه لا يعنـي بالضرورة أنه كان إله العامّة أيضاً. وبما أنـه إله الملك فمن الطبيعي أن يكـون لديـه المعبد الأكبر والأشـد أهميـة، وأن يكون له العدد الأكبر مـن الكهنة، وأن يبدو بشـكل أضخم في عيون الكتّاب الأجانب، وأن تكون بقايا عبادته بنسـبة أكبر من تلك العائدة للعامة. ولا بدّ أنه كان للإلهة الأم جاذبية أكبر من الإله لدى النسـاء، لأنها كانت على الدّوام المدافعة عن النسوة أثناء الوضع والرّضاعة ورعاية الأطفال الصّغار. ولكـن غالبـاً ما يكون مقامها عبارة عن منزل صغير وليس معبداً ضخماً، وبالتالي كثيراً ما كانت تُغفل عبادتها.

ولقد تمّ العثور على نقوش تظهر أن بعض الملوك المتأخرين كانوا مؤلهين. ففكرة الملك المقدّس كانت شائعة في معظم الدّيانات القديمة، ويبدو من المرجّح أن جميع ملـوك الأنبـاط كان يتم تعظيمهـم بوصفهم آلهة، وإلـى أن يتم العثور علـى المزيد من النقوش ما زال الدّليل على ذلك ناقصاً. والملك لدى الأنباط هو على الدّوام تجسـيد للإله الأكبر؛ ألا وهو ذو الشَّرى.

ولا يُعرف إلا القليل جداً عن الإلهة مَناة. ويشير روستوفتزيف Rostovtzeff إلى أن الخزنة مكرّسة لها، وبأنها كانت «بيت إلهة محلية، ألا وهي إلهة الحظ، وبعبارة أخرى الرّوح الحارسـة لمدينة البتراء، التي تمثل المقابل الإغريقي لكل من هفارينو الفارسية – [هالة نار سماويّة] – وجاد السّامي». ونصادف اسمها على المسكوكات، ولكن بما أن سـكّ العملـة تم إدخالـه بتأثير من الإغريق فنجد أنه يرمز لها عندهم بشـكل أنثوي؛ أما في البتراء ذاتها فقد كانت على هيئة كتلة من الحجارة. وتصوّرها مسكوكات البتراء جالسة على إحدى الصّخور، التي ربما تكون كناية عن الاسم الإغريقي للمدينة. ولمّا كانت المسكوكات مصممة على الطراز الإغريقي وتقع تحت تأثير إغريقي وروماني، فيلوح أن هذه الإلهة كانت بمثابة الحظ السّـعيد للمدينة. وهي تمثل في بعض الأحيان

جالسة في مزار أو معبد.

وهنالك شكلان للمعبد، يكون للمعبد في أولهما عمود على كل من جانبيه يعلوهما ساكف، وفوقه واجهة مثلثة الشكل. والمعبد الوحيد في البتراء الذي يطابق بأي شكل من الأشكال هذا الطراز من العمارة هو الخزنة. ولدى الشكل الآخر من المعبد أيضاً عمودٌ على كل من جانبيه، ولكن يعلو السّاكف حلية معمارية أفقية، مما يذكّرنا بأحد المداخل لدى المصريين. ولا يمكنني تحديد هوية معبد مماثل له في البتراء، وإن كانت هناك أبواب تشابهه. كما لم يتم العثور على أشكال تمثل الإلهة. وعلى الرّغم من أنها بالتأكيد تعود إلى وقت متأخر عن هذا التاريخ، وتم إنجازها بتأثير من الأوروپيين، فإنها على الأقل تظهر بعض الخصائص التي تميزها عن سواها من الإلهات. وفي الوقت الحاضر فإن الحدس الأكثر تجريداً أن ظهور الأحجار المقدّسة الثلاثة معاً يعني أنها تمثل كلاً من ذي الشَّرى، والعُزّى، ومَناة.

بالرّغم من أن اللاّت كانت بالتأكيد الشكل المبكر للإلهة العربية، فإن الشكل المتأخر لها، والمعروف باسم العُزّى، كانت إلهة البتراء. إذ إنها الإلهة المعبودة ذاتها تحت صفة مختلفة، فبدلاً من أن تعرف باسم اللات «الإلهة»، كانت تطلق عليها تسمية العُزّى «عزيزة الجانب». ويعرض المصنّف العربي ابن الكلبي لرواية مثيرة للاهتمام لعبادتها في شبه الجزيرة العربية: «بنى ظالم [بن أسعد] عليها بيساً «يريد بيتاً»، وكانوا يسمعون فيه الصّوت... وكانت قريش تعظم العُزّى وتخصها بالزيارة والهدية دون غيرها من الآلهة...».

ويلوح أن العُزّى كانت تعد المكافئ لنجمة الصّباح، التي تعرف باسم كوكبة، ومن هذا الجانب، فإن القرابين المقدمة لها كانت من الفتيان والفتيات. ويعرض القديس نيلوس، في مؤلف وضعه في القرن الخامس الميلادي، لرواية تنبض بالحيوية عن أسر رجال البادية لولده ثيودولوس(1)، ونجاته بمشقة من تقديمه قرباناً لإلهتهم. وكان ذلك الطقس مقاماً تكريماً لنجمة الصّباح، وبالتالي كان لزاماً إجراؤه قبل شروق الشمس

(1) توجد لهذه الحادثة ترجمة في ملحق الكتاب.

حين تكون النجمة ما تزال مرئية في السّماء. فتم إعداد العدّة من أجل القربان أثناء الليلة السّابقة، وجُهّز البخور، ووُضع الإناء المعد لالتقاط الدّم في مكانه، وكُوّم الخشب المهيأ لإحراق الأجزاء المنتقاة من الضحية، ومن ثم غطّ نبط البادية في نومهم.

وظلّ الضحية التعيس مستيقظاً، وأخذ يتضرّع ألا يُقدّم قرباناً للشياطين، وألا يلقى بجسده المسيحي الخالص طعمة للنيران، وألا يُقدّم أعطية للأشرار. ومن الطبيعي أنه عَدّ استغراق رجال البادية في نومهم إلى ما بعد شروق الشمس استجابةً لصلواته بحيث ضاعت اللحظة المؤاتية لتقديمه قرباناً. وتلكم هي إحدى الرّوايات المتأخرة، إذ إنها تعدّ واحدة من أكثر الرّوايات المفعمة بالحيوية، عن القرابين البشرية لدى السّاميين؛ بيد أن الكتاب المقدّس حافل بالروايات عن قرابين من الأطفال لدى كل من اليهود وجيرانهم الوثنيين.

وبالإضافة الى هذا السّرد القصصي الخاص عن قربان تم إحباطه، يقدم القديس نيلوس Nilus أيضاً عرضاً عاماً للقوم واحتفالاتهم الدّينية: «في الوقت الحاضر لا يدين [الأنباط] الهمج[1] بأيّة ديانة كانت، وهم لا يأبهون أو يعتقدون بالله، سواء كان مصنوعاً أم متخيلاً. وهم يؤدّون الطقوس من أجل نجمة إبليس Lucifer، ويصلّون منكفئين على وجوههم، ويقدّمون قرباناً خير ما يأخذونه من غنيمة، كلما تزوّدوا بما يمكن ذبحه، وهذا يتوافر كثيراً جرّاء أعمال قطع الطريق. ولهذا الغرض، يسعون على وجه الخصوص وراء الفتيان اللافتين للنظر بحيوية شبابهم الغضّ وجمالهم، وهم يقدّمونهم قرابين قرب انبلاج الفجر، وذلك بعد إقامتهم على عَجَل مذبحاً من الحجارة المكوّمة كيفما اتفق.

وذلكم هو، أيها الأصدقاء، ما يسبّب لي ألماً وقلقاً شديدين عبر الخوف من أن يبدو لهم أحد الشبّان - بسبب ما فُطر عليه من حُسن - مناسباً لهذه التقدمة البغيضة، وأن يُقدّم غلام ذو روح نقية قرباناً لأولئك الشياطين المتعطّشين للدماء على أيدي الأشرار الملوثة، وأن أي شيء جدير بالمحبة في شبابهم قد لا ينفع في استدرار الرّأفة من

(1) كلامه هنا عن الأنباط في عصر الجاهليّة.

رجال قسّى قلوبهم الاعتقاد بأن المنفعة الكبرى في صالحهم تتحقق بهذه الوسيلة، بقدر ما يتمّ تفادي كل ضرر منهم إلى شخص محكوم عليه أن يكون كفّارة. وبما أنهم عبر هذا المعتقد تلحّ عقولهم القاسية على هذه الممارسة والجريمة اليومية، فلا يمكن للدموع المذروفة في أي ضرب من الضعف أو أي قدر من البراءة أن تعيقهم عن القيام بذلك، حتى ولو انضمت إليها الاحتجاجات والمناشدات التي تثير المشاعر أكثر مما تفعله أصوات الكائنات الأسطورية السّاحرة [السّيرانات].

ولكن إذا لم يتوافر لديهم ما يلزم من الفتيان، فإنهم يقومون بربط قوائم جمل أبيض خالٍ من الشوائب ويأتون به جاثياً على ركبتيه، ويدورون جميعاً حوله ثلاث مرات، في حين أن زعيم القبيلة أو كبير الكهنة من الشيوخ الجليلين الذين يكللهم الشيب، يتولى قيادة كل من الموكب والترنيمة الجنائزية التي ألّفوها لهذا الطقس تكريماً لنجمة الصّباح. وبعد تأديتهم الدّورة الثالثة، وقبل انتهاء الأنشودة التي يؤدّيها عامة القوم وبينما ما تزال السّنتهم تردد المقاطع الشعرية الختامية من الترنيمة، يستلّ زعيم هذا الرّقص والغناء سيفه ويكون أول من يضرب عنق البهيمة بضربة قوية ويسارع إلى أن يكون أول من يتذوّق طعم دمها[1].

ويتقدم الآخرون في إثره، وقد حمل كل منهم سيفاً، ويبتر بعضهم قطعة من جلدها وشعرها إلى غير ذلك، بينما يمسك بعضهم الآخر بأحد أطراف الضحية التي تكون في متناول أيديهم. ولا يستثنون حتى أحشاءها الدّاخلية، إذ إن الخرافات التي يعتنقها هؤلاء الهمج تجعلهم حريصين على ألا يبقى منها شيء مرئي وغير مستنفد عند أول شعاع للشمس التي سرعان ما سوف تشرق. وهكذا فإنهم لا يحجمون عن تناول النخاع أو العظام، ظافرين بكمية كبيرة من المادة الصّلبة بمثابرتهم وإصرارهم على كدّهم».

(1) هذا وصف نادر لحياة الأنباط الوثنيين في عصر الجاهليّة قبل قرنين، من انبلاج فجر الإسلام، وتحريم مثل هذه الممارسات الهمجيّة.



مذبح المعلاة على الحبس

ومن المعروف أن الأنباط، شأنهم في ذلك شأن سواهم من العرب الوثنيين، كانوا يمارسون تقديم القربان البشري، إذ ثمّة نقش نبطي في منطقة الحِجر [مدائن صالح] ينصّ على هذه الحقيقة على نحو جلي: «عبد ودّ، كاهن ودّ، وولده سالم، وزيد ودّ، قد كرّسوا الشاب سالم ليُقدَّم قرباناً (أي أن يُضرب بالسيف) إلى الإله «ذو غابة». وهو سعادتهم المزدوجة». وإن اسمَي كل من الوالد وابنه لمدعاة للاهتمام؛ فقد كان وُدّ أحد الآلهة الخمسة التي ذكر القرآن الكريم بأن معاصري نوح كانوا يتعبدونها: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة نوح: 23].

ويعني عبد وُد «خادم وُد»، كما يعني كاهن هذا الإله القديم، الذي ربما كانت القرابين تقدّم إليه. وكان ودّ في شكله البشري يُمثل برجل يحمل سيفاً وقوساً وسهاماً. وأما ابن عبد وُد فقد كان يُدعى سالم، وهو اسم ذو صلة بمعنى «السّلام»، والذي ربما مُنح له حينما كرس للقربان، ذلك أنه شأنه شأن كل تلك الطقوس التي تنطوي على القتل سوف يُقدَّم هذا الشاب قرباناً باعتباره كفارة للإله. ولربما تشير «السّعادة المزدوجة» إلى المضحّيَين، ألا وهما عبد وُد وزيد وُد، ولكنها قد تشير أيضاً إلى الوالد وابنه اللذين أصبحا سعيدين، لأن أحدهما قدّم قرباناً، فيما الآخر استرضى الإله.

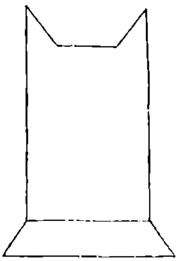
وحينما تكون هناك قرابين بشرية هناك دوماً قرابين من الحيوان. أما إذا كان الحيوان يحلّ محل الإنسان، على نحو ما جاء في قصة إسحق، فأمرٌ غير مؤكد. ومن المحتمل، كما أكد روبرتسون سميث، أن القربان البشري قد نشأ عن القربان الحيواني. ولكن إذا كانت الحال على ذلك النحو، فالأمر المؤكد أن الأنباط، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم الأدوميين، ومعاصريهم من اليهود والعرب، كانوا يمارسون تقديم القربان الحيواني. بحيث إن المعبد في القدس، فضلاً عن المزارات العربية القديمة لا بدّ أنها كانت أشبه بالخرائب منها إلى مكان للعبادة. وفي كل مكان تقدم فيه القرابين لدى الأنباط وكذلك في معبد يهوه، كان ثمّة بالوعة معدّة لحمل الدّم بعيداً، وأحواض أو برك لحفظ المياه اللازمة لغسل البقع عن الأرضيات.

وفـي كل قربـان، سـواءٌ كان بشـرياً أم حيوانيـاً، يؤلف الـدّم العنصر الهـام في ذلك الطقـس. وكان يُعـدّ عنصـر الحيـاة الفعلية، ويُسـكب، أو يُنثـر على المذبـح أو تمثال الإلـه أو يلطخـان به؛ ففي حالة هـارون وأبنائه كانت الدّماء تُنثر عليهم أثناء ترسـيمهم في منصـب الكاهن. وكانت الحيوانات التي اعتاد العـرب تقديمها قرباناً هي المعتادة للقربـان الإبل والأغنام والماشـية؛ وكانت آخرها مدعاة للاهتمام لأن اسـتخدامها في القرابين كان أكثر شـيوعاً من اسـتعمالها في الحياة اليومية للناس. وقد أُبيحت الغزلان إذا تعذر الحصول على الأغنام والماعز. وفي العصور المتأخرة كان الحيوان القرباني عند قبر هارون على جبل هارون هو المعزاة.

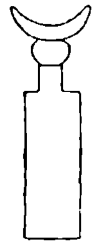
ويتعيّـن علينا أيضا أن نتذكر أن المسـلم المعاصر يعـدّ قتل أي حيوان بقصد الطعام ضربـاً من الأضحية. ولا بدّ من النطق باسـم الله («باسـم الله، الله أكبر»)، ويجب أن يُقتـل الحيـوان بإراقة دمه. والمسـلم الحق لن يـأكل أي لحم ما لم يتـم ذبحه بالطريقة التقليديـة. ويحـرّم القرآن الكريم بجـلاء تناول الطعـام: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾. [سـورة المائدة: 3]. ويلاحظ سـايل Sale أن «العـرب الوثنيين لدى قتلهم أيّ حيوان من أجل الطعـام أو لتقديمـه قرباناً لأصنامهم كانوا يقولون: «باسـم الـلاّت، أو العُزّى». وعلى الأرجح أن الأنباط كانوا يتّبعون عادات العرب القدماء، وأن معابدهم، شأنها في ذلك شأن معابد جيرانهم الفلسطينيين، كانت مضرّجة بالدم.

وتُظهر مسـكوكات البتـراء، المتأثرة بطبيعة الحـال بالطراز الإغريقـي، أن المعبود الرّاعـي للمدينة كانت إلهة، لعلها الإلهة مَناة، التي تصور على أنها شـابة ترتدي لباسـاً إغريقياً وتقف بجانب المذبح وتقدم القرابين. ويكون المذبح ذا قرن (الشـكل 7) كما هي الحال مع تماثيل المذابح المنحوتة على صخور المدينة وقبورها (الشكل 8). ولم يتـم العثور علـى أيّ مذبح مماثل له في البتـراء، ولكن إذا ما كان شـيئاً قابلاً للتحريك فيكـون قـد اختفـى منذ مـدة طويلـة. ويعلم الجميـع فكرة وجـود مذبـح ذي قرن من الوصوفـات الواردة في الكتاب المقدّس، حيث يبلغ طول المذبح المعد للقرابين التي

يتم إحراقها خمسة أذرع وعرضه خمسة أذرع وارتفاعه ثلاثة أذرع، وكان مصنوعاً من خشب السّنط [الأكاسيا]، «وتصنع قرونه على زواياه الأربع منه تكون قرونه وتغشّيه بنحاس؛ وتصنع قدوره لرفع رماده ورفوشه ومراكنه ومناشله ومجامره جميع آنيته تصنعها من نحاس». (سفر الخروج، 27: 2،3).



الشكل 8



الشكل 7

وكان الإمساك بقرون المذبح إيذاناً بأن يضع المرء نفسه تحت حماية الإله الذي ينتمي إليه المذبح، ولكن في الأزمنة المبكرة حينما كان المذبح والإله الشيء ذاته كان المتضرّع يُعدّ وكأنه قابضٌ بالفعل على المعبود ذاته. كذلك فقد كان مذبح البخور ذا قرن أيضاً: «طوله ذراع وعرضه ذراع مربعاً يكون وارتفاعه ذراعان منه تكون قرونه؛ وتغشيه بذهب نقي سطحه وحيطانه حواليه وقرونه وتصنع له إكليلاً من ذهب حواليه». (سفر الخروج، 30: 2،3).

وكان المذبح ذا القرن معروفاً في كريت قبل وقت طويل من ظهوره في فلسطين وشرقي الأردن، ومن المحتمل أن شعوب الشرق الأدنى قد أخذوه عن أهالي كريت. وأقدم شكلٍ للمذبح عرفه بنو إسرائيل وربما الأدوميون أيضاً كان شديد الاختلاف وأكثر ملاءمة لظروف حياة البدو شبه البدائيين. «مذبحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك؛ وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتة إذا رفعت عليها إزميلك تدنّسها». (سفر الخروج، 20: 24، 25).

وكان مذبح يشوع المقام على جبل عيبال مبنياً من «حجارة صحيحة لم يرفع أحد عليها حديداً». [سفر يشوع، 8: 31]. وكانت إحدى الملامات العديدة التي أولع

الأنبياء في العصور المتأخرة بإلقائها على شعوبهم أن تكون «مذابحهم كرجم في أتلام الحقل». [نبوءة هوشع، 11: 12]. ولم يكن بالإمكان إقامة المشيدات الخشبية والمعدنية المتقنة لكل من الظلّة التي اتخذها اليهود هيكلاً نقالاً والمعبد إلا بعد أن يكون ثمّة مكان مستقرّ للعناية بها. وقد حافظ الأدوميون والأنباط المتأخرون، مع ذلك، على العُرف القديم للحجر غير المنحوت الذي كان إلهاً ومذبحاً في آن واحد. وحتى في العصر المسيحي كان پورفيري Porphyry قادراً على التحدث عن «المذبح الذي اتخذه (العرب) وثناً لهم».

ومن المحتمل أنه لم يكن هناك كهنوت بالمعنى الذي نفهمه لهذه الكلمة. فالعرب الأولون، شأنهم في ذلك شأن العبرانيين الأوائل، لم يكن لديهم كهنة بل كانوا يقومون بتقديم قرابينهم بأنفسهم في الأماكن المقدّسة الخاصة بهم. إذ قدّم يفتاح ابنته قرباناً بيديه كلتيهما؛ وقام ابن ميخا بمهمة الكاهن لدى أسرة أبيه؛ ويلوح أن جدعون كان يضطلع بالنيابة عن أفراد أسرته جميعاً بمهمة تعبّد الوثن الذي صنعه من الأقراط الذهبية للمدينيين. وعلى هذا النحو قام الأنباط، استناداً إلى سترابو، »بتشييد المذبح أعلى أحد البيوت، ويسكبون عليه السّائل المراق تكريماً للإله ويحرقون البخور فوقه كل يوم».

وذلكم هو أيضاً العُرف السّائد بين ظهراني اليهود أيام النبي صَفَنيا، الذي توعد سكان القدس بأن ينزل الله عليهم غضبه بسبب ما ارتكبوه من أعمال سيئة. «واقطع من هذا المكان بقية البعل... والسّاجدين على السّطوح لجند السّماء». [نبوءة صفنيا، 1: 4،5]. وبما أن جميع بيوت القدس التي تعود إلى تلك الحقبة قد زالت، ولم يبق أيَ بيت في البتراء، فلا سبيل لنا إلى التحقق من صحة الرّواية هذه، ولكن يبدو أن العدد القليل من «الأماكن العالية» [المعليات] في البتراء يثبت حقيقة أن كلاً من العائلات الثرية كان لديها مكان خاص للعبادة والقرابين (اللوحتان 31 و32).

كان الكاهن في الأزمنة الغابرة المفسّر للنبوءات والأحلام، ويقيم بجوار المزار الذي كان قيّماً عليه، حيث يعلن وصية الإله للسائل عنها. وفي أحيان كثيرة كانت

تعطى النبوءة بإلقاء القرعة، ويبدو أن الحال كانت كذلك في معبد يهوه أيضاً، حيث كان كبير الكهنة يمارس الطقس الدّيني بوساطة الأوريم والتوميم. «فسأل شاؤل من الرّب فلم يجبه الرّب لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء». [سفر صموئيل/ الملوك الأول، 28: 6]، مما حثه على السّعي وراء الإرادة الإلهية متوسلاً بساحرة عين دور، التي لم يكن يعترف بها الدّين الرّاسخ، ولذلك فقد عدت متحالفة مع الشيطان.

وثمّة مثال آخر على اكتشاف إرادة الرّب بإلقاء القرعة في انتخاب ماتياس ليأخذ مكان يهوذا الاسخريوطي في فرقة الرُسل. إن أسلوب العرافة بوساطة الأوريم والتوميم غير معروف، ولكن الكتاب المقدّس يأتي على ذكر أساليب أخرى. وأكثرها تفصيلاً نبوءة ملك بابل على نحو ما تعرض لها نبؤة حزقيال، 21: 21: «إن ملك بابل قد وقف على أم الطريق على رأس الطريقين ليعرف عرافة صقل السّهام سأل بالترافيم نظر الى الكبد».

ومن هذه الأساليب ما كان يمارسه العرب القدماء، وبالتالي ربما كان يمارسه الأنباط برميهم الأسهم غير مستدقة الرّأس أو الأغصان؛ وكانت الأغصان تلك ناعمة الملمس من أحد طرفيها ويكسو اللحاء طرفها الآخر. وما تزال الأغصان هذه تستعمل في شرقي الأردن وأجزاء من فلسطين في مزاولة ألعاب يمتزج فيها الحظ والمهارة، مثل طاولة النّرد لدينا؛ ولكن في الأصل كان استخدام تلك الوسائل للتحقق من الخطوة التالية للمرء في إحدى الألعاب أو الأعمال في الحياة يعد قدسياً، ولا يمكن تأديته إلا على يد الكهنة باعتباره عملاً دينياً.

وكان الرّقص جزءاً من طقوس العبادة القديمة لدى اليهود والعرب، وتتمّ تأديته أمام موضوع العبادة. وغالباً ما كان رقصاً مفعماً بالحيوية يتخلله القفز والجري. وهكذا «كان داود يرقص بكل قوته أمام الرّب». [سفر صموئيل/ الملوك الثاني، 6: 14]، فيما كان كهنة بعل يثبون صعوداً ونزولاً عند المذبح. وفي وقت متأخر عن ذلك كان العرب أيام الجاهلية يخنسون عُراة حول الكعبة في مكة. أما في الوقت الحاضر فإن الطواف حول الكعبة يتمّ وفق شعائر خاصة مفروضة، ومن الواضح أنها ذات طبيعة طقسيّة. وينهى القرآن الكريم

عـن العـري: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾. (سـورة الأعـراف: 27). وفي سـورة أخرى نجـد اعتراضات على الطقـوس التـي كانت تمـارس عنـد الكعبـة: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة الأنفال: 35).

وبالرغـم مـن أننا لـم نجد أن العـرب كانوا يتقرّبون مـن الآلهة بحرق البخـور، فبإمكان المرء أن يفترض منطقياً أن الحملة الرّئيسـين للعقاقير والعيدان العطرية كانوا يسـتخدمونه. والمرجّـح أن المذابح في البتراء كانت تعبق بعطر سـماوي في كل مناسـبة لتقديم القرابين والتعبّد. وكان يقدم أيضاً النبيذ والحليب ونوع من الخبز. وذلكم هو على وجه الخصوص شـكل عبادة إحدى الإلهات، وبالإمكان الوقوف على مدى رسوخ هذا الطقس من الرّواية التـي تعـرض لهـا نبوّة إرميا حينمـا قال الرّجال والنسـاء على السّـواء للنبـي محتدين: «بل سـنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخّر لملكة السّـموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نرَ شراً؛ ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السّموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل شيء وفنينا بالسيف والجوع». [نبوّة إرميا، 44: 17، 18].

وكانـت النذور تقدّم فـي المعابد، أو إذا لـم يكن هناك معبد، فتقدم عندئذ إلى الإله. وهذه النذور شائعة في كل مكان وتقدم للشكر على العون في مشكلة ملحّة. ويطالعنا مثالان، أحدهما عن العرب القدماء والآخر عن اليهود القدماء، على النظام الذي ربما كان يعمـل بـه الأنباط. إذ قتل مكراز بن حافظ قاتل شـقيقه بسـيف القاتـل ذاته، ثم قام بتعليقه على الكعبة. وحينما قصد داود أحيملك، وهو الكاهن في مدينة نوب، لم يكن يحمـل سـلاحاً، ولذلك فقد سـأله: «وقـال داود لأحيملك أفما يوجد هنـا تحت يدك رمح أو سيف لأني لم آخذ بيدي سيفي ولا سلاحي... فقال الكاهن: إن سيف جُليات الفلسـطيني الـذي قتلته فـي وادي البطم ها هو ملفوف في ثوب خلف الأفود». [سـفر صموئيل/ الملوك الأول، 21: 8، 9].



رمز ذي الشَّرى أعلى الحبس

ولا بدّ أن عادات الدّفن عند الأنباط كانت على درجة عالية من الإحكام وذلك بالحكم على القبور التي كانوا يدفنون فيها موتاهم، ولكن سترابو يعرض لرواية استثنائية مفادها أن الأنباط «كانوا ينظرون إلى جثث موتاهم على أنها ليست أفضل من الرّوث؛ وهو ما عبر عنه هيراكليتس بالقول: «إنه لمن الأفضل التخلص من الجثث قبل الرّوث»، وبناء على ذلك فهم يدفنون حتى ملوكهم بجوار أكوام الرّوث». وإن كل من يعرف البتراء سواء شخصياً أم عن طريق الكتب سوف يدرك أن تلك الرّواية مجانبة للحقيقة ومردّها سوء الفهم. ولقد أشار كليرمون غانو Clermont–Ganneau إلى المعنى الحقيقي، مبيّناً أن كلمة «قبر» في الآرامية والسّريانية هي «كَفَر» أو»كُفرا»، ويلوح أن سترابو قد اعتمد الكلمة اليونانية «كوپرون» *Kopron* وتعني «كومة روث»، وأحسن استغلال مرجعيته فخرج برواية من نسيج مخيلته. وذلكم هو أمرٌ مدعاة لأسف أكبر إذ إن عرضه للأنباط من نواح أخرى كان دقيقاً إلى حد ما.

وفيما يتصل بعادات الدّفن يتعيّن على المرء من جديد أن يتتبع العرب القدماء، إذ إنهم يتفقون مع اليهود، وذلك من أجل الوقوف على شيء من الأعراف السّائدة لدى الأنباط. ومن المؤكد أنه نادراً ما كان يُمارس حرق جثث الموتى. إذ إن الكمية اللازمة من الخشب لحرق جثة بشرية كبيرة جداً، ولم يكن يوجد ما يكفي من الأخشاب في أدوم إبان أيام الأدوميين أو الأنباط. وكانت عادة الدّفن في الأرض، بالتالي، حاجة ملحة، وأضحى حرق الجثث من المحرّمات بحيث إن عاموس أنزل لعنته على مؤاب «هكذا قال الرّب من أجل ذنوب موآب الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم أحرقوا عظام ملك أدوم كلسا» [نبوءة عاموس، 2: 1].

وكان الأنباط شأنهم شأن اليهود والعرب يدفنون موتاهم، ولكن من الجليّ أنه إذا ما بلغ تعداد سكان البتراء في أي وقت مضى ثلاثين ألف نسمة أو حتى نصف ذلك العدد فلا بدّ أن المقبرة كانت مقامة خارج الوادي، باستثناء قلّة من ذوي اليسار باستطاعتهم تحمّل التكاليف الباهظة للأبواب المنحوتة أو القبور المنقورة في الصّخر. وكان العرب يعدّون من العار ألا يُدفن الموتى في القبور، ومن الواضح أن اليهود

كانوا يشـاطرونهم الـرّأي ذاته، فما من أمـر يُظهر مبلغ الغضب الـذي أنزله الرّب على إيزابل حيث لم يبق منها ما يُدفن، وتوعد إرميا إلياقيم بأن يُدفن دفن الحمار «مسـحوباً ومطروحاً بعيداً عن أبواب أورشـليم» [نبؤة إرميا، 22: 19]. وكان لدى الأنباط شأنهم شـأن البطاركـة العبرانييـن قبور عائليـة. والواقع أنهم كحـال ملوك يهوه كانـوا ينامون [يدفنون] مع آبائهم. وكانت تحرق العطور من أجل ملوك اليهود تمهيداً لدفنهم، ومن المعقول الافتراض بأنه تم اكتساب العرف ذاته من السّوق التجارية الضخمة التي تباع فيها كافة أصناف التوابل والعطور.

وثمّـة عادة قديمة شـائعة جداً في العالـم القديم لم يكن اليهود بمنـأى عن اتباعها، حيـث يوضـع الطعام والشـراب في القبر مع الموتـى، على أن تجدّد مـن وقت لآخر. وكان المـدة الفعلية للحداد سـبعة أيام؛ ويحلق المعزّون شـعر رؤوسـهم، ويجرحون أيديهم وأجزاءً أخرى من أجسادهم بالمدى، ويمزقون ملابسهم ويحثون التراب على رؤوسـهم. ويتنـاول إرميا تلـك العادات باقتضاب شـديد في معرض لعناتـه المعتادة: «فيمـوت الكبـار والصّغـار فـي هـذه الأرض لا يُدفنـون ولا يندبونهم ولا يخمشـون أنفسـهم» [نبـوءة إرميـا، 6: 16]. ولا بدّ أنه كان هناك أيضاً أشـخاص يمارسـون ندب الموتـى حرفة لهم، فكانوا يضربـون صدورهم ويهيمون علـى وجوههم في الطرقات وهم يبكون وينوحون. ويصوم أولئك النادبون طوال أيام الحداد السّـبعة؛ وفي نهايتها تقـام وليمة جنائزية، وربمـا لهذا الغرض كانت تقام في البتراء قاعات للمآدب بشـكل مصطبة منحوتة في الصّخر تحتوي على أريكتين أو ثلاث، يجلس أو يتكئ عليها أفراد أسرة المتوفى، حيث كانوا يولمون على شرفه

ومما يؤسـف له أن القبور قد سُـرقت تماماً بحيث لم يبق منها إلا القليل من الأشياء المدفونـة مـع الموتى، رغـم أنها يجب أن تكـون وافرة العدد وربمـا ذات قيمة. ولعله مدعـاة للاهتمـام معرفة الأشـياء التي كان يعدهـا الأنباط ذات قيمة بمـا يكفي ليرغبوا باصطحابها معهم إلى العالم الآخر وخاصة إذا كانوا قد درجوا على حمل التعاويذ. إذ تؤمن الشـعوب القديمة كافة والكثير من الشعوب الحديثة بفعالية التمائم التي يحملها

جسد الإنسان. وكثيراً ما يتم العثور على تلك التمائم مدفونة مع الموتى في بقاع أخرى من الشرق الأدنى.

وهناك أيضاً مقادير ضئيلة لدى العرب في الجاهلية من آثار معتقدات أخرى وهي أصغر من أن تُبجّل باسم الدّين ومن الصّعب أن توصف بالخرافات. ولم تترك أيّة آثار مادية ليعثر عليها علماء الآثار. ومنها واحدة من المرجّح أن أصحاب الإبل من الأنباط كانوا يمارسونها. فحينما يبلغ تعداد أحد قطعان الإبل لدى العرب مئة رأس، يتم التمثيل في الجمل ذي الرّقم مئة على نحو يجعل ركوبه أمراً مستحيلاً. وحينما يبلغ تعداد القطيع ألف رأس، تفقأ عين الجمل المعدّ للاستيلاد في ذلك القطيع. وذلك عملاً بالمبدأ القائل بأن في السّعة البالغة من العيش مجلبة لغضب السّلطان.

وينتمي إلى ما يعرف بالفطرة الدّينية لدى المسلمين المعاصرين خمسة أمور هي: الختان، وحلق شعر العانة، ونزع شعر الإبطين، وتقليم الأظافر، وتحفيف الشاربين. أما الختان فيمارسه المصريون منذ القديم، وعرفه العبرانيون على يد إبراهيم [عليه السّلام] ويبدو أنه قد بلغه عن طريق هاجر المصرية. وفي جميع البلدان يُعدّ قص الشعر وتقليم الأظافر دوماً بمثابة طقس ديني ثانوي، لكن لا بدّ من إتلاف قلامات الأظافر والشعر المقصوص بعناية فائقة؛ وفي هذا الصّدد، يتفق العرب، وربما الأنباط أيضاً، مع سواهم من الأمم.

ثمّة طقس ديني آخر لم يترك أي أثر مادي يدل عليه، ألا وهو تقديم القرابين أو إقامة الصّلاة للأدوات التي يستخدمها المرء في مهنته. وذلكم هو طقس معروف بشدة لدى الهندوس في يومنا هذا، ويلوح أن فئات معينة من اليهود في القرن السّابع قبل الميلاد كانت تستعمله، إذ إن النبي حبقوق يصف الصّيادين في عصره بالقول: «تصطادهم بشبكتها وتجمعهم في مصيدتها فلذلك تفرح وتبتهج؛ لذلك تذبح لشبكتها وتبخّر لمصيدتها لأنه بهما سمن نصيبها وطعامها مسمّن» [نبوءة حبقوق، 1: 15، 16].

ويصف هيرودوتوس أسلوب قطع العهود: «ما من أمّة تحترم العهود وتقدّسها مثل العرب. فإذا أراد رجلان أن يوثقا العهود بينهما فإنهما يقفان على جانبي رجل ثالث

يحمل حجراً حاداً يستخدمه لجرح راحتي يديهما بالقرب من أسفل الإبهام، ثم يأخذ بعض خيوط الصّوف من ثيابهما ويغمسها بدمهما ويلطخ بها سبعة أحجار تقع بينهما، وهو يردد اسم كل من ديونيسوس وأورانيا. ثم يقوم الشخص الذي أخذ العهد على نفسه بتوصية أصدقائه بمن عاهده سواء كان غريباً أم قريباً، وبذلك يعتبر أصدقاؤه أنفسهم ملتزمين بهذا العهد». ويذهب هيرودوتوس إلى القول إن «ديونيسوس هو في لغتهم أوروتال[1]؛ أما أورانيا فهي اللات»[2].

لقد تمّ الإيحاء بأن الأنباط كانوا يتعبّدون الثعابين نظراً لوجود معلمين رائعين يمثلان الثعابين في الوادي. ويقع أحدهما في كهف بجبل العَطوف، والآخر بالقرب من المدخل الجنوبي في البتراء. وإلى أن يوشك دليل آخر على الظهور فإنني أؤثر أن أعتبر أن كلا المعلمين أقامهما متعبّدو الآلهة الأجنبية.

* * *

(1) الاسم محرّف عن: ذو الشَّرى، أي سيّد الجبال، ولو أنه عُرف باليونانيّة لاحقاً باسم: دوساريس.

(2) انظر: تاريخ هيرودوتوس، ترجمة عبد الإله الملاّح، ط 2، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث - المجمع الثقافي، أبوظبي، 2007، ص 220.

الفصل السّابع

العادات والتقاليد في البتراء القديمة

الأدوميون

يعدّ الكتاب المقدّس مصدرنا في معرفة أخلاق الأدوميين وعاداتهم وتقاليدهم وحضارتهم على العموم. أما التنقيب الأثري فقد كان أقل جدوى في الاطلاع على هذه الفترة مما يشير إلى أن الوادي كان مجرّد مأوى أو مقصداً للحج، وخاوياً على عروشه، بصرف النظر عن حقيقة الأسباب. وكان الناس يعيشون إما على الهضبة أو في الوديان القريبة، فإذا فرّوا طالبين ملجأ من الخطر لم يكونوا يحملون معهم سوى ما يستطيعون حمله، وإذا عادوا إلى مرابعهم السّابقة حملوا حتى هذه الأشياء معهم أيضاً. أما من حيث كونه قبلة للحج فلم يكن أحفل بالسكان مما هو جبل هارون اليوم. وحتى إذا كان محطة تستريح فيها القوافل فإنه سيكون عندئذ مجرّد مكان مؤقت للراحة، ولا يتكلف التجار فيها إنزال الأحمال عن ظهورها.

وكنتُ قد ذكرتُ سابقاً (في الفصل الثالث) التقالبد التي تتصل بالانتساب للأم وأشغال المعادن عند الأدوميين، وما عدا ذلك ليس هناك سوى بعض الإشارات إلى حضارة أدوم التي وجد مؤرخو الكتاب المقدّس أنها جديرة بالتدوين.

لمّا كانت الأحداث في الكتاب المقدّس التي يرد فيها ذكر أدوم تنتمي جميعها إلى العصر الحديدي، فإنّ «السّيف» الذي كان الأدوميون يتسلحون به يوم رفض ملكهم السّماح للإسرائيليين بالمرور كان مصنوعاً من الحديد. وكان لدى هؤلاء أراض وكروم عنب وآبار وطريق ممهدة أحسن تمهيد حتى صارت جديرة باسم «طريق الملك».

والمفترض عادة أن النبي بلعام كان في الوقت ذاته ملك أدوم وكانما كان الأدوميون يحكمون من نبي هو في الوقت ملك، نبي - ملك، شأنهم شأن الإسرائيليين، فيما بعد، حين حكمهم النبي صموئيل.

ولئن كان حابر القيني «انفصل عن القينيين» فإنه ظلّ يأخذ في الأرجح بعدد من أعراف بلده. فكانت له خيمة شأنه في ذلك شأن البدو كافة في الشرق الأدنى، وهي نسيج من شعر الماعز أو وبر الجمل، تقوم على نسجه نساء الأسرة، بينما يتولى الرّجال صنع الحبال اللازمة للخيمة. وكانت الأوتاد التي تستخدم في تثبيت الخيام في الأرجح من الحديد، لأنه لا بدّ وأن تكون المطرقة مجرّد حجر ثقيل كالذي يستخدمه البدو اليوم. والطعام الذي قُدّم لسيسرا هو كذاك الذي يتناوله العرب اليوم، أي الحليب واللبن الرّائب أو الخثارة، وجريمة القتل غدرا التي أقدمت عليها ياعيل واغتالت عندئذ لاجئاً دعته إلى خيمتها، إما لأنها إسرائيلية أو لأنها كانت تحوّلت شأنها في ذلك شأن زوجها إلى ديانة يهوه. وكالعهد بكل المتحولين إلى عقيدة جديدة كانت شديدة التعصّب لمعتقدها الجديد.

وفي التاريخ هناك صمت يحيط بالأدوميين وطرائقهم حتى غزو العمالقة في جنوب فلسطين. وليس ثمّة ما يقطع الشك باليقين إن كان هؤلاء العمالقة من الأدوميين فعلاً، لأن المؤرخين يطلقون هذا الاسم على كل من بدو سيناء وبدو شرق الأردن سواء بسواء. وكانت صقلاج Ziklag قد أُحرقت وثار أصحاب داود لأخذ زوجاتهم وعائلاتهم أسرى. فأسرع داود ليلحق بالعمالقة فوجدهم في فرح ومرح يرقصون رقصة لا ريب بأنها ابتهاجاً بالنصر فاشتبك الطرفان في معركة لم يسلم فيها من العمالقة سوى من ركب الجمال. ولما عاد داود من غزواته في شرق الأردن كان يحمل معه من أدوم ومؤاب وعمون الذهب والفضة. وقد تجنّب في معاملته الأدوميين التعذيب كما فعل مع المؤابيين والعمّونيين، إذ عرف عن أولئك الأدوميين روح الاستقلال والشدّة في الحفاظ عليها، بينما قام بما من شأنه استئصال شأفة الآخرين، فأفناهم عن بكرة أبيهم وكل ما استطاعت أيدي مبعوثيه أن تصل إليهم.

وقد حلّت كارثة عظيمة ومجهولة الأسباب على القبائل شرقي الأردن، وفق ما ورد في الكتاب المقدّس: «وكان بعد ذلك أن أتى بنو مؤاب وبنو عمّون ومعهم الأدوميون لمقاتلة يوشافاط... ولما أخذوا في التسبيح والحمد أقام الرّب كميناً على بني عمون والمؤابيين وأهل جبل سعير الذين جاؤوا على يهوذا فانهزموا. وقام بنو عمّون والمؤابيون على سكان جبل سعير ليبسلوهم ويهلكوهم. ولما فرغوا من سكان سعير تساعدوا بعضهم على إهلاك بعض... فأقبل يوشافاط وشعبه لأخذ غنائمهم فوجدوا بينهم أموالاً كثيرة بين الجثث وأمتعة ثمينة فاستلبوها لأنفسهم فكانت أكثر مما أمكنهم حمله وبقوا ثلاثة أيام يجمعون الغنيمة لأنها كانت كثيرة». [سفر أخبار الأيام الثاني، 20: 1، 22، 23، 25].

وهذا يبيّن أن أهالي شرقي الأردن على العموم أغنى من سكان غربي النهر طالما أنه كان باستطاعتهم أن يحملوا هذا الحمل العظيم من الثروات، ولا بدّ أن المصدر الأساس لهذا الثراء التجارة، لأنه لطالما كانت المرافئ الواقعة على خليج العقبة هدف غزوات الأدوميين. وهناك مصدر آخر للثروة، وإن كان أضعف سبباً، ولعمله مناجم الحجارة الكريمة في جبالهم، فهناك كان يجد المرء حجارة الغرانيت والحجر السّمّاقي، والبازلت وسوى ذلك من الأحجار القاسية مما يوجد هناك، وربما كانت تُصدّر لبناء المعابد في البلدان التي تفتقر للأحجار.

وكان الأدوميون يُعتبرون ذوي حكمة عظيمة، بل وتفوق حكمة بني إسرائيل، وربما بسبب المقدرة على جمع الثروات التي يتمتعون بها. فيقول في هذا النبي إرميا: «على أدوم. هكذا قال ربّ الجنود أليست الحكمة باقية في تيمان. هل هلكت المشورة عن الفهمين وفرغت حكمتهم؟» [نبوءة إرميا، 49: 7] ويتابع عوبديا هذا النهج فيقول: «ألا أبيد في ذلك اليوم يقول الرّب الحكماء من أدوم والفهم من جبل عيسو». [نبوءة عوبديا: 8].

ويمضي باروخ على النهج ذاته فيقول: «وبنو هاجر أيضاً المبتغون للتعقل على الأرض وتجار مران وتيمان وقائلو الأمثال ومبتغو التعقل لم يعرفوا طريق الحكمة

ولم يتذكروا سبلها». [نبوءة باروخ، 3: 23].

ويفسّر هذا الاعتقاد السّائر بحكمة الأدوميين المحن التي ابتلي بها أيّوب في أرض عوص، وهو اسـم آخر تُعرف به أدوم. ولئن كانت هذه الرّواية مجرّد رواية من الأدب فإنها تبين التقدير الذي تحظى به أدوم. فالفلسـفة الدّينية التي يعتنقها أيّوب وأصدقاؤه الثلاثـة المعزّيـن لـه والقضايـا التـي أثاروها، كانـت تتدفق بيُسـر من أفـواه الأدوميين الحكماء أكثر مما لو صدرت عن أي قوم سـواهم، على الأقل في نظر المؤلف وقرائه المعاصرين له. يعرض سـفر أيّوب على نحو غير مقصـود قدراً عظيماً من المعلومات عن حضارة أدوم أيام وُضع هذا السّـفر. ويرجّح أن يكون هذا السّـفر بعد السّبي ولكنه سابق على كل حال للفترة النبطيّة وهو بالتالي مفيد في عرض حياة الأدوميين اليومية.

ومـع أن هذا السّـفر وُضـع أصلاً كعمل أدبي دون أيّة محاولة لرسـم صـورة الحياة اليوميـة الفعلية، فإنه يوفر معرفة كافية عن حضارة أدوم ليحول دون وقوع المؤلف في مفارقة تاريخية بالغة، وهو الذي يجعل القصة صادقة قدر ما يسـتطيع وإن كان اهتمامه الحقيقي يكمن في المجادلات الدّينية. فحضارة أدوم، إذن، تبدو أنها كانت رفيعة إلى حـدّ كبيـر. ولا بدّ أنـه كان بين أدوم وبلد متقدّم جداً مثل مصر يقع على مسـافة يسـيرة جداً الكثير من التجارة وأسـباب الرّضى. فقد كانت «المرايا المصهورة» تشـبه المرايا البرونزية ذات الشهرة الواسعة في مصر؛ كانت المصابيح والشموع شائعة الاستخدام؛ كذلك كانت صناعة الأقمشة تعني استخدام الغزل والنسيج؛ ولا بدّ أن الخياطة والإبر والخيـوط كانـت تصنع والثياب تقص وتُخـاط. وكانت الكتابة معروفـة كما يمكن أن يتوقع المرء بسبب القرب من مصر والنقوش على الصّخر وفيه.

وهـذه النقطـة الأخيرة جديرة بالاهتمـام نظراً لضآلة عدد النقـوش التي وجدت في هذا التاريخ في شـرق الأردن؛ ومفاد القول أن الحجر المؤابي والنقوش النبطيّة ليست الأمثلـة الوحيدة، وربما كان هناك المزيد الذي ينبغي التنقيب عنه. والشـاهد أن رجال أدوم كانـوا يتزيّنون بالأقراط الذهبية، لأنه حين اسـتعاد أيّوب عافيته وجاء أهله لتهنئته «وزاره جميـع إخوتـه وأخواتـه وكل من كان يعرفه مـن قبل، وأكلوا معه خبـزاً في بيته

ورثوا له وعزّوه عن كل البلوى التي أنزلها الرّب به، وأهدى له كل منهم نعجة وخرصاً من ذهب» [سفر أيّوب، ف42: 11].

وهـذا يبيّن بجلاء شـديد القـوم الذين ينتمـي إليهم أيّـوب وأقاربه، لأنـه حين هزم جدعون القبائل الشرقية (سفر القضاة، 8: 24 وما بعدها) طلب من أتباعه أن يتخلى كل رجل عن شيء من غنيمته». ثم قال لهم جدعون إني أقترح عليكم أمراً واحداً، يعطيني كل واحد منكم خرصاً من غنيمته فقد كانت لهم خرصان من ذهب لأنهم إسماعيليون. فقالوا لك ذلك وبسـطوا رداءً، فألقى عليـه كل امرئ منهم خرصان غنيمته. وكان وزن الخرصان الذهب التي طلبها ألفاً وسبع مئة مثقال ذهب».

وكان أيّـوب أعظـم رجـال المشـرق، وتتألـف ثروته من الغنـم والجمـال والثيران والأتن، سـوى عـدد كبير من العبيـد. وكان لديهم للطعام خبز ولحم وطرائد، واللبن الرّائـب، وبالتالـي، طبعـاً، الحليب الطـازج وربما جبن وزبـدة؛ فضلاً عن ذكـر النبيذ والزّيت. وكان الأدوميون على معرفة بشيء من علم الفلك وربما أخذوه عن جيرانهم العـرب؛ وقـد ورد ذكـر الوزن بالميـزان كمـا كان هناك أدوات موسـيقية، مثـل الدّف والقيثـارة و«الأرغن»، وهاتـان الآلتان من الآلات التقليدية ومعروفتـان من أيام يوبال – قاين. واحتوت أسلحتهم السّيوف المعدنية والأقواس والنبال، والدّروع ذات العقد الثخينة، أما حصان الحرب فأشـهر من أن يعرّف في هذا المجال. وكانت بيوتهم – إما من القرميد المشوي أو هي أكواخ من الأعشاب أو شجيرات الدّغل؛ وكان أبناء أيّوب وبناتـه يقيمون وليمة في بيت أخيهم حين داهمتهم العاصفة... «وصُدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا» [سفر أيّوب، 1: 19]. وفي مجال آخر ورد ذكر عن لصوص وقتلة وفاسـقين «ينقبـون البيوت في الظلام ويغلقون على أنفسـهم في النهار فلا يعرفون النور». [سفر أيّوب، 16: 24].

وثمّة بعض الإشـارات عن تقاليد جيدة؛ فحين حضر أصدقاء أيّوب «وجلسـوا معه على الأرض سـبعة أيام وسـبع ليال. ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهـم رأوا أن كآبته كانت شـديدة جداً» [سفر أيّوب، 2: 13]. وفي أيام رخائه «يراني الشبان فيتوارون والشيوخ

يقفون منتصبين. والأمراء يمسكون عن الكلام ويجعلون أيديهم على أفواههم». [سفر أيّوب، 29: 8، 9].

ويبدو أن النساء كنّ يتمتعن بوضع رفيع؛ فكان أبناء أيّوب وبناته يتناولون الطعام معاً. وحين استعاد أيّوب حالته القديمة من الرّخاء ولد له سبعة أبناء آخرون، لكن لا يرد إلا أسماء البنات، ربما لأنهن نجون من الكارثة التي قضى فيها الفتيان السّبعة الأوائل. ويبدو أن أسوأ ما يمكن أن ينال المرأة المتزوجة أن تُكرى لطحن الذرة لبيت آخر، كما يتبين من قول أيّوب. «إن كان قلبي قد هام بامرأة أو كنتُ على باب قريبي، فلتطحن امرأتي لآخر وليقع عليها آخرون». [سفر أيّوب، 31: 9، 10].

الأنباط

إن مرجعنا في معرفة عادات الأنباط وتقاليدهم هو سترابو، سوى أن هيرودوتوس وپلينيوس يعرضان حال العرب. فهيرودوتوس يعرض لنا في روايته أسلوب العرب في تأمين إمدادات المياه لتفي بحاجات جماعة من الناس يبعدون مسافات طويلة، مما يُظهر أن نظام الماء الفذ في البتراء النبطيّة قد أخذوه عن أسلافهم المنتقلين في الصّحراء. فيذكر هيرودوتوس أن المشكلة الأولى التي واجهت قمبيز حين أراد غزو مصر في النصف الأخير من القرن السّادس قبل الميلاد تمثلت في اجتياز الصّحراء الخالية من الماء بجيشه الكبير. وهذا ما جعله ينشد التحالف وملك العرب الذي مدّ له يد العون ممّا يسر لقمبيز غزو مصر والتغلب عليها. وفي هذا يقول هيرودوتوس إن ملك العرب «ابتكر طريقة بأن ملأ قرباً كبيرة من جلود الجمال بالماء حملها فوق ظهور جماله لإيصالها إلى الصّحراء بانتظار قوات الفرس. وهذه الرّواية، وفق أي معيار، هي الأقرب إلى العقل بين جميع الرّوايات.

وهناك رواية أخرى يجب ذكرها، وهي شائعة، وإن كان يصعب تصديقها، وتقول إنه كان لدى ملك العرب جلود بقر وأنواع أخرى مخاط بعضها ببعض على شكل أنبوب طويل جداً يوصل المياه من نهر كوريس - نهر كبير في شبه الجزيرة العربية

يصب في البحر الأحمر – إلى الصّحراء «حيث أُنشئ هناك عدد من الخزانات تملأ بالماء بوساطة هذا الأنبوب وأنه تم جلب المياه إلى ثلاث مناطق مختلفة، والرّحلة ما بين النهر والصّحراء تبلغ بمجموعها مسيرة اثني عشر يوماً»[1]. ويحكم الأنباط ملك «ينتمي إلى سلالة ملكية»، وليس ثمّة ما ينص على تولي أكبر أبناء الملك الرّاحل، بالضرورة. ومن المحتمل جداً أن يتم الأمر بالانتخاب بين أفراد الأسرة المالكة، ومن يقع عليه الاختيار يكون هو الأفضل لهذا المقام السّامي والمرجّح أن يكون الأفضل للحكم.

وقد لفت انتباه إثنودوروس صديق سترابو الذي حصل منه على الكثير من المعلومات الموثوقة؛ أن الأجانب المقيمين في البتراء كانوا قوماً ينزعون إلى المخاصمات، ويلجؤون إلى المحاكم بلا انقطاع للتقاضي فيما بينهم؛ بينما كان الأنباط «يعيشون إلى جانب بعضهم بعضاً في سلام ووئام تامين». والانطباع العام أن المرء يفيد من مختلف الرّوايات أنهم على وجه العموم قوم مسالمون منشغلون بتجارتهم الرّابحة كل الرّبح وقلما يلجؤون إلى الحرب إلا إذا دعت الضرورة ولا محيد عنها من أجل صالحهم.

ومن المؤكد أنهم كانوا يعلون من شأن المال والثروة، كما يظهر من تشريعاتهم لأنه كانت تفرض غرامة بحق «كل من جعل ماله يقلّ ويكرمون كل من جعله يزداد». والواقع أنهم كانوا يوافقون المصريين القدماء الذين زرعوا في عقول أطفالهم الحكمة القائلة: «الثروات والمكرمات ترسلها السّماء، فعليكم أن توقروا من كان يحملها». وكان الرّق معمولاً به، كما هو الحال في أرجاء الشرق كله في العصور القديمة؛ ولكنه كان قليلاً ولم يبلغ الحدّ الذي كان شائعاً لدى اليهود، لأن أفراد الأسرة كانوا يقومون بالأعمال المنزلية بأنفسهم. ويستخدمون الرّقيق على الأرجح في الأعمال التي يجدون مشقة في القيام بها مثل حمل البضائع من وإلى المستودعات. أما أعمال

---

(1) انظر: تاريخ هيرودوتوس، ترجمة عبد الإله الملاّح، ط 2، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث - المجمع الثقافي، أبوظبي، 2007، ص 220.

التحميل والتفريغ فتقع على خدم القافلة. ويُستخدم الرّقيق كذلك في أعمال الصّرف الصّحي، فربما كانت تقع على عاتق هؤلاء كل أعمال نظام الأقنية وتخزين المياه. وإلا لما كان ثمّة مجال في مدينة شديدة الازدحام بالسكان للحقول والحدائق الواسعة حيث يتطلب الأمر كثيراً من العمل الشاق.

وكان سترابو قد حفظ لنا بعض تفاصيل آداب المائدة عند الأنباط. فيذكر أنهم يعدّون مآدب عامة. في فئات تضم كل منها ثلاثة عشر شخصاً. وثمّة موسيقيان يعزفان في كل مأدبة. ولا بدّ أن سترابو كان يصف مناسبة احتفالية، إلا أن تشديده على العدد ثلاثة عشر ملفت ويشير إلى طقس ما ربما فات سترابو أن يحيط به. ويمضي فيقول إن «الملك» يقيم ولائم كثيرة في قصره. وإنه لا يمكن لأحد من المدعوين أن يزيد شرابه على إحدى عشرة كأساً، ويستعمل كل مرة كأساً ذهبية جديدة». ومرة أخرى يتكرّر عدد مستغرب ويبدو أنه يوحي بطقس ديني. أما الكؤوس الذهبية فقد تكون قد استخدمت في القصر في مأدبة عادية، أما حين يأتي ذكر هذا في ما يتصل بعدد معين من الكؤوس لكل ضيف فيكون ثمّة إيحاء قوي بطقس من الطقوس. ولكن سترابو لم يكن يعتقد، لسوء الحظ، بأهمية الغوص في تفاصيل الحياة اليومية عند الأنباط إلا اللهم عندما يستخدمون الجمال بدلاً من الجياد وأن قطعان ماشيتهم ضخمة والغنم لديهم أسود؛ وكانوا يستخدمون زيت السّمسم، لا زيت الزّيتون، عادة. ويعرض لنا هيرودوتوس رواية مفصلة عن الماشية ذات الإلية الكبيرة عند العرب.

ويذكر سترابو أن الأنباط كانوا «يتمنطقون بالأحزمة وينتعلون الأخفاف في أرجلهم، وذلك يصدق حتى في حال الملوك، إلا أن اللون الذي يؤثره هؤلاء هو الأرجواني». وهناك بضعة إشارات أخرى تدل على لباس الأنباط، وخاصة أسلوب تزيين الشعر عندهم. فيذكر هيرودوتوس أن العرب «يقولون إن أسلوبهم في حلاقة شعرهم هو محاكاة لأسلوب باخوس؛ بيد أنهم يقومون بتزيينه على نحو خاص بحيث أنهم يحلقونه عند الصّدغين». وعند پلينيوس أن «العرب إما يرتدون غطاء للرأس أو

يتركون شعرهم طليقاً، ويحلقون لحيتهم ما عدا فوق شفاههم، بيد أن قبائل أخرى يطلقون لحاهم».

ولعل هيرودوتوس وپلينيوس كانا يشيران كلاهما إلى أشخاص من سوية دون الأسرة الحاكمة وأهل الحكم، إذ إن قطع النقود تبين الملوك وذقونهم حليقة ويجعلون شعرهم بشكل جدائل متموجة معقوصة على طرفي الوجه. وهذه الجدائل معقوصة وأشبه «بلفافات السّجق» ويصففون شعرهم من الخلف بشكل ضفائر. أما الملكة، كما تشاهد صورتها على النقود فتضع غطاء على رأسها يغطي شعرها، لكنها لا تغطي وجهها؛ كما تضع تاجاً على رأسها. وقطع النقود المعدنية غير ذات قيمة كبرى بالنسبة لتفاصيل الهندام، لأن الأسلوب فيها تقليد للزي الإغريقي إلى حد بعيد؛ إنما يبين أن نساء الأنباط لم يكن محجبات.

وكان يعاون ملك الأنباط وزير يطلق عليه لقب «الأخ»، ولعله كان أساساً شقيق الملك فعلاً. ولكن يبدو انه لم يكن للوزير في عهد عُبادة الثاني قرابة بالملك، إلا أنه كان عملياً مغتصباً للسلطة الملكية، شأنه في ذلك شأن وزراء آخرين كثيرين، في بلدان أخرى. والشاهد يدلل على أن الملك كان، في الأزمنة الأولى، يزيد قليلاً عن شيخ العشيرة، ولذلك كانت حياته تتسم بالبساطة وتصرفاته بالديمقراطية، فهو لم يكن يقتصر على خدمة نفسه على المائدة وحسب وإنما كان يقوم بخدمة ضيوفه أيضاً. وهذا يتفق تماماً والأعراف العصرية. كما كان أبعد ما يكون عن الحاكم المتعسّف، إذ عليه أن يقدّم كشفاً بالنفقات العامة، ولرعاياه الحق في طلب التحقيق في حياته الشخصية، إن وجدوا في ذلك ضرورة. والواقع أنه لا يخالف وضع شيوخ العشائر في عصرنا الذين لا يضطرب أحد لمرآهم، ويتوقف سلطانهم، إلى حد بعيد، على قدرتهم في التعامل مع الأغراب وحماية العشيرة من الآخرين، والشيخ أغنى رجال القبيلة وربما أكثرهم ذكاء وحصافة.

ويذكر سترابو أن بيوت الأنباط «مذهلة» ومبنية من الحجر، إنما ليس هناك من وسيلة للتحقق من هذا القول، طالما أنه لم يبق منها شيء يدل عليها. كذلك ليس

هنـاك من سـبيل للتحقق ممـا وصفه أثنودوروس الذي أخذ عنه سـترابو مـا أورده، إن كان حقاً ما قال. كذلك ليس معروفاً كيف كانت البيوت تُفرش وتُجمَّل. ولعل السّجاد كان أهم ما احتوته البيوت، كما هو عليه الحال عند الشـرقيين إلى اليوم؛ ولا شـك بأن الأنبـاط كانوا يسـتخدمون الأرائك والسّـتائر ولما كان الحال كذلـك، فلا بدّ أن بعض المواد الغنية التي تداولتها أيدي التجار قد وجدت مستقراً لها في تلك البيوت الفخمة. وأمثـال هـذه المواد القابلة للفسـاد ما كانت لتصمد فـي مناخ البتراء غزيـر الأمطار لو تُركت يوم انتقل السّكان، وضاع كل أثر لها.

أما وضع النسـاء النبطيات فيمكن اسـتخلاصه من النقوش القليلة التي تم اكتشافها فـي البتراء وسـواها من الأنحـاء الأخرى من المملكـة النبطيّة. وفي كثيـر من النقوش علـى الأضرحة يمنح صاحـب الضريح ابنته وأولاد ابنته حق الدّفـن فيه؛ كما قد يمنح صهره، زوجها، هذا الحق، أحياناً، وليس دائماً. وهناك العديد من الأضرحة كان ملكاً لنساء وعندئذ ينتقل حق الدّفن إلى أبنائها وبناتها وأولاد هؤلاء من بعدهم. أما تكاليف العناية بالأضرحة فيبدو أنها كانت تسدّد من أملاك المرأة الخاصة.

ويمكن اسـتنتاج وضع النسـاء في المجتمع إلى حد بعيد من مقدرتهن على التمتع بالملكيـة؛ فيبدو أنه كان للنسـاء بين الأنبـاط، إذاً، مكانة عالية فـي المجتمع. فلم يكن هنـاك، بعـد، ما يحـول دون زواجهن من رجال من جنسـيات غير جنسـيتهن، والدّليل زواج ابنـة ملك البتراء بهيـرود أنتيپاس؛ كذلك يلاحظ أن طلاقه لهذه الأميرة قد جلب له الكثير من النقمة في صفوف قومها، إذ لم يكن بوسع هيرود، شأنه في هذا شأن أبيه، أن يتخذ زوجة أخرى في حياتهـا، دون طلاق. وهذا يعنـي أن الأنباط يقتصرون على زوجة واحدة. وهناك قدر لا بأس به من الشـواهد يفيد بأن الأنباط كانوا مثل المصريين فـي زواج الأخ بأختـه[1]، على الأقل في نطـاق العائلة المالكة. وليـس معروفاً إن كان

(1) يذكر د. إحسان عباس في كتابه تاريخ دولة الأنباط (ص 62) أن ملكة الأنباط تدعى أخت الملك زوجها، ولعل ذلك عرف جرى على نسق تلقيب الوزير بأخي الملك، ولم يكن يعني صلة قربى ولا هو من قبيل ما كان لدى المصريين من زواج الملك بأخته. (هـ. م)

هذا تقليداً يجري في الأسـر الأقل شـأناً ومما يدعو للأسف، أن الشواهد التي أظهرتها التنقيبـات الأثرية على الحضـارة المادية متناثرة ولا يمكن تعليـل هذا إلا بأنه تم هجر هذا المكان تدريجياً، وأن السّـكان حملوا معهم فـي هجرتهم ممتلكاتهم الثمينة. وقد تكـون القبـور غنية بما وضع فيها، ولكن هذه القبور تعرضـت للنهب على مرّ القرون، ولم يتبق شيء ممّا كان فيها. وقد يصادَف أحياناً ضريح صخري، أو ضريح تم البحث فيـه على عجل، ولكن حتى في هـذه الأحوال لن يكون ثمّة إلا القليل من الزّخارف أو الأدوات التي تستخدم في الحياة اليومية.

إن التأثيـر اليونانـي أو الرّومانـي ظاهر فـي الأدوات القليلة التي وجدت سـواء في القبور أو أماكن السّـكن والعيش. وتبين الأجـران المصنوعة من الحجر أو الصّوان أو الطواحين الحجرية أن المطابخ كانت تقتدي بالمطابخ الرّومانية. وكانت أواني الطبخ مـن الفخار وتختلف أحجامها كما هو الحال في معظم المطابخ. وكانت مواقد الطبخ تتخذ موضعها عموماً في زاوية كهف للسكن؛ ووقود النار إما أغصان شجيرات تجفف بتعريضها للحرارة واستخدام المراوح أو روث الجمال الجاف، إذا كان المطلوب ناراً بطيئـة. ولمـا كانت الأخشـاب أو النبات الصّالـح للنار غير متوفر بكميـات كافية ليفي بحاجات هذا العدد الكبير من السّـكان كالذي ظلـت البتراء عليه طوال عدة قرون فإن التقديـر يذهـب إلى أن أغصان الشـجيرات وروث الابل كان الوقـود الوحيد المتوفر. فكان يوضع قدر الطعام على النار ولا يعلق فوقها ويبقى الطاهي مستنفراً لمراقبة القدر لئلا يقع منها شيء يؤدي إلى إطفاء النار تحته.

وليـس معروفاً بدقة مقدار ما كان يسـتخدم في الدّار مـن المعادن، لأن المعدن كان ثمينـاً بما يكفـي لفرض نقله عند الهجرة مـن البتراء أو لقيام لصوص المقابر بسـرقته. والواقع أن الحفريات أظهرت أن البتراء تكاد أن تخلو من المعادن. والقليل الذي وُجد هناك يكاد أن يكون كله من البرونز وهو معدن يفضل الحديد من حيث تحمل الرّطوبة. ولا ريـب بأن البتراء عرفت الحديد، إذ عُثر على بقايا حديد مسـتعمل في الوادي ذاته؛ وكانـت عبـادة الإلـه حـدد شـائعـة فـي شـرق الأردن كله، باعتبـاره إلـه العاملين في

الحدادة؛ وما زالت كلمة حدّاد تستخدم في العربية الدّارجة، وهي مستمدة من الجذر ذاته.

وكان الزّجاج يصنع على ما يبدو في جوار البتراء، وأشكال الأواني متأثرة في الغالب بالأشكال الرّومانية. لكن الزّجاج ليس شائعاً جداً، على كل حال، ولعله كان يصنع للتصدير وليس للاستخدام المنزلي على وجه العموم. أما اللقى الأساسية في البتراء فهي من الفخار. والوادي مليء كله بقطع الفخاريات المتناثرة هنا وهناك في المنطقة؛ فيكاد يستحيل على المرء السّير في أي من التلال الصّغيرة هناك دون أن يطأ ويحطم بعض القطع الصّغيرة. ولئن كان ثمّة قدر معين من الأدوات السّليمة التي لا تتسم بحسن الصّنعة، فالواضح عندئذ أنها تختص بالمطبخ والاستعمال المنزلي، وأضخم كمية توفرت هي من الفخاريات فائقة الصّنعة. وهذه الفخاريات غالباً ما تكون رقيقة كالپورسلين الحديث، إلا أنها لا تكون مصقولة أبداً فهي بالغة الهشاشة والقابلية للكسر، فلا عجب إن كان الكثير منها مكسوراً.

كذلك فبالرغم من أن الكثير من الأدوات بسيط فإن أكثر القطع مزيّن بتصميمات مختلفة. أما الصّباغ فمعالج بالمنغنيز الذي يضفي ظلالاً ودرجات متنوعة من اللون القرمزي المائل إلى الحُمرة والبني المائل إلى الحُمرة ويتفاوت بين الأحمر والبني. والحق أنه لم يُكتشف وعاء كامل من الأدوات المصبوغة بالمعنى العلمي، وإن كان هناك وعاء أو وعاءان تم شراؤهما من أهالي البتراء في البلدة ذاتها. والأدوات في جلّها طاسات وأقداح صغيرة، وإن كان يصادف هنا وهناك عنق أصيص أو قارورة، إنما هذه من الأمور النادرة. أما الأوعية فتستخدم في تقديم الطعام، ولما كانت ذات أحجام مختلفة فإن المرء يستطيع أن يستنتج أنها إما لتقديم الطعام لجماعة من الناس أو ليستخدمها شخص واحد، وذلك حسب حجم الآنية. وفي العدد الكبير من الكؤوس الصّغيرة ما يشير إلى أن الأنباط يشربون شراباً قوياً. فإذا كانت هذه الكؤوس متساوية في أحجامها، وتستخدم كما يشير سترابو في تناول الأنبذة في المآدب التي يقيمها الملك، وتناول أحد عشر كأساً من شراب قوي كاف على الأرجح للضيوف.

ولكن هذه الكؤوس ليست فخاراً مطلياً بالألوان، ولذلك وبسبب من حجمها الصّغير سلمت من الأذى وحُفظت.

وإذا التفتنا إلى الجوانب الأضخم في حياة الأنباط، بدا أنه كان للماء أهمية بالغة. أما إن كان هذا يجري تحت سلطان الرّومان أو قبل أن يتصل الأنباط بالرّومان قبل زمن فأمر لا يمكن التيقّن منه، وإن كان يعني إدارة العرب القدماء مقداراً ضخماً من الماء أن الأنباط يتمتعون بالمقدرة التامة على التصرّف به. وجدير بالذكر أن ينابيع وادي البتراء لم تكن كبيرة كفاية لتزويد مجموعة كبيرة من البشر بحاجتهم من الماء؛ فالمياه ليست غزيرة، حتى الآن في الفصل الحار، وإن كانت الينابيع لا تشكو الشحّ. فالينابيع في عين موسى وافرة تتدفق منها المياه بلا انقطاع خارج الصّخور التي تحيط بالبتراء، لذلك اعتمد الأنباط في نظام توزيع المياه على القنوات والصّهاريج في حدود الوادي وعمدوا إلى تخزينه هناك في موسم الجفاف.

كذلك احتاط الأنباط بأن قاموا بحماية الوادي من الطوفان الذي يجتاح السِّيق بعد أمطار غزيرة حاملاً أمامه كل شيء. ولذلك عمد الأنباط إلى شق نفق عند مدخل السِّيق يحمل فائض المياه إلى صهاريج. إن الطاقة الهندسية التي تتجلى في تصميم المنظومة المائية غير متوقعة في مكان قصي كالبتراء، وليس هناك لسوء الحظ ما يثبت إن كان هذا العمل مخططاً وقامت على تنفيذه عبقرية محلية أم أن أجنبياً اعتنى به. ولكن كائناً من كان ذاك المسؤول عن نظام جرّ المياه وتوزيعها في البتراء فهو قادر على منافسة أفضل المهندسين لدينا في الوقت الحاضر. فهذه العبقرية قد توفر لها طبعاً أفضل من عمل في المقالع في العالم القديم، رجال ألفوا قطع وجه الصّخرة برمّتها ويعدونه جزءاً من عملهم اليومي، وبذلك كان يُعهد بالعمل الفعلي في شق سواقي المياه لرئيس ورشة، لولا أن المهارة الحقيقية كانت في وضع مخططات النظام وإدارة ما هو عصي على التدبير وغير متوقع مثل فيضان المياه أو أحوال الشحّ.

لقد عمد الأنباط باكراً جداً إلى أسلوب جديد من استخدام قطع النقود في الإفادة مادياً على الوجه الأفضل في التجارة، وهو نهج اعتُمد أولاً في الحضارة الهيلينية.

وسـرعان مـا أدركوا، وهـم أهل تجـارة عمليون، غلبة النقد على نهـج المقايضة الأكثر تعقيداً، وسرعان ما أخذ ملوك البتراء بإصدار النقود الخاصة بهم. وكثيراً ما يتمّ العثور على قطع نقدية نبطيّة بين تلال الرّكام في الوادي. وهذه القطع تكون عادة من النحاس ومن قطع النقد الصّغيرة في تلك الفترة. أما القطع الفضية فنادراً ما تُصادف.

وهـذا عندي دليل آخـر على الهجران التدريجـي الذي تعرّضت له البتـراء. فلو أن المنطقة هُجرت فجأة إما بسبب الحرب أو وباء اجتاحها لكان هناك عدد أكبر من قطع النقـود الفضية والنحاسـية خلّفها أولئـك القوم وراءهم فضلاً عن أشـياء ثمينة أخرى. ولكن الفقر الشـديد للبقايا التي تركها مجتمع غني مثل مجتمع الأنباط ينبئ بأن عملية الهجر كانت طوعية ومتأنية.

* * *

الفصل الثامن
محن منقّبة آثار ومشكلاتها

لـم تكن حفرياتنـا الأثرية في البتراء أمراً مدبراً منذ أمـد بعيد. إذ إنني كنت قد زرت تلك البقعة في ديسمبر حينما هدرت بالوادي رياح جليدية وعصفت ودارت، فانكمش السّكان البؤسـاء مرتعدين في كهوفهم وحاولوا تدفئة أنفسـهم بالاقتراب الشديد ممّا أضرموه من نيران صغيرة. وعلى الرّغم من ذلك الطقس البغيض فإن إمكانات الموقع قد أثارت اهتمامي، لا سيما الأسلوب الذي كانت فيه الكهوف تتخلل التلال الصّخرية شـديدة الانحدار وتجعلها مثقبة كالغربـال، وكان بعضها خالياً، وبعضها نصف ممتلئ بالركام، وبعضها مليئاً حتى السّـقف. وهكذا بعدما أقمت في القدس بضعة أسـابيع لم أفعل أثناءها شيئاً سوى القليل من الكتابة، اقترحت على السّير فليندرز پتري Flinders Petrie بأنه ينبغي لي أن أقوم، بمساعدة من السّيدين إيليس Ellis وسوندرز Saunders، بأعمال حفر مكثفة لمدة وجيزة في البتراء.

ولقد دخلت الفكرة حيّز التنفيذ على الفور، وشـرعنا بالعمل بمقتضاها صبيحة يوم رائـق. وأقـول «صبيحة يـوم رائق» بحـذر، لأن المرء في ذلك البلـد لا يمكنه الاعتماد على الطقس بأكثر مما يسـتطيع الرّكون إليه في إنكلترا، وعندما يضع المرء خطة هناك يتحتم عليه دوماً أن يردف قائلاً بورع: «إن شـاء الله». ففي إنكلترا تقول حتماً «سـوف أذهب إلى مكان كذا وكذا» أو «سأفعل كذا وغير ذلك من هذا القبيل في اليوم الفلاني»، وعندما يحين الموعد تتوجه إلى ذلك المكان، وتبلغ وجهتك دون صعوبة أو تفعل ما كنـت تعتـزم القيام به دون عائق أو عرقلة. ولكن الحال ليسـت كذلك في فلسـطين أو

شرقي الأردن. ففي هذين البلدين اللذين ديدن سكانهما ترداد عبارة «إن شاء الله» لك أن تعدّ نفسك محظوظاً إذا ما استطعت حتى أن تبدأ، كما فعلنا، في اليوم المحدّد.

لقد كنا مضطرين إلى أن نحمل سيارتنا بكافة المستلزمات الضرورية لأعمال الحفر، ذلك أنه ما من شيء يمكننا الحصول عليه في البتراء. وهكذا ربطنا وحدات قياس الأطوال خارج السّيارة، فسدّت أحد أبوابها بشكل تام وبرزت متجاوزة الحد الأقصى للغطاء؛ وكانت القفاف المعدة للحمل موضوعة في رزمتين مثبتتين بحبل في المؤخرة؛ وتم ترتيب المعاول وسواها من المتاع في أماكن مختلفة بحيث لا تعترض سبيلنا إلا بأقل قدر ممكن، ومع ذلك فقد كانت ظاهرة جداً؛ وانطلقنا قبيل بزوغ نور الفجر باحثين عن العالم كله مستقلين سيارة أشبه ما تكون بعربة سمكري.

وفي طريقنا إلى عمّان من وادي الأردن أبلغتنا سيارة عابرة بقيام إضراب للسائقين في عمّان، وأن الطريق مسدودة، ويتعيّن علينا أن نرجع أدراجنا. فأجبنا بالقول: «إن شاء الله سوف نجتاز ذلك كله». والمؤكد، أنه بعد نحو ميل خارج عمّان كانت هنالك كتل من الحجارة تم وضعها على فواصل عبر الطريق، ومع تباطئنا دنت منا جماعة مسلحة من البدو العرب. بيد أنهم حينما شاهدوا مظهرنا الغريب مع معدات التنقيب وقد برزت من الأطراف كافة، توقفوا وصاحوا قائلين: «يا سلام! أيّ سيارة هي!» عندئذ ابتسم سائقنا السّاخر بلطف، ودفع السّيارة عبر الحجارة بوساطة ممرّ كان قد لاحظه وزاد السّرعة؛ فكنا بمنأى عن الأنظار قبل أن يخرج المهاجمون من دهشتهم.

في عمّان، كان علينا التوقف في مركز للشرطة لنقدم تقريراً عن وجهتنا. وهذا الإعلام في مراكز الشرطة هو الوقاية الكبيرة لجميع المسافرين عبر الصّحراء المترامية الأطراف. إذ تُرسل برقية تتضمن تفاصيل السّيارة وركابها عبر اللاسلكي إلى مركز الشرطة التالي، وإذا لم تصل السّيارة في غضون فترة زمنية معقولة يتم تسيير دورية للبحث عنها. كذلك هناك نقاط للمراقبة مقامة فوق التلال، بحيث إنه حتى ولو لم تقدّم إحدى السّيارات تقريراً، فإن خط سيرها يمكن تتبّعه عبر الصّحراء، وبالإمكان أن

تبلغ الدّورية أقرب مركز للشـرطة عن تعطل إحدى السّيارات فيُرسل فريق إنقاذ على الفور.

يتصف الرّيف طوال مسيرة ساعتين خارج عمّان بروعته. فهناك القرى الصّغيرة والتّلال المنخفضة والحقول الخضراء والناس والحيوانات والطيور والزّهور. ومن ثم تأتي الصّحراء السّوداء. ويقدّر داوتي امتدادها على رقعة تبلغ 2500 ميلاً مربعاً، ولكن الحكم عليها بمشاعر المرء أثناء عبورها يحتّم علي القول بعبارة أخرى إن طولها يربو على 2500 ميلاً. ويطلق داوتي عليها تسمية «شاطئ حجر الصّوان، الذي يغطي جزءاً كبيراً من جبل عيسو؛ عري حجري جعلته الأحوال الجوية ذا لون أسود».

وهي بلاد قليلة المرتفعات والمنخفضات، ويصل ارتفاع كل منها إلى الارتفاع ذاته للذي خلفه وذاك الذي يليه. وفي كل بقعة على مدى النظر تنتشر الحجارة السّوداء؛ ومعظمها من الحصى، مع أن بعضها كبيرة بما يكفي لأن تطلق عليها تسمية الجلمود. وبعض هذه الحجارة من البازلت الأسود، ولكن غالبيتها العظمى من الحجر الكلسي الدّاكن الذي أكسبته الرّياح الرّياح والمطر والشمس الحارقة سواداً رهيباً. ولا يمكن تصور شيء أكثر إقفاراً ورتابة من هذا السّهل المتموج ذي السّطح الموحش. ففي فصل الشتاء تهب الرّياح وتتساقط الثلوج عبر النجد غير المحمي بقوة رهيبة، ولقد تجمد كثير من المسافرين حتى الموت فوق ذلك النّجد المرتفع. ولو سئلت عن تصوري لمظهر الجحيم لكان جوابي دون تردد: «إنها الصّحراء السّوداء لشرقي الأردن في الشتاء».

فوق هذا النجد الكئيب جمع داوتي أسطورتين. «في قاع النهر الجارف تتمدّد على نحو ظاهر بعض الحدبات الكبيرة للصخور الكلسية الواقعة تحتها، وتلكم هي «الهياكل القديمة للكفّار» وتذهب الخرافة إلى القول إنه في هذا المكان قامت مدينة وثنية موغلة في القدم، إلى أن هبط عليهم صوت من السّماء، فتحوّلوا إلى هذه الحجارة السّوداء. ولقد شاهدت الكثير من الحجاج يترجلون ليتناولوا الحصى ويرموها على كفّار الحجر الملعون.... ويقع شرقي القرية (معان) أرض الكلبي الصّحراوية

وهـي مليئة بحدبات الحجر الكلسـي، حيـث يتصورون بإصرار وجـود نجوع وقرى. ومجموعات الحجارة الأصغر الشبيهة بالجبن الهولندي، وهي التي تلقي بها الملائكة بأيديها من السّماء على جيل شرير».

على الرّغم من رتابة الطريق، يتعيّن على سائق السّيارة أن يكون على أهبة الاستعداد طوال الوقت، ذلك أن كل حفرة صغيرة هي مجرى مائي محتمل حيث من الممكن أن تغرق العجلتان الخلفيتان لإحدى المركبات في الوحل فجأة بينما العجلتان الأماميتان تتشبثان بالأرض الصّلبة، ممّا قد يؤدّي إلى وقوع كارثة. أما ركاب السّيارة فالأمر لديهم مختلف. ذلك أن الطريق أشـدّ خشونة ووعورة من أن يسـمح لهم بالمطالعة، والرّتابة القاتلة للمناظر الطبيعية، والتموجات الصّغيرة المطردة للطريق بين الصّعود والهبوط، والوحدة من دون أي كائن حي يكسـر جـدار الصّمت، والجمع بين هذه العوامل كلها له تأثير العقار المنوّم شديد القوة. لقد شعرنا جميعاً بذلك، واستسلمنا للنوم.

وفي غضون ذلك، مع هذا الإبداع الشـيطاني الذي كثيراً ما تكشـف عنه الجمادات التـي تجعل المرء يعتقد أنها ليسـت جامدة جداً كما يحلو لهـا أن تبدو، اغتنمت رزمتا القفاف فرصة استغراقنا بالنوم ففكتا الحبل الذي يربطهما وانسلّتا بعيداً. ولقد استيقظنا فـي مركز الشـرطة التالي لنكتشـف ما فقدناه. إنها كارثة مهولة. ففـي بلد لا تُعرف فيها عجلة اليد يجب أن تنقل التربة المسـتخرجة بالحفـر إلى أكوام الرّكام بالقفاف؛ إذ إنها ضـرورة حيويـة. ولا يمكــن التزوّد بأيّة قفّة مـن أي مكان أقرب من عمّـان، وربما كان يتعين علينا أن نرسـل فـي طلب قفاف جديدة من القدس. وبالطبع فقد كانت الشـرطة متعاطفـة ومنيـدة، وقمنـا بوضـع ترتيبات محكمـة بأن يصـار إلى إرسـال القفاف، إن وُجدت، ومكافأة من يعثر عليها.

تناولنـا غداءنـا بصمت محزن؛ ولكن فجأة تملكتنا مشـاعر طيبة وقويـة بعد تناولنا الطعـام، وقرّرنا أن نرجع أدراجنا لمدة خمس دقائق «على أمل أن نجدها بالمصادفة». وكان فـي يـد كل منـا سـاعة، وراحت بهجـة أصواتنا تخبو مـع قولنـا: «انقضت دقيقة واحـدة»، و«دقيقتان»، و«ثـلاث دقائق». وعندما بلغنا «أربعة دقائق» اسـتبدّ بنا اليأس،

ولكـن فـي الدّقيقة الرّابعة والنصف قـال أحدهم: «ما هذا؟».. وهنـاك على مرتفع من الطريق شـاهدنا كتلة بشكل رزمة. أقلعت السّيارة باتجاهها، وفي المرتفع التالي كانت توجـد الرّزمة الأخـرى. هناك كانتا قابعتين في منتصف تلـك الأرض اليباب الحجرية السّـوداء تنظران إلينا شـزراً وبرضا ذاتي، هو ضرب من القهقهة ملؤها الرّضا، جعلتني أشـعر أنهمـا كانتا قد فعلتا ذلـك عن قصد لإغضابنـا. ولقد قمنا بالتقاطهمـا وثبتناهما بالحبـل فـي مكانهما من جديد بإحكام مبـرّر لتحدّي أيّة محاولات مـن جانبهما لفك الحبل الذي يربطهما.

* * *

حينمـا يبـدأ النجد بالانحدار بلطف باتجـاه الجنوب يعلم المسـافر أنه أخذ يقترب من معان. وتطوّق البلدة الصّغيرة هذه البسـاتين وأشـجار النخيل، وإنه لمدعاة للحبور أن نلمحهـا بعـد الصّحراء التي تبعث على الكآبة. ولكن سـكانها يميلون إلى التعصب ومن السّهل عليهم إلقاء الحجارة على الكفّار، ولذلك فقد قدّمنا تقريراً لمركز الشرطة وحسـب، وحثثنا الخطى نحو الجي. وهذه البلدة هي السّوق التجارية للبتراء، ويعدّها البدول مركزاً تجارياً ضخماً. وقد قال محمّد الصّغير لنا: «في الجي يمكنكم الحصول على كل شـيء من أقمشـة وخبز ولحم وحتى السّكر، ففي متاجر الجي تتوافر الأموال بقدر ما في البحر من أسماك».

يتعيّـن علـى المرء في الجـي أن يتخلى عن سـيارته، وبوسـاطة الشـرطة يتم اتخاذ الترتيبات للاسـتعانة بما يسـمّى بالجياد لما تبقى من الرّحلة إلى البتراء. بيد أننا أودعنا أيضاً في عهدة الشـرطة كل الأموال لجميع الأجور لكافة الأسـابيع التي ننوي مكوثها فـي المنطقة، ذلك أن الشـمس كانت موشـكة على المغيب، ولم نكـن حريصين على حمـل الكثيـر من النقود فـي الظلام. ومن ثم امتطينـا جيادنا التي يرثى لحالها وشـققنا طريقنا عبر السِّـيق المعتم أبداً إلى البتراء. إن كل السّـائحين الذين يبلغون البتراء مساء يصلونهـا منهكين جداً لدرجة أنهم يشـعرون بعـدم القدرة على التقـدّم خطوة أخرى. ولكن تناول العشاء، وقضاء ليلة من الرّاحة، واستنشاق هواء الجبال المنعش من شأنها

أن تبعث روح الحياة فيهم بشدّة بحيث يكونون في صبيحة اليوم التالي مهيئين للقيام بأي شيء.

ولقد أمضينا الأيام القليلة الأولى، التي كانت باردة وماطرة على نحو رهيب، في استكشاف الموقع وتحديد مكان الحفر. وما إن استقرّ رأينا على ذلك حتى وجدنا أنفسنا في مواجهة كل أنواع القيود المفروضة على العمل التي لم نكن نتوقعها مطلقاً، ولم يكن أحد قد حذّرنا منها. وأعتقد أن البتراء تنفرد بها.

إن شرقي الأردن برمّته تحت حكم الأمير عبد الله مع بريطانيا العظمى بوصفها القوة المنتدبة عليه. وهناك ثلاثة من الإنكليز وهم الكولونيل (العقيد) كوكس Cox، والكولونيل بيك Peake والميجر (الرائد) غلوب Glubb، الذين، بدعم وطيد من الأمير، يحكمون شرقي الأردن وسكانه غير الخاضعين للقانون، بطبيعة الحال، بيد قوية. ولقد جاء هذا الثالوث بالقانون والنظام إلى واحدة من أكثر البلدان تمرّداً على وجه المعمورة، وجعل السّفر فيها آمناً كما هي الحال في كثير من البقاع الأكثر تمدّناً. ولكن هذا لا بدّ أن يتم لقاء ثمن، وكان علينا دفع جزء من هذا الثمن. لقد سمع المرء منذ الطفولة عن عين الله تعالى التي ترى كل شيء؛ أما في شرقي الأردن فإن مكانها تأخذه العيون التي ترى كل شيء والعائدة لذلك الثالوث. والعيون تلك هي، بالمعنى المادي، الشرطة والجيش العربي. وباعتبارنا أرباب العمل فقد تمكنا من أن نرى هذا النظام وهو يعمل؛ فكنت ممن تأثروا بشدة بكفايته. وإن كانت هذه الأنظمة تبدو للوهلة الأولى تعسفية، وربما سخيفة، ولكن حينما ندرك ظروف البلاد وشعبها، عندئذ، ينظر إليها على أنها عادلة وضرورية على حد سواء.

تلكم هي الأنظمة. وكانت الشرطة تمتلك الحق في اختيار العاملين لدينا، فيما لم يكن لدينا رأي في هذه المسألة. ومقابل كل عامل من البدول قمنا بتوظيفه كنا مضطرين لأن نوظف أحد الجيين. ولم يسمح لنا بتوظيف أي من البدول ما يزيد على أسبوع أو الجيين لأكثر من أسبوعين. وكان يتم تحديد الأجور بالتشاور مع الشرطة. والسّلطة الوحيدة التي كانت لنا، أي أرباب العمل، على العاملين لدينا هي حق فصلهم.

وسرعان ما وجدنا أن الأسباب وراء هذه الأنظمة كانت مشروعة تماماً. وكان لا بدّ من تأكيد سلطة الشرطة؛ وما لم يتمّ ذلك، فإن أولئك الذين هم في مراكز معزولة مثل البتراء والجي سوف يلقون حتفهم حتماً. وقبل بضع سنوات حينما أقامت الشرطة أول مركز لها في الجي، في غضون أسبوع واحد انتفضت القرية وقتلت الكثيرين منهم. أما الآن فيدرك الناس أن الشرطة تمتلك سلطة وضع الأجور في الجيوب الفارغة، وبالتالي الطعام في بطون الجياع منهم. كذلك هنالك قدر كبير من الغيرة بين أهالي الجي والبتراء، بحيث إننا لو وظّفنا عدداً من البدول أكبر من الجيين، فإن الجيين سوف يتربصون بالعاملين من البدول ويقتلونهم، على أساس أن البدول كانوا ينتزعون الرّزق من أفواه الجيين. وبما أن الجي هي القرية الأكثر عنفاً وشراسة في شرقي الأردن فإن السّلطات لم تكن لتجازف، وهي محقة في ذلك. وبعد، لما كان البدول جميعاً يعانون من الفقر المدقع، وعددهم محدود، فقد كان لا بدّ من أن توزّع مبالغ الأجور التي سوف يحصلون عليها إلى أقصى حد ممكن بين مختلف الأسر؛ ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كانت لدينا مجموعة جديدة من العاملين في كل أسبوع. كما أشير علينا، ولكن ذلك لم يكن قانوناً، بأن نباعد بين البدول والجيين، وإلا فإننا سوف نواجه معارك مجانية واحتمال وقوع خسائر في الأرواح.

ولما تمّ اتخاذ الخطوات التمهيدية كافة واستخدام العمال، بدأنا العمل في اثنين من الكهوف؛ فعمل الجيّون في الكهف الشمالي، والبدول في الكهف الجنوبي. وبيّنا لكل منهم ما سوف يتقاضاه من أجر يومياً، وبأن تلك الأجور هي ذاتها التي يتقاضاها العمال المدرّبون في فلسطين، وإن كان هؤلاء الرّجال غير مدرّبين تماماً. والتحق بي شقيقان صغيران من البدول، هما محمود ومطرود، وتم القبول بهما على أنهما زائدين عن العدد المقرر من العمّال، وبالتالي لم يكونا خاضعين للأنظمة العادية.

ولما كان البدول قوماً تعوزهم التغذية وجهلة، فقد كانوا سذجاً ومطيعين، يقومون بما يُطلب إليهم دون أقل فهم لما كانوا يفعلونه أو لماذا. أما الجيين، لمّا كانت تغذيتهم جيدة وإن كانوا على القدر ذاته من الجهل، فإنهم كانوا مغرورين ويعتقدون بأنهم

يعلمون ما كان مطلوباً على نحو أفضل مما كنا نعلم.

كان هناك ثلاثة من الشبان الجيين، فتيان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر، وكانوا صورة طبق الأصل للقراصنة؛ بل ومن شأنهم، أنا واثقة، أن يذبحونا من الوريد إلى الوريد دون أن يرفّ لهم جفن. وقعت الأزمة في اليوم الرّابع للعمل، عندما تفاجأ أحدهم وقد وجده نفسه مصروفاً من العمل. فطالبني بأن أعيده إلى عمله. فرفضت. وإثر ذلك جلب أحد أفراد الشرطة ممّن يتحدثون الإنكليزية، ذلك أن إجادتي للعربية لم تكن كافية لإجراء محادثة متواصلة لمدة طويلة من الزّمن.

الشرطي: «لماذا صرفت هذا الرّجل من الخدمة؟».

م. م.: «لديّ الحق في صرف أي من العاملين إذا لم يحسنوا التصرّف».

الشرطي: «بالتأكيد، بالتأكيد. ولكن ماذا فعل؟ لماذا قمت بصرفه من الخدمة؟».

م. م.: «لأنه ينفق الوقت بالكسل، ويعصي الأوامر، ووقح».

تبادل الشرطي والقرصان نظرات الغضب، بينما ثابرت أنا على تعبير من الغيظ قدر المستطاع.

الشرطي. (متملقاً): «هل لك أن تعيديه؟».

م. م. (بشدّة): «لو لم يبق أي رجل سواه في الجي والبتراء فإنني لن أعيده».

الشرطي (محاولاً تليين قلبي): «ولكن والده فقير للغاية».

م. م. (رافضه أن ألين): «لا يسعني أن أقوم بدلك».

الشرطي (لاعباً ورقته الرّابحة): «ولكن ليس لدى والده سوى اثنين من الأبناء وعشر بنات».

م. م.: «وإن كان لديه مئة من البنات فإنني لن أعيد هذا الرّجل».

ولما رأيتُ أن هذا القرصان قد أجهش بالبكاء تركت لتعبيري أن يلين، وأخيراً

وصلت والشـرطي إلى حلّ وسط. لم أعد الشاب بأي ثمن، بل وظّفت شقيقه الأصغر لأسـبوعين. وهكـذا لـم تفقـد العائلة مبلـغ الأجر ولـم تكـن البنات العشـر مضطرات للتضـوّر جوعاً. واتفق أن الشـقيق الأصغـر كان أفضل بكثير من العامليـن اللذين كانا لدينا وبالتالي فقد كسبنا بالمقايضة. وكان لهذه الحادثة تأثير رائع على جمهور الجيين، وخاصة القرصانين المتبقيين، اللذين لم يكونا شابين سيئين في الصّميم. ولم يعد لدينا المزيد من المشكلات مع الجيين.

ولكـن إذا ما أُجبر الجيّـون على الخضوع فإن تلك لم تكن هـي الحال مع البدول. إذ كان اليـوم الأول عبـارة عن محنة. فقد كان الجيّون - الذين سـبق لهم أن دخلوا في مشـادة معنا فنزلت بهم الهزيمة على نحو بارز - مثل الحملان وتناولوا أجورهم دون ضجّـة. ولـم تكن تلك هـي حال البدول. فقد كانـوا مصممين على «اختبارنا» شـأنهم في ذلك شـأن الأطفال المشاكسـين، وفي هذه المرّة وقعت الشـدّة بأكملها على السّيد إيليس Ellis، الذي كان يضطلع بدور صراف الرّواتب والأجور.

كما جرت عليه العادة كان لدينا يوم راحة أسـبوعية، بالتزامن مع يوم عمل السّـوق المحليـة، بحيث يكـون بمقدور الرّجال الذين يتقاضون أجورهم في الليلة السّـابقة أو فـي وقت مبكر جـداً من صبيحة اليوم ذاته الذهاب إلى الأسـواق وابتياع مشـترياتهم. ولكن البدول لم يكونوا متوجهين إلى السّـوق، ليس هم. فقد أبقونا على مرأى منهم، ولا سـيما السّـيد إيليس. وأخذوا ينوحـون ويندبون، وخلعوا أحذيتهـم وقذفوا بها في الهواء بسخط واحتجاج انفعالي مفرط. وعبثاً حاول أفراد الشرطة - الذين كانوا بمثابة العرّابة الجنّية الصّبورة - أن يبينوا لهم أنهم تقاضوا المبلغ الذي كانوا قد تعاقدوا عليه. ولكـن ذلـك كان عديم القيمة بالنسـبة للبدول، فقد كانوا يسـعون إلـى الحصول على المزيد منا إذا ما استطاعوا.

وهكـذا طـوال ما تبقى من ذلك اليوم راحوا يتسـكّعون في الطرق التي كنا نسـلكها ويحيطون بنا، وهم يتضرّعون إلى السّماء مناشدين المارة جميعاً أن يشهدوا على مقدار الأجـر الزّهيـد الذي أعطيناهـم إياه. ولقد تأثـرت لرؤية الوجهين الصّغيرين البائسـين

لمحمود ومطرود فيما هما يمدّان يديهما ومعهما ما تقاضياه من قروش. واستمرّت المضايقات يوماً بأكمله، بيد أنها كانت موجهة على نحو خاص وبضرب من الإبداع الشيطاني إلى السّيد إيليس. وكان يجري تمثيل المسألة برمّتها على نحو جيد إلى أن بدأنا نشعر بالقلق بعض الشيء إزاء التزوّد بعمال جدد في اليوم التالي.

في تلك الليلة عندما أويتُ إلى فراشي سمعتُ ضجة كبيرة في مركز الشرطة، الذي كان يقع في كهف كبير في الجُرف الذي يعلو خيمتي تماماً. وكانت هناك صيحات وصرخات وأصوات ترتفع باحتجاج شديد وتوبيخ عنيف، وبين الحين والآخر عبر خليط مشوش من الأصوت كانت تأتي نبرات الصّوت الملطفة والهادئة لرقيب الشرطة وعناصره. ولو أنه كان أحد مراكز الشرطة الإنكليزية لذهبت للاعتقاد بأن الضجّة كانت قد نشأت عن رجال مخمورين تم سوقهم إليه؛ ولكن السّياح وحدهم يثملون في البتراء وكنت أعلم أن الأمر ليس كذلك. وكدت أتصور بأن ثمّة قتالاً عنيفاً دائراً، بيد أنه مع عدم سماعي لطلقات نارية ولا تأوهات، وإذ لم أجد ما يمكنني القيام به لإيقاف قتل محتمل خلدت إلى النوم، وملئي الثقة في قدرة شرطة شرقي الأردن على التعامل مع أيّ أمر طارئ.

في صباح اليوم التالي كان فريق العمال الجديد من البدول عند موقع التنقيب قبل طلوع الشمس. وانتهزت أول فرصة لاستطلع خبر تلك الجلبة التي سمعتها في الليلة السّابقة. فكان ردّ محدثي: «آه، لاشيء، فهذا حال البدول».

»أتدرين أنك تدفعين أجوراً سخيّة مما يجعل الجميع يرغبون بالعمل لديك. وفي الليله الماضية ذهبوا الى مخفر الشرطة، إذ كانوا يتشاحون ويتضاربون ويجرحون ويخدشون بعضهم بعضاً، وكل واحد يحاول منع سواه من أن يحظى باختيار الشرطة». وإذاً فواضح أن الادّعاءات والشكاوى التي كانت تتعالى في الليلة الماضية مجرّد تجربة وحسب. فبعد ذلك لم نعد نعاني من أيّة متاعب. ولكن ما من أحد، لا البدول ولا أهل الجي، كان جديراً بما يتلقاه من أجر. فهؤلاء قوم كسالى وجلّهم يتهرّب من العمل، وهم بذلك النقيض من فلاحي مصر وفلسطين الذين يتسمون بالكدّ والكدح.

لقـد أنفـق محمـود الصّغير معظـم الأجر الـذي تلقاه في أسـبوعه الأول في شـراء السّـجائر، ولكنـه وإن جهـد كل الجهد فـي تقليد الكبـار والتدخين علـى منوالهـم، لا أظن أنه كان يستسيغ مذاق التبغ كما كان يتوقع. ومع ذلك، فهذا التدخين كان انتصاراً علـى صبية البـدول الصّغار، بأن يأتوا بعلبة سـجائر ويدخنوا سـيجارة مثل رجل بالغ. وفي الأسـبوع الثاني ظهر مرتدياً سـترة نورفوك[1] من الصّوف الرّمادي (آه، يالبشـاعة تفصيلهـا!)، الواقـع أنه كان هناك بزّة كاملة؛ لكن السّـترة كانـت لمحمّد لكونه الأكبر، أما مطرود الأصغر فعليه أن يقنع بالسـروال الذي كاد لا يُرى تحت عباءته، بينما سـترة محمّـد بارزة واضحة لكل مـن ينظر ويرى. وكان محمّد شـديد الزّهو بما يرتديه حتى أني شـعرت بضـرورة إبداء ما يفيـد بأنني قد لاحظـت ثيابه، فسـألته إن كانت جديدة. فأجـاب وأوداجـه تنتفخ: «أجل». فسـألته: «أوردت مـن الجي؟ فأجاب بلهجة تشـي بالازدراء: «لا! لا! لا!» ثم فتح عينيه على اتسـاعهما ومضى يتكلم وهو يقسّـم كلماته الى مقاطع ويشدّد على كل مقطع: «إنها – جاءت – من – عَمّ – مان». وكان ذلك حقاً يوماً مشهوداً عند محمّد.

يتصف البرنامج اليومي للمنقّب بأنه رتيب حقاً. والإثارة فيه أمر غير مألوف، واللقى التي تدعو للدهشـة نادرة، وغالباً ما تكون الأيـام حافلة بالحوادث الصّغيرة المزعجة. فكنـا مضطرين لتناول الفطور في الخامسـة والنصف صباحاً، وهي سـاعة باردة خالية من البهجة. ولفراش المرء سـاعتئذ سـحره الخاص. فيبدأ الرّجال عملهم في السّادسة وعلينـا أن نكـون في الموقـع المحـدّد لنضعهم في الأماكن المناسـبة للحفـر. وهناك استـراحة في الثامنة وأخرى في العاشـرة، ومدّة كل منهما عشـرة دقائق أو ربع سـاعة. فـإذا لـم يكن ثمّـة أمر خاص للقيـام به في موقع العمـل أعود إلى المخيـم في الحادية عشرة يرافقني محمّد ومطرود.

وكانـت عودتنـا يومئذ أشـبه بالموكب الملكي، فيقـوم محمّد بتنظيـف الطريق من الحجـارة أمامي ومطـرود يتقدمني، وهو يعـزف على المزمار، وعندمـا نصل المخيم

---

(1) سترة فضفاضة ذات صف واحد من الأزرار.

يحمل الصّبيان سلة الغذاء إلى السّيد سوندرز، والسّيد إيليس، بينما أمكث أنا في المخيم لأرسم صور ما كنا قد عثرنا عليه بالأمس من اللقى. ويستمرّ العمل حتى الظهيرة، ثم هناك استراحة حتى السّاعة الثانية، وبعدئذ استراحة أخرى قصيرة في العصر، وينتهي عملنا في الخامسة مساء.

إنني شخصياً أجد الحفر مملاً. بيد أننا كنا نعثر بين الحين والآخر هنا وهناك على لقى جديدة، ولكن العادة جرت على أن تتشابه اللقى تشابهاً مملاً أحياناً. أما إذا كانت اللقية جيدة حقاً، فإن مسؤولية تسجيلها بدقة شديدة لا يعادلها عندئذ إلا صعوبة إخراج القطع من الأرض بمنتهى الحرص خوفاً من أن يصيبها أي سوء. واللحظة المثيرة تحين في اعتقادي حين ينتهي الحفر ويبدأ المرء في ترتيب اللقى واكتشاف صلاتها ببعضها. فتكون عندئذ الاكتشافات الحقيقية. وأما إخراج الأشياء من الأرض وتسجيلها في السّجلات فلا يدع للتفكير إلا القليل من الوقت، إن توفر لذلك وقت أصلاً؛ فلا يدرك المرء أهمية اللقى الحقيقية وما تنطوي عليه، إلا حينما يستعرضها من جديد ويقرأ السّجلات.

وكانت إحدى أفضل اللقى التي عثرنا عليها ما وجدناه في القدس حين كان السّيد إيليس يقوم بتركيب بعض الكسر الأثرية مع بعضها بعضاً وإذا به يكتشف فجأة أن بين يديه آنية فخارية نبطيّة كبيرة تكاد أن تكون تامة. وكان في اكتشاف تلك الآنية وحدها المكافأة عن عملية التنقيب كلها.

وهناك في عملية التنقيب دائماً عدد من الإصابات الصّغيرة، من الجروح والخدوش البسيطة، لذلك كان كل ما نحن الثلاثة يحمل في جيبه أنبوباً من اليود. ولسبب لا ندريه كان العمال وخاصة الجيين يؤثرون اليود الخاص بي، وأحسب أن ذلك يرجع إلى اسمي، إذ وقع في ظنهم أن اسم مُري مجرّد لفظ ملتوٍ لـ «ماري» ولذلك كانوا يدأبون على مناداتي بقولهم «الست مريم». وقد أخبروني ذات يوم أن هذا خير الأسماء لأن مريم، أخت موسى، تحمله وكذلك مريم أم عيسى. وهؤلاء القوم لا يميّزون بين الاثنتين. إذ إن «عيسى بن مريم» عندهم ابن أخت موسى. ويبدو أنهم يضفون على

اسم مريم قداسة عظيمة، ولعل هذا هو السّبب الذي جعلهم يعتبرون اليود عندي أكثر فعالية من مثله عند رفاقي.

فكان كل مصاب يرقب هذا الإجراء برمته بأقصى درجة من العناية والاهتمام؛ حيث يتم إخراج الأنبوب المعدني من سترتي، ثم فتح الأنبوب المعدني؛ ثم إخراج الأنبوب الزّجاجي الدّاخلي وفتحه؛ وأخيراً استخدام اليود، وبعد ذلك يجري تنفيذ العملية كلها بصورة معكوسة، وحين تتم إعادة الأنبوب بأمان إلى جيبي يدخل المريض حالة الاستشفاء، ويأتي بعدئذ دور مصاب آخر. ثم تعاد هذه العملية كلها من جديد. ولم يكن لمريض أن يتقدم والزّجاجة مفتوحة؛ بل لا بدّ من إغلاقها ووضعها بعيداً ثم إخراجها ثانية عند معالجة كل مريض. وكان جلياً كل الجلاء مدى ندرة شعور الرّجال بالألم عند استخدام اليود؛ بل لقد بدا أنهم يستطيبونه، فتجدهم يبتسمون عموماً وهم يتمتمون «كويس، كويس» فيما السّائل يراق على جروحهم. ووفق هذا المبدأ تجدهم يؤثرون تناول مقدار من دواء كريه الطعم على آخر لا طعم له.

وقد صادفت صعوبة شديدة ذات مرة في حمل رجل على تناول منقوع نبات السّنامَكّي؛ وكان من شأن هذا الرّجل أن يتناول جرعة قوية من سلفات المانيزيا بإقبال شديد على أن يتناول هذا المنقوع. وأحسب أنه كان يفضل تناول حتى مسحوق الرّاوَند على السّنامَكّي الذي لا طعم له. وأعتقد أن هذا التفضيل كان يقوم على المبدأ الذي يعتبر نفع الدّواء يتناسب طرداً وسوء مذاقه أو الألم الناجم عنه. وكثيراً ما تكون العيادة (احرصوا على هذه العبارة) الأطرف في حياة المنقّب عن الآثار، شريطة ألا تكون حالات المرض ذات خطر.

والشكوى المعتادة هنا تتصل بسوء الهضم وكثيراً ما تكون وصوفات المرضى للأعراض صوراً طريفةً جداً. والشائع الأعمّ قول المريض: «في بطني حيّة وهي تمسكني هنا»، ثم يشير المريض إلى المكان الذي تتوضّع فيه إصابته. وفي هذا يكون لحبّة من الصّودا والنعناع أو قليل من شراب النعناع فعل السّحر في شلّ الحيّة، وبشيء من أملاح المانيزيا عموماً تنتهي الشكوى. فالبدول كان يغلب عليهم الجهل فلا يعلمون

شيئاً عن الطب، ولكني وجدت الفلاحين في بقاع أخرى من الشرق الأوسط يعلمون اسمَي عقارين، وهما عندهم «اليود» و«الكينا»، ويعتبرونهما علاجاً كل الأمراض.

كانت كميات الشاي التي يتناولها العمال البدول مذهلة. وكنا ندفع لامرأة أحدهم لتجلب لنا قدراً معيناً من الماء كل يوم للجماعتين من العاملين في الحفريات. وكان هذا الماء يقدم في علبة تنك البارافين الجاهزة والنافعة أبداً التي حلّت محل جرار الصّلصال في أرجاء فلسطين وشرق الأردن بسبب متانتها وصمودها. وكان لديها، أو بالأحرى لدى زوجها، إبريق صغير من الصّفيح، شديد السّواد حتى أنه اكتسب سمعة سيئة جداً. وكان وقود النار حطب الأجمات الذي يُحرق في بقعة مسقوفة عادة بثلاثة أحجار كبيرة تكون موقداً يحول دون الرّيح وإطفاء النار. حيث يوضع الإبريق فوق النار قبل الاستراحة الأولى، فيكون الشاي جاهزاً مع صوت صفارة الاستراحة. فما يتناوله أولئك الرّجال من الشاي لا بدّ أن تفخر به الإنكليزية العجوز في بيتها الرّيفي تفخر بقدرتها على الشرب، وهي التي لا تشرب أكثر من فنجان كل ساعة؛ ولما كان الشاي غالياً بالمقارنة، فإن هذا الحال يبين أن العمال كانوا يتناولون أجراً جيداً أيام كنا في البتراء مما يجعلهم قادرين على شراء الكماليات.

لقد استقرّ عزمنا وعملنا يقترب من ختامه على مغادرة البتراء يوم 14 أبريل والعودة عن طريق الكَرَك والبقاء في عمّان ما يسمح لنا بزيارة جَرَش ومادَبا؛ وكان ذلك لعمري برنامجاً ممتعاً كل الإمتاع. وبناءً عليه أرسلنا إلى عمّان نطلب إرسال سيارة إلى الجي، وأن تكون جاهزة في الصّباح الباكر من يوم الرّابع عشر. وكان المقدّر أن نكون نحن، إنشاء الله *inshallah*، في الجي الساعة السابعة صباح ذلك اليوم. ولكن الله لم يشأ لنا ذلك، إذ قبل أربعة أيام من موعد مغادرتنا فتحت السّماء بوابات الطوفان فأخذت الأمطار تهطل وتنهمر بلا انقطاع. غمرٌ ينادي غمراً[1] بفضل مزاريب الماء. واندفع نهر وادي موسى من علٍ مزمجراً عبر السِّيق، وإذا بدرب الكَرَك يغتسل ويذهب أثره، فجعلت الجداول الخدّاعة على الهضبة الدّرب غير سالك، وبقي السّياح في العقبة

(1) استذكاراً لما ورد في المزمور 42 : 7.

هنـاك. أمـا الذين يقصدون الكَـرَك فنزلوا في مخفر شـرطة القطرانة، وأمـا أمثالهم في الكَـرَك فقـد اضطروا للبقاء حيـث هـم، واضطر المنقبـون في خربة التنـور للاقتداء بنا والتسلح بالصبر «حتى تزول الغمّة».

ليسـت البتراء تحت المطر بالمكان البهيج. فالأمطار لا تهطل مدراراً وحسـب، بل إنّ حـال العالـم يغدو كما لو أن صاحب الطقس والأنـوار قد فتح الصّنابير لديه وجعل المـاء يجـري، وهبّـات الرّياح تدفـع بالمطر في كل اتجـاه، وعبر كل فجـوة في التلال تجمع السّـحب. وليس هناك سماء ولا مشـهد طبيعي، وإنما ضباب رمادي احتشدت فيـه أصوات المياه الجارية. والأرض غارقة عندئذ بالمياه وكذلك الخيام، فما لم يكن المرء مرتدياً أشـد المعاطف المقاومة للماء كثافة، لن يسـلم من آثار هذه الأمطار. وما على المرء في هذه الأحوال إلا أن يجلس ويلتمس الهدوء والصّبر على الحال، شاكراً إن لـم تدخل المياه إلى الخيمة رغم أن تلك الخيمة غارقة في البلل، وأن يبقى الكهف الـذي يلجأ إليه جافاً، وأن يكون لديه بديل من الأحذية والملابس، إن اضطرّ للخروج تحـت وابل المطر. فمع هـذا القدر من الأمطار يصبح للريح تأثيـر بارد يخترق البدن، ويـا لـه من تأثير مزعـج كل الإزعاج. ويلزم البدول البؤسـاء الأماكن الأشـد جفافاً في كهوفهـم، ويمكثـون بالقرب من نيرانهـم، لا يجازفون بالخروج مـن أماكنهم، إذ ليس هنـاك من عمل أو سـيّاح يحملونهم على مغادرة مواقعهـم المريحة حتى ينقطع المطر ويصلح حال الطرق وتجفّ الأرض من جديد.

كنا في حالة يأس تام. فما كان بوسـع أحد أن يأتي إلينا وليس بوسـعنا أن نغادر إلى أي مكان؛ بل وكان يستحيل أن نقدّر كم سيسـتمر الطقس السّـيء. وهنا أودّ أن أعلن تحذيـراً. عليكـم أن تقدموا النصح لمن يقول لكم إنه مسـافر إلى فلسـطين في الشـتاء أو الرّبيـع متوقعـاً طقسـاً دافئاً؛ فقد يصـادف هكذا طقس إلا أن الاحتمـال يناقض مثل هذه التوقعات. حسبكم أن تقدّموا النصح بأن يصطحب السّائح (وبالأخص السّائحة) معطفاً من النوع المشـمع الذي لا يسـمح بتسـرب الماء وزوجين من الأحذية المتينة. وقد يقول لك سـكان فلسـطين من الأوروبيين حين تفتح السّماء أبوابها لتصبّ المطر

مـدراراً، إن «هذا موسـم غير مألوف» عندهم، إلا أن الموسـم غيـر المألوف حقاً حين يكـون الطقس أكثـر جفافاً إلى حدّ ما وأقـل برودة مما هو في إنكلتـرا. فالمطر، المطر الحقيقـي – وليـس الهطـول القليل أو الغيث اللطيف – يسـتمرّ حتـى وقت طويل من شهر أبريل.

ومـع حلول الغسـق يوم الثالث عشـر لم يكن قـد بلغنا خبر عن السّـيارة، ولم يكن ليجـدي أن نبعـث برسـول إلـى الجي وهي على مسـافة ثلاثـة أميال، حتـى ولو علمنا بوصـول السّـيارة إليها. وكان المسـاء قـد حلّ حين تناهى إلى أسـماعنا صـوت أقدام حصـان يعـدو والحصى تتطاير من تحتها في كل اتجاه. وبمنتهى السّـرعة اندفع رقيب من الشـرطة فـي الجي إلى باب الخيمة وبحركة واحدة شـدّ لجـام حصانه وأوقفه، ثم نزل عنه ودخل الخيمة. كان ذلك مشـهداً أشـبه ببطل فيلم سينمائي يصل لينقذ البطلة. وكان الرّجل قد اقتحم السِّيق المضطرب، حسب العناية الأبوية التي يتلقاها كل الزّوار من نوّاب الثالوث، ليخبرنا بوصول السّـيارة، إنما كسـر منها جزء هام أثناء اجتياز أحد الأنهار (ولما كنت أفتقر للخبرة بالسيارات، فقد كنت أجهل أي جزء هذا)، ولا بدّ من بقائها في مكانها حتى يتم إصلاحها. وكان رجال الشـرطة قد اتصلوا لاسـلكياً بمرآب فـي عمّان وتدبروا أن تأتي سـيارة فـي اليوم التالي على عجل حاملـة لوازم الإصلاح، ونتمكن إنشاء الله من مغادرة موقعنا يوم الخامس عشر. لكن ثمّة أمراً مؤكداً، على كل حال، لن نتمكن من العودة عن طريق الكَرَك لاضطراب الطريق في عدة نقاط وسـوف يستغرق إصلاحه عدة أيام.

وإذا تعـذر إصـلاح طريق الكَرَك فيقيناً أن طريق جَرَش سـيكون مقطوعاً أيضاً، فإذا بلغنا عمّان بسـلام فربما نعتبر أنفسـنا عندئذٍ من المحظوظين. ويكون مجانباً للحكمة أن نحاول استطلاع المنطقة من حولنا.

وعلـى ذلـك تدبّرنا مع الرّقيـب أن نحصل على الأحصنة إنشـاء الله يـوم الخامس عشـر، أي إذا كانت السّـيارة جاهزة للسـفر، هذا إن كان الطقس على الوجه المناسـب بمـا يكفـي ليجعل الدّرب على امتداد الهضبة سـالكاً. لقد كان الله سـبحانه هذه المرة

رحيماً، فبدأنا ما اعتزمنا عمله في الفجر. ولقد خاطبني الصّبي المكلف برعاية حصاني باسمي، السّت مريم، وأخبرني مزهواً أن حصانه حملني عند وصولي. وكان الفتى ملمّاً بكل عملي، كما كان ثرثاراً، ولو كنت متمكنة من العربية قليلاً أفضل من واقع حالي فلربما سمعت عندئذ كل الإشاعات والفضائح في الجي أثناء تلك السّاعة التي قضيناها على ظهور الخيل. ولكن واقع الحال أنني أدركت بما لدي من معرفة محدودة بالعربية أن هناك في القرية الكثير من الإشاعات والفضائح معاً.

وحين بلغنا الجي سأل أحد المارة الصّبي سائس حصاني: «من تكون هذه؟»، فأجاب الصّبي العامل عندي: «الست مريم». ثم سمعت الجميع يتساءلون «أين السّت مريم؟»، «هذه السّت مريم على الحصان». و«الست مريم آتية». «هذه السّت مريم». وتقدّمتُ من كورس يردّد «الست مريم» حتى التقينا جماعة من التلاميذ يخرجون من مدرستهم. فصاح تلميذ في العاشرة من عمره: «من منكم السّت مريم؟»، ثم وجدته يندفع نحوي وأبرز لي إصبعاً مجروحاً تتدلى منه قطعة من الجلد. فأخذت أبحث في جيب سترتي عن اليود الذي لا بدّ منه، وللتوّ خرج صوت «آه» من الجمع الصّغير الذي سرعان ما تجمّع حولي ومريضي. فحبس الجميع أنفاسهم والمسرحية جارية. فلما انتهت ورأى الجميع بأم أعينهم ما كان أهلهم الذين معي قد وصفوه لهم تفرق جمعهم وغادروا. وكان هذا آخر اتصال لي بشعب شرق الأردن؛ والسّبب في ذلك أن بقية الرّحلة قد خلت من الحوادث ولم تكن مثيرة.

لقد أشرت في عدة مناسبات إلى شرطة شرق الأردن، إنما أذكر أنه استرعى نظري واقعنان تظهران عمل الشرطة في الفترة التي كنت فيها في البتراء.

كان أحد زوّار البتراء يقود سيارة من معان إلى الجي حين لاحظ رجلين على طرف التل يوجهان إليه بندقيتيهما. ولما كان الطريق سالكاً زاد السّائق من سرعة السّيارة وبلغ منعطفاً جعله خارج نطاق النار. ولما وصل الجي أبلغ الشرطة بما صادفه، فمضى الرّجال يحققون في الواقعة. فوجدوا عندئذ أن قاطعي طريق قد أقاما ساتراً من الاستحكامات وكمنا وراءه مستلقيين وبندقيتيهما معدتان لإيقاف أيّة سيارة مارة ونهب

مـا فيها. وقد بادر أحدهما إلى الاشـتباك مع رجال الشـرطة، ولكنهم غلبوه فاستسـلم للدورية، بينما أطلق الآخر سـاقيه للريح. ولكن ما كادت تمضي أربع وعشـرون ساعة حتى كان هذا قد أُلقي القبض عليه إلى جانب صاحبه.

وقـد جـرت الحادثـة الثانية على هـذا النحو: كان أحـد الأسـاتذة الجامعيين، وهو أميركـي، يزمـع السّـفر إلـى البتراء عـن طريق الكَـرَك، فطلبـت منه الشـرطة في مخفر القطرانـة، إن أمكن، أن يصطحب معه في سـيارته جريحاً إلى مستشـفى الكَرَك. وكان هذا حاجّاً مسـلماً عائداً من مكة سـيراً على الأقدام، وهو فقير لا يملك في جيبه سـوى ثمانين قرشاً (تعادل ستة عشر شلناً) لتحمله إلى موطنه، وأحسب أنه كان من البوسنة، وفـي الطريق الصّحراوي صادف أحد قطّاع الطرق الذي ضربه بقسـوة وسـرق نقوده. ولكنه تمكن من الزّحف حتى القطرانة حيث قدم له الشرطة الإسعافات الأولية ودوّنوا إفادته عن الواقعة ووصف قاطع الطريق. وقد حمل الأستاذ الجامعي الأمريكي الجريح إلى مستشـفى الكَرَك وتمكن من الحصول على مزيد من التفصيلات في وصف قاطع الطريق، بوساطة سائق السّيارة العربي.

وفي مسـاء ذلك اليوم قام أحد مفتشـي الشـرطة في الكَرَك بزيارة الأستاذ الجامعي ليحصـل منـه علـى معلومات جديـدة، إن توفرت، يكـون المصاب قد أدلى بها بشـأن قاطـع الطريـق، وما إذا كان واحداً أو عدة أشـخاص، وفيمـا كان المفتش يغادر مودعاً قال: «لسـوف يقـع قاطع الطريق في أيدينا غـداً». وقال الأسـتاذ الجامعي، وهو يروي لي مغامرته: «لقد قلت في نفسـي إما أنك رجل شـرطة لا نظير له بين الرّجال، أو أنك رجل شـرطة كاذب من الطـراز الأول، والأرجح عندي أنك الثانـي». ولكن فيما كان يجلس لتناول الفطور صباح اليوم التالي حملت إليه الأخبار نبأ إلقاء القبض على قاطع الطريق هذا، وكان اعتقاله سـريعاً حتى لم يتوفر له أن ينفق الثمانين قرشـاً التي وجدت في كيس دراهمه. وهكذا استعاد الحاج نقوده.

ولا بدّ للمرء من أن يقرأ أعمال داوتي أو لورَنس، أو أي كاتب آخر لديه سنوات من الخبـرة وعـرف العرب، وخاصة البدو، كي يلمّ ولو قليـلاً بالإنجاز الرّائع الذي تمّ منذ

الحين في شرق الأردن. فذلك الجمع المنظم من الرّجال المدرّبين الذين يطلق عليهم اسـم «الفيلق العربي» Arab Legion، قد تم تجنيدهـم من أولئك البدو أنفسـهم الذين أذهلوا داوتي ولورَنس بضعف شـعورهم بالمسؤولية. ومع ذلك فإن أمر الحفاظ على القانـون والنظام اليوم بيد قوم كان يغلـب عليهم عدم الطاعة والانصراف عن القانون، فالذيـن كانـوا مغفلين قد اكتسـبوا روح المبـادرة واللباقة والحزم فـي معالجة مواقف صعبـة لا يمكن إيفاءهـم حقهم من الثناء فـي تعاملهم معها. وهـذه معجزة تمّت على أيدي الثالوث كوكس وپيك وغلوب.

* * *

ملحـــق

رواية حول هجوم قام به مغيرون على دير في سيناء حين اختطف ابن القديس نيلوس ليُقدّم قرباناً (مختصرة)

كان رجال الله يمضون حياةً تحكمها الشـرائع والدّين، وإذا بعاصفة من اللصوص مثـل الوحـوش الضارية يداهمونهم[1]، ولسـت أدري من أين أتوا. وفـي الصّباح حين انتهى الآباء المقدّسون من قدّاسهم الليلي داهمهم قطاع الطرق اللصوص الذين لا دين لهم. وشـاءت الصّدفة أن أكون في وسـطهم ومعي ولدي، وكنت قد أتيتُ مبكراً، كما جرت العادة أن أنزل من الجبل المقدّس لزيارة القديسين وكانوا في روبص Rubus.

ولمّا اندفعت نحوهم صارخاً بلغة غريبة ردّوا بهجوم أشرس من الكلاب المسعورة. وكانـت المـؤن التي قـام أهل القداسـة باختزانها لتقيـم أودهم في الشـتاء قد جمعوها وراكموها فوق بعضها. وأفاد أولئك البرابرة بالتهديد والوعيد من جهدنا في حمل هذه المـؤن. وبعـد أن تمّت هذه المهمة أخـذوا يجرّوننا إلى خارج الكنيسـة ويجرّدون من كانوا الأكبر منا سناً من ثيابهم حتى باتوا عراة ثم مضوا يرتبونهم في صفوف مستقيمة. وعندئذ جردوا سـيوفهم على الصّفين وقد كشـروا من شدة الغضب؛ وأخذت حدقات أعينهـم الحمـراء كالدّم تنتقل فـي مآقيها من طـرف إلى طرف، فأمـروا راهب المكان المقدّس بأن يدفع عنقه للأمام. ولما فعل ذلك وجّه أحدهم وكان يقف قريباً منه طعنة

(1) هذا الوصف يتعلق بحياة الأنباط الوثنيين في عصر الجاهليّة، قبل قرنين من انبلاج فجر الإسلام، ونسخ مثل هذه الممارسات الهمجيّة.

قويــة إلــى مؤخر العنــق. ثم قام أحد رفاقــه بتوجيه طعنة أخرى يقلد بها مــا فعله رفيقه. ولكــن رجــل الدّين لـم تنــدّ عنه آهة بالرغم من الألــم الفظيع الذي بات مســتولياً عليه، دون أن يبـدي علامــة أو دليـلاً على الألـم، وإنما راح يرســم العلامة (رســم الصّليب) ويتمتم لنفســه بهمســة ضعيفة «مُبارك الرّب». اخترقت الطعنة الأولى المســاحة العليا بين الكتف والفك، مخترقة الأذن والثانية من الكتف إلى الصّدر. وهكذا صار القديس يتداعى شيئاً فشيئاً ولـم يرتـمِ بطول قامته على الأرض في انهياره....

وبعده قام الهمج بذبح رفيقه في الصّومعة، وكان في مثل سنه، رجلاً حطمته السّنون ومكابدة حياة أمضاها في الدّير. ومنهم من أنزلوا جام غضبهم على فتى كان أحد أولئك البرابـرة قـد طلب منه أن يجمع لهــم بعض الفراولة (الفريز) فصــدع الفتى للأمر الذي صدر إليه، وقد حرص وهو ينبطح على الأرض على أن يجمعها بيديه كلتيهما ويضعها في قميصه المفتوح. وكان ثمّة (همجي) آخر يقف وراءه، فجرّد هذا سـيفه من غمده. والتفـت الفتى، إما لأن صوت السّـيف وهو يُجرَد اسـترعى انتباهــه أو لأن الظن ذهب بــه إلــى توقع طعنة قاتلة، وكان هذا هو الحال، فـأدار وجهه مضطرباً وعلامات الرّعب ظاهــرة عليه ليتبيّن مّن يتهدّده بالخطر من خلفه. ولكن الجزار أرعبه أكثر بصيحته التي أطلقها ونظرة عينه الرّهيبة، وبقوة وجبروت دفع برأس السّيف في مفصل لوحة الكتف حتى بلغ صدره فوقع ميتاً قبل أن يسحب السّلاح من الجرح.

وهنا اعترض الهمج فجأة أمرٌ خفّف من وحشيتهم تجاه بقيتنا الواقفين يشاهدون ما يحدث، حتى أنهم أشــاروا إلينا بالتراجع والهرب بأيديهم التي ما تزال تحمل السّيوف والدّم يقطر منها وأسـرع [بعضنـا] إلى الجبل المقدّس فـوق الأرض الوعرة. ولكني كنت أجدني منجذباً وأنا في ضيقي أندفع في اتجاهات متعاكسة ومكثت هناك ينتهبني الشك، وما كنت أملك اغتنام الفرصة للهرب فقد كنت مقيّداً بحبي لولدي. وكان يشير بعينيه إليَّ بأن أتراجع وأقنعني بعد لأي بالانسحاب، وكان أن تراجعت قدماي وتبعهما بقية جســدي. ولكن قلبي قاوم ورفض متابعة الطريق، ولو كنت قد انســحبت حقاً.... ووســط تيارات العاطفــة التي كانت تتجاذبنــي تبعت الآخرين الذين كانــوا يتقدّمونني

وهم يجرون حتى فرّوا إلى الجبل، ومن هناك نظرتُ محدّقاً كما لو كنت أنظر من برج مراقبة إلى ابني التعيس حتى اقتادوه بعيداً. وهو أيضاً كان يبادلني نظرتي المحدِّقة، وإن لـم يكن يسـتطيع أن يبادلنـي النظر بحرية، إلا أنه كثيراً مـا كان يتمكن من خداع الهمج بمختلف الأعذار المتكلفة لينظر إلى الخلف.

وهكـذا تابعت ولـدي، وأنا في أعلى الجبل، ولا أدري كيف تيسّـر لي النظر – لأن إدراكـي وعقلـي كانا قد فارقاني – بعيني المنهكتين، ثم، ويـا لهول ما رأيت! لقد اقتيد وغاب مشـهده، وبُعد المسـافة يضلّل ناظري. ولما صرتُ الآن مـدركاً أني فقدت كلّ أمـل برؤيتـه ثانية عاودت ضراعتي وسـألت الله.... وبعد أن مـات الكثيرون ذبحاً في البرية وذهب كل شـيء قريباً وبعيداً هدراً، تراجع الهمج مسـافة لا بأس بها. (في ظلام الليـل) وحيـن تمالكنا جأشـنا نزلنا (من الجبـل) لنقوم بالواجب الدّينـي الأخير حيال رفات الموتى. كان الجميع موتى سـوى قديس عجوز ما زال يتنفس وقادراً إلى حدّ ما على الكلام. وجلسـنا من حوله وأمضينا الليل في الندب والرّثاء. ثم مات قديسـنا في النهاية، وبعيون باكية واريناه الثرى مع الآخرين. وبعد أداء هذا الواجب في ظلام الليل الذي لـم يكن قد انتهى بعد، صار بوسعنا أن نأتي إليك بأمان دون أن يلحظنا أحد.

* * *

ثبت المراجع

Bruennow, E. R., and von Domaszewski, A. *De Provincia Arabia*, Vol. I. Strasburg. 1904.

Clermont–Ganneau, C. *Études d'archéologie orientate*. Paris. 1880.

Cooke, G. A. *Text Book of North Semitic Inscriptions*. Oxford. 1905.

Cooke, S. A. *The Religion of Ancient Palestine*. Oxford. 1930.

Dalman, G. *Petra und seine Felsheiligtümer.* Leipzig. 1908.

Dalman, G. *Neue Petra–Forschungen*. Leipzig. 1912.

Euting, J. *Nabatäische Inschriften aus Arabien*. Berlin. 1885. von Gutschmied, A. (See Euting, above.)

Hart, H. C. *Some account of the Fauna and Flora of Sinai, Petra, and Wady Arabah*. Palestine Exploration Fund. 1891.

Hirth, F. *China and the Roman Orient*. Leipzig. 1885.

Horsfield, G. and A. *Sela Petra*. Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine, Vol. VII. Oxford. 1938.

Hull, E. *Mount Seir.* London. 1885.

Kammerer, V. A. *Petra et la Nabatène*. Paris. 1929.

Kennedy, A. B. W. *Petra*. London. 1925.

Lawrence, T. E. *Seven Pillars of Wisdom*. London. 1935.

البتراء (السلع)

مدينة أدوم الصّخريّة

منذ اكتشاف أوروبا لحضارة بترا (سلع) في عام 1812 على يدي الرّحّالة السّويسري الشهير يوهان لودفيغ بوركهارت، غدت هذه العاصمة النبطيّة الفريدة في جبال أدوم واحدة من أشهر وأجمل صروح الحضارة العربيّة في المشرق، حتى صارت في عصرنا المعلم الأثري الأول في الأردن، واختيرت بجدارة ضمن قائمة عجائب الدّنيا السّبع الجديدة. كان بُناتها من أكثر شعوب العالم القديم ذكاءً وموهبة، ولم يبق من حضارتهم سوى هذه المدينة المذهلة المحفورة في الصّخر، والخارجة كأعجوبة من قلب الحجر الرّملي ذي اللون الأحمر الدّاكن.

في هذا الكتاب الذي وضعته الآثاريّة البريطانيّة مارغريت أليس مَري، تقدّم لنا المؤلفة لمحة موجزة ممتعة عن هؤلاء الأنباط وحضارتهم البائدة، وقدرتهم على التكيّف حسب الظروف والمصاعب المحيطة بهم. وعن أصولهم القديمة وتطوّر ثقافاتهم متعدّدة الأوجه، وعن علاقاتهم بجيرانهم، وكيف عانت مملكتهم بسبب حقد روما وحسدها، ثمّ اضمحلّت تحت حكم بيزنطة لبلاد الشام، عشيّة قيام البعثة النّبوية الشريفة.

السعر 55 درهماً

9 789948 013723

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY